الأكاديمية الليبية

مدرسة العلوم الإنسانية

قسم: التفسير

شعبة: الدراسات الإسلامية

دراسة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول علي الدرجة الإجازة العالية

الماجستير في التفسير

بعنوان

ثقافة النبي محمد ﷺ ــدراسة قرآنية-

إعداد الطالب: ضو مسعود طالب شبل

رقم القيد: 17358

إشراف الأستاذ الدكتور: خليل إسماعيل الشطي

الفصل الدراسي خريف: 2012 - 2013

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾

(الأحزاب :21)

الإهْـــــداء

إلى وَالِدَيَّ العزيزين اللذين كانا سبباً في وجودي في هذه الحياة

بعد الله سبحانه وتعالى . . .

إلي زوجتي الفاضلة

إلي أبنائي ترتيل ، تمام ، تقي الدين

وإلى كل المربّين من الآباء ، والأمهات ،و المعلّمين ، والأساتذة ،

وإلى المتصدرين لحل المشكلات ، والحريصين على سعادة مجتمعهم ،

إلى كل هؤلاء أهدي هذه الثمرة المقتطفة ، من الثقافة التي لا تنضب

من سيرة الحبيب المصطفى ﷺ . . .

شـــكر وتقـــدير

فإنني أشكر الله تعالى على نعمه المتعددة وآلائه المتتابعة، منها نعمة التوفيق لإتمام هذه الدراسة، فله الحمد أولاً وأخراً وظاهراً وباطنا.

ثم إنني أشكر أستاذي الفاضل الدكتور خليل إسماعيل الشطي، مشرفي على هذه الرسالة، الذي لم يدخر وسعاً في تقديم النصح، والتوجيه في أعمال الرسالة، والملاحظات القيمة والبناءة التي أضاءت لي الطريق في خوض غمار هذا الدراسة، فجزاه الله عني خير الجزاء.

كما أتقدم بالشكر والتقدير للمناقشين:

الدكتور: سالم مصطفي القريض

الدكتور: جمعة محمد لأحول

لقبولهما مناقشة هذه الرسالة، و التي سيكون لتوجيهاتهما وآرائهما السديدة الأثر في خروج هذه الرسالة بالصورة الأفضل.

كما أشكر أساتذتي الأفاضل، في أكاديمية الدراسات العليا، الذين فتحوا لي ولزملائي آفاق رحبة في مجال البحث العلمي.

كما لا يفوتني شكر وتقدير العاملين بمكتبة الأكاديمية، والى زملائي الذين مدوا لي يد العون والمساعدة في دفع هذه الرسالة إلي الأمام.

ثم أشكر زوجتي الصالحة أم تمام التي أعانتني كثيراً لإتمام هذه الرسالة وصبرت على انشغالي بالكتابة وكانت نعم السند والمعين.

وأشكر أبنائي ترتيل، وتمام، وتقي الدين، الذين منحوني أوقاتهم وزهدوا في كثير من طلباتهم لتوفير الوقت اللازم لكتابة هذا الرسالة.

وفي الختام أشكر كل من قدم إليّ معروفاً حتى إتمام هذه الدراسة ممن لم تسعفني الذاكرة والمجال بتسطير أسمائهم.

الباحث

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المقدمـــة:

للثقافة الإسلامية من القوة ما يميزها عن غيرها من حيث المرجعية والمصادر، فهي تعتمد على القرآن الكريم وما فيه من القوة والإعجاز البلاغي والتسجيل الوثائقي للأحداث، ولِّمَا فِيهِ من مصادر الْقُوَّةِ فِي مجال الغيبيات التي لا يعلمها إِلاَّ الله تبارك وتعالى.

ويشهد على ذلك ما يتميز بِهِ من أتقن القرآن الكريم وعلومه من الأمم والشعوب غَيرِ العربية؛ إِذْ يملكون رصيداً مِّنَ الفكر والثقافة العالية تمكنهم مِّنَ أن يبرزوا عَلَى غيرهم مِن أبناء العرب الَّذِينَ لم يتمكنوا مِّنَ ملكة الثقافة القرآنية العالية.

هذا سر من أسرار الإعجاز القرآني، يستطيع أن يمتلكهُ مِّنَ هداه الله تبارك وتعالى إِلَى ثقافة الفكر الإسلامي سواء فِيهِمه ما اختلف أصله أو جنسيتهُ.

أما المصدر الثاني للثقافة الإسلامية فهي السنة النبوية.

وهي نبع من منابع القرآن الكريم على لسان النبي ﷺ ،**التي** أجرى الله ﷻ على لسانه الحكمة، وألهمه الفطنة، والإعجاز، والإبداع في كل علم من العلوم المتقدمة والحاضرة والمستقبلة.

كلام ثريٌّ بالمعاني السامية والثقافة القرآنية العالية، من خلال ما أوحى الله عز وجل للنبي ﷺ، للمحتوى القرآني، يقول: ﷺ (أوتيت القرآن ومثله معهُ)(1).

أهمية الدراسة:-

تكتسب هذه الدراسة أهميتها، وقيمتها العلمية، من أنها تخوض في قضية الثقافة، وعلاقتها المباشرة بالوحي، والذي يراد به القرآن الكريم، الَّذِي أُنزِلَ على النبي محمد ﷺ، وقد تناولت الدراسة قضية الثقافة بعنوان: (ثقافة النبي محمد ﷺ – دراسة قرآنية).

ومِنْ جملة القضايا الأساسية، والَّتِي تتمحور في مسألة الثقافة كجزء مِّنَ قضية فهم النص القرآني الَّذِي أنزلَ على النبي ﷺ فكان الأساس لقضيتنا ِهيَ الثقافة القرآنية ضمن مادة الوحي، بقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }(الشورى :52).

(1)سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب لزوم السنة ، (رقم : 4604).

أهداف الدراسة:-

1-تهدف الدراسة إلى فهم وتحليل ثقافة التكوين، في إعداد الفرد المسلم، والبيت المسلم، و المجتمع المسلم، من خلال السيرة النبوية كمنهج حياة وتصور، لكل النظام الشامل للإسلام، فمنها يتعرف المسلم على منهج التكوين الإسلامي، فيعرف كيف أعدَّ النبيُ ﷺ الدولة الإسلامية.

2-السيرة النبوية، عرضها مِّنَ منظومة الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، مِّنَ خلال الوحي الإلهي إلى النبي ﷺ، وأَنَّ ما يروى من حديث السيرة النبوية في الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هو القول الفصل وهو المرجع الذي تصحح بِهِ المراجع، وتعرض على مقياسهُ السير والتواريخ.

3-من خلال دراسة سيرته صلّى الله عليه وسلّم، أكبر قدر من المعارف الإسلامية الصّحيحة، ضمن مصطلح الثقافة، سَوَاءٌ ما كان منها متعلِّقاً بالعقيدة أو الأحكام أو الأخلاق....الخ.

4-الانتقال بالسيرة النبوية من الدرس التقليدي الذي يعرض السيرة أحداثاً تاريخية فقط، إلى الدرس التحليلي، الذي يتناول القضايا والإشكالات في مسار الدعوة و حياة النبي ﷺ.

5-من خلال ثقافة النبي ﷺ القرآنية؛ كمجال أوسع إلى دراسات أخري لشخصيته ﷺ.

فرضيات الدراسة:-

-هل كانت الدراسات والأبحاث مجزية، في عرضها وتحليلها للسيرة النبوية على مدى ثلاثة وعشرين عاماً؟

-ما مدى قدرتنا علي عرض السيرة النبوية، في حدود الخطاب الديني الخاص والعام؟

-هل يمكن أَنَّ نخرج من التبعية والتقليد في دراستنا، وسردنا، وعرضنا للسيرة النبوية؛ لنصل إِلَى مصطلحات أكثر جدوى وواقعية، في مواكبتنا للعصر؟

-هل يمكن بناء صرح ثقافي إسلامي، تكون الثقافة القرآنية أساسهُ، وتكون مرجعية للمسلم المعاصر؟

- ما مدى التزامنا نحن المسلمون بهدي النبي محمد ﷺ، في أقوالنا، وأفعالنا، في قراراتنا، وكل مل يتعلق بشؤوننا العامة والخاصة.

سبب اختيار الموضوع :-

بتوجيه من الدكتور المشرف، أقترح عليّ هذا الموضوع، مقتبساً من كتاب (شخصية الرسول الأعظم)، للشيخ جلال الحنفي البغدادي(2).

فمن باب الأمانة العلمية نذكر ذلك.

(2)شخصية الرسول الأعظم قرآنيا ، جلال الحنفي البغدادي ، وزارة الثقافة والإعلام ، ط1 – 1997م.

وإنَّ دراسة السيرة النبوية وشخصية النبي ﷺ في منطقة معينة، وغَيْرَ موسعةٌ، ومعمقةٌ كَأَحَد الأَسْبَاب.
وإنَّ اختيارنا هذا أقرب ما يكون لتوجه يسعى بالأساس إلَى إيجاد حل لتلك الإساءات الفظيعة والمتكررة الَّتِي يتعرض لها رسول الله ﷺ بَيْنَ الفينةِ والأخرى، عن طريق فتح باب الحوار مع غير المسلمين، في محاولة مِنَّا لتعريفهم بحقيقته الإنسانية والعالمية لِلنَّبِيّ الرحمة صلى الله علي وسلم، والَّتِي فِي الغالب يجهلونها، ولذلك يسيئون إليه عن غير قصد أحياناً!
قد يقول لنا قائل: أَنَّهُم يفعلون ذلك عن قصد، وسنقول له: نعم، هناك من يفعل ذلك عن قصد، وهناك من يفعله عَنِ غير قصد، ولكننا نريد أن نبني علاقاتنا مَعَ الأخر بصورة واقعيه وحية، تنقل عن النبي ﷺ بصورة واقعية وملموسة ومعاصرة، وعلى حسن الظن والتسامح وبعيداً عَنِ متاهات العنف المضاد، وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (يسروا و لا تعسروا ، وبشروا(3)، ولا تنفروا)(4).وبذلك كَانَ علينا **أَن نطور** من مصطلحاتنا، و كتاباتنا، لتكون أكثر جدوى في مجال دراسات السيرة النبوية وأبعادها وما يجب أن يتحلى به الداعي والمبشر إلى الله من حسن الخلق، ولين المعاملة بجمال الحديث، وبهاء الدعوة وقوة الجاذبية، ودقة التصرف والإحسان في التعامل، وكل مؤمن يدعوا إلى دين الله ومؤثرٍ بسلوكه.
حدود الدراسة:-
- منطلق ثقافة النبي ﷺ، ضمن سياق القرآن الكريم.
- استخراج الدروس، والعبر، والعظات من كل حدث من سيرته ﷺ.
- توثيق السيرة النبوية من منظور إسلامي معاصر.
- واجبات المسلمين بالدفاع عن النبي ﷺ، والاستفادة من مراحل الدعوة الإسلامية.
منهج الدراسة: -
استخدمت المنهج التحليلي في تتبع خطوات البحث.
الدراسات السابقة:-
إنَّ الدراسات الَّتِي تناولت النبي محمد ﷺ، عديدة ومتعددة إجمالاً وتفصيلا، فهي تكاد لا تحصى، فلا توجد دراسات مطابقة تناولت ثقافة النبي ﷺ القرآنية، وإنَّ وجدت دراسات فقد تناولت جوانب مختلفة من حياته ﷺ، ولكن الخوض في مجال ثقافته البحتة، يظهر في هذه الدراسة، لتعتبر الدراسة الأولى في مضمونها ومحتواها.

(3)بشروا : التبشير من البشارة وهي ضد النفارة .
(4) متفق عليه ، باب الحلم والأناة والرفق ، شرح رياض الصالحين ، (392 : رقم الحديث (6))،شرح وتحقيق ، الحسيني عبد المجيد هاشم ، دار الجيل ، ط1 -2005م.

الصعوبات:-

بعد الاستقرار على موضوع " ثقافة النبي محمد ﷺ – دراسة قرآنية- "، واجهتني صعوبات أحدها طبيعة البحث نفسه الذي تطلب مني جهداً ووقتاً مضاعفاً في سبيل اكماله، رغم قلة المصادر والاتصالات والظروف الصعبة، وبفضل من الله وتوفيقه استطعت إيصال الدراسة إلى المراحل الأخيرة للبحث، فللّهِ الفضلُ والمنة.

تقسيم الدراسة:-
جاء البحث في مقدمة ومدخل للدراسة و أربعة فصول تنطوي على مباحث وخاتمة وهي علي النحو الاتي:-
-مدخل للدراسة .
الفصل الأول / قبل بعثة محمد ﷺ.
المبحث الأول/ نظرة إجمالية على الوضع الديني في القرن السادس الميلادي.
المبحث الثاني/ أصول العرب وحضارتهم.
المبحث الثالث/ الأحوال السائدة عند العرب قبل بعثة محمد ﷺ.
المبحث الرابع/ أهم الأحداث التاريخية قبل البعثة.
الفصل الثاني/ بعثة الرسول ﷺ وتطور الدعوة.
المبحث الأول/ البحث عن الحقيقة والاصطفاء.
المبحث الثاني/ مبعث النبي ﷺ.
المبحث الثالث/ الدعوة سراً.
المبحث الرابع/ ظاهرة الوحي.
المبحث الخامس/ أميته وحفظه للقرآن الكريم.

المبحث السادس/ بشرية الأنبياء.

المبحث السابع/ الإسراء والمعراج .

المبحث الثامن/ الجهر بالدعوة .

الفصل الثالث/ ثقافة النبي محمد ﷺ.

المبحث الأول / شخصية النبي صلى الله عليه وسلم الثقافية .

المبحث الثاني/ الثقافة القرآنية للنبي ﷺ.

المبحث الثالث/ منطلقات الثقافة النبوية.

المبحث الرابع/ ثقافة التربية والتعليم في الثقافة النبوية.

المبحث الخامس/ ثقافة البيئة في الثقافة النبوية.
الفصل الرابع / التحول التاريخي إلى دولة إسلامية.

المبحث الأول/ بناء مسجد النبي ﷺ بالمدينة.
المبحث الثاني/ البناء الاجتماعي.
المبحث الثالث/ بناء دولة المؤسسات.
الخاتمة:-

وأخيراً أرجو مِن الله العلي القدير أَن أكون قَدْ وفقت في بحثي هَذا وأَن أكون أضفتُ إِلَى المكتبة الإسلامية بحثاً مفيداً وجاداً أسهمت به في إثراء العلم النافع من خلال قصارى جهدي وعصارة أفكاري، وأن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الكريم، فإن وفقت فذلك فضل مِن الله وتوفيقه، وأن يثيبني على كل حرف كتبته، وأن يثيب من أعانني في إتمام هذه الدراسة.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا اله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك وصلى الله وبارك على سيدنا محمد.

الباحث

مدخل للدراسة

مفهوم الثقافة

إن الثقافة مسار ملموس، يكتسبه الفرد من حياته اليومية، من مجموع السلوك المعبر عنه في المجتمع ،سواء كانت ثقافة مكتسبة أو موروثة، وهذا يقودنا إلى تعريف الثقافة لغة واصطلاحاً:

أولاً: الثقافة في اللغة:

فهي أساساً الحذق والتمكن، وثقف الرمح أي قومه وسواه، ويستعار بها للبشر فيكون الشخص مهذباً ومتعلماً ومتمكناً، من العلوم والفنون والآداب.

الثقف: الحذق في إدراك الشيء وفعله، ومنه استعير: المثاقفة أي الملاعبة بالسيف، ورمح مثقف أي مقوم، ويقال ثقف كذا: إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر(1)، وقيل ثقفت الكلام أي وعيته، ويقال ثقفت الفتاة إذا أقمت عوجها(2).

كذلك الثقافة، تعني، التهذيب والصقل ...تثقيفا وثقافة صار حذقاً خفيفاً فطناً، فهو ثقف ....والثقيف ما تسوي به الرماح ....وثقفه تثقيفاً سواه(3).

ونذهب إلى تعريف أخر، الحذق والمهارة، الإحاطة بالعلوم والآداب؛ وحسن التهذيب(4).

ويطلق مفهوم الثقافة، على المعاني الحسية، ويراد بها التسوية وتقويم الاعوجاج ،كما تستعمل كلمة الثقافة في القضايا المرتبطة بالعقل والفكر(5) .

ونستنتج من مجموع التعاريف أن المعنى اللغوي لمادة ثقف هو الحذق والفطنة والتهذيب والتأديب وتقييم المعوج من الأشياء وإدراك الشيء والحصول عليه.

(1)مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، الراغب الأصفهاني ، مادة ثقف .
(2)معجم المقاييس في اللغة ، أحمد بن فاس ، مادة ثقف .
(3)القاموس المحيط ، الفيروز آبادي (4 : 125) مؤسسة الرسالة ، 1996م - القاهرة .
(4)زاد الطلاب ، هزار وآخرون، باب " ث " ، دار الراتب الجامعية ، بيروت– لبنان.
(5) الثقافة الإسلامية ، محمد المرتضي ،(ص : 19)، منشورات جامعة عمر المختار ، ط 2 ، البيضاء – 2006م.

الثقافة اصطلاحا:

لا يوجد تعريفاً: قاطعاً جامعاً لمفهوم الثقافة، لاختلاف العقائد والاتجاهات والتيارات الفكرية المعاصرة.

أما عند الغرب فقد كانت دلالة الأصل اللاتيني لكلمة الثقافة مقصورة على تنمية الأرض ومحصولاتها، وفي أوائل العصور الحديثة بدأت الكلمة تستعمل بمدلوليها المادي والمعنوي العقلي(6).

واستخدم مفهوم الثقافة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع تقدم العلوم الأنثروبولوجيا، وقد استخدموها في البداية لتكون محل الحضارة أو مرادفها ثم اقتصرت على جوانب المعنوية غير المادية، ومن أوائل من عرف الثقافة "ادوارد تايلور": الثقافة بأنها ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والقانون والعادات وغيرها من القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع(7).

إذا فهي مجموعة من العلوم والفنون والمعارف الفطرية التي تؤلف الفكر الشامل للإنسان فتكسبه أسباب الرقي والتقدم والوعي(8).

وينطوى تحت هذا التعريف كل عناصر الفكر، ومختلف التصورات التي تشتمل على شتى ألوان المعرفة ومكتسباتها، وهناك فرق بين مفهوم كل من الثقافة، والمدنية، والحضارة.
وإذا أردنا أن نعرف الثقافة في الاصطلاح فإن أنسب تعريف لها هو تعريف المجمع اللغوي الذي عرَفها بقوله: جملة العلوم، والمعارف، والفنون التي يطلب الحذق فيها(9).
ومن خلال هذا الطرح يتبين تأثير الثقافات، بعضها البعض، نتيجة الاتصال بينها ، ويتميز الإنسان بقدرته، على أنتاج الثقافة، بحيث نجد لكل مجتمع ثقافته الخاصة به، وهذا يقودنا، إلى تعريف الثقافة من منظور إسلامي.
الثقافة الإسلامية اصطلاحاً:
الثقافة الإسلامية غير الثقافات الأخرى، أساسها القرآن والسنة النبوية الصحيحة التي تدور في خضم التعاليم الإسلامية.
ولما كان لكل أمة ثقافة خاصة بها لابد وأن تضع مفهوماً خاصاً لثقافتنا الإسلامية.

(6) في معركة الحضارة ، قسطنطين زريق ، (ص : 33) دار العلم للملايين ، ط1 ،1964م .
(7)تاريخ الحضارة الإنسانية ، محمد خريسات وآخرون ، (ص: 23)،دار الكتب للنشر والتوزيع ط1 – 1999م.
(8) دراسات في الثقافة الإسلامية ، أمير عبد العزيز ، (ص : 25) ، دار الكتاب العربي – بيروت ، ط1 1979م
(9)إبراهيم مصطفي وآخرون ، المعجم الوسيط ، (1 : 98) ، دار الدعوة - أسطا نبول .

وهناك مدرستان في تعريف الثقافة الإسلامية ومن هذه التعاريف:-
المدرسة الأولى؛ والتي تقوم على أساس التعريف بالدين الإسلامي بشكل عام، وحياة الأمة ومقومات ثقافتها من وجهة النظر الإسلامية بشكل خاص.
وهي إدراك المفاهيم الإسلامية الصحيحة لجوانب الحياة المختلفة(10).
كذلك هي المفاهيم الصحيحة، عن الله والكون والإنسان والحياة، عن الله الخالق، وعن الكون كمسخر للانتفاع الإنساني، وعن الإنسان كمستخلف في الأرض لاستعمار الكون، ومسئول عن تصرفاته الحسنة والسيئة، والحياة كمجال للعمل الإنساني على أسس إسلامية(11).

و المدرسة الثانية؛ تعرف الثقافة ضمن أطار المنهجية الإسلامية، و بما استحدثت من علوم ميزتها عن غيرها من الثقافات الأخرى.

إنَّ الثقافة الإسلامية، علم جديد له موضوعاته الخاصة التي تميزه عن غيره من العلوم الإسلامية كالحديث أو التفسير أو الفقه أو الأصول، وهو علم أوجدته الأحداث والمستجدات والتحديات المعاصرة(12).
وأنسب التعاريف تعريف مالك بن نبي: هي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد من ولادته، وتصبح شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه(13)، وهذا التعريف يشمل اللغة والتقاليد و المؤسسات والأفكار الموجهة، والعقائد، والقيم التي تسود في المجتمع(14).
علاقة الثقافة بالدين:-
يتطلب الكشف عن علاقة الثقافة بالدين، تعريفهما لغة واصطلاحاً.

الدين لغة:

اسم عام يطلق على كل ما يتعبد الإله به، كما يطلق على عدة معان مختلفة.
دان الناس أي أقهرهم على الطاعة(15)، والدين يطلق على العادة والسيرة والحال وهو الملك والعز والإذلال، والإكراه والإحسان والعبادة والقهر والتذليل والخضوع فهو من الأضداد(16).
وأن المعاني اللغوية "الدين " عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهم الأخر ويخضع له، فإذا وصف بها الطرف الثاني كانت خضوعاّ وانقياداّ، وَإذَا وصف بها الطرف الأول كانت أمراّ وسلطاناً وحكماً وإلزاماً(17).

(10)الثقافة الإسلامية في ضوء القرآن والسنة ، شعبان أحمد إسماعيل ، (ص : 7).
(11)محاضرات في الثقافة الإسلامية ، أحمد محمد جمال ، (ص : 14).
(12)دراسات في الثقافة الإسلامية ، رجب سعيد شهوان ورفاقه، (ص : 11)، مكتبة الفلاح ، ط1 - الكويت .
(13) مشكلة الثقافة ، مالك بن نبي، (ص : 71)، تحقيق عبد الصبور شاهين ، دار الفكر – دمشق ، ط1 ، 1986م .
(14)الثقافة الإسلامية ، محمد أبويحي ورفاقه ،(ص : 25)، دار المناهج، ط 1 ، 2000م .
(15) ابن منظور ، لسان العرب : مادة دين ، دار أحياء التراث العربي ، ط3 ،لبنان - بيروت .
(16) محمد علي فاروق التهانوي ، كشاف ، اصطلاحات الفنون ،تحقيق لطفي عبد البديع ، (ص : 305)، ط1 ، دار الكتاب العربي - بيروت.
(17)المرتكزات الأساسية في الثقافة الإسلامية ،أحمد صبحي العيادي ،(ص : 22) ، ط1 _ دار الكتاب الجامعي ، العين – الإمارات العربية المتحدة 2001م.

وإذا نظرنا بها إلى الرباط الجامع بين طرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة، أي المظهر الذي يعبر عنها، وإذا نظرنا بها إلى الرباط الجامع بين طرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة، أي المظهر الذي يعبر عنها(18).
فكلمة الدين يراد بها تلك الحقيقة الخارجية التي يمكن الرجوع إليها في المبادئ التي تدين بها أمة من الأمم اعتقاداً أو عملاً(19).

الدين اصطلاحاً :-

وضع الهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم ، إلى الصلاح الحال والفلاح في المال(20).

كذلك هو وضع إلهي يدعوا أصحاب العقول إلى القبول ما هو عند رسول الله(21) .

ويمكن القول من التعريفين السابقين أن حقيقة الدين تتضح في الجوانب التالية:-

- الدين وضع الهي وليس من وضع البشر.
- الدين يهدف بالدرجة الأولى إلى إصلاح حال الناس في الدنيا و الآخرة وتحقيق الخير لهم في الظاهر والباطن.
- الدين عامل مؤثر فهو يدفع باتجاه الاختيار دون الإكراه بأتباع الوضع الإلهي الذي يرتضونه بفطرتهم السليمة.

وقيل: الفرق بين الدين والملة والمذهب أن الدين منسوب إلى الله تعالى، والملة منسوبة إلى الرسول و المذهب منسوب إلي المجتهد(22).

أن مصادر الثقافة الإسلامية ترجع في الأصل إلى القرآن الكريم، وتعد السنة النبوية الصحيحة المصدر الثاني، فهي مبينة للكتاب وشارحة له، كما هناك مصدر ثالث، وهو القياس، و الاجتهاد والإجماع.

وصفوة القول: لقد استعمل العرب مادة" ثقف " في معان متعددة، وبناء على ذلك فإن الدلالات اللغوية لمصطلح الثقافة واسعة ومتنوعة وتتناول الجانب المعرفي والجانب السلوكي.

وفي رأيي، أَنَّ الثقافة الدينية لا تقتصر على التعريف بالدين والدعوة إليه، بل تخاطب العقل البشري بمادة التفكير السليم، وتمكنه بالرؤية الصائبة، من خلال ما يوحي بها الله عز وجل للأنبياء عليهم الصلاة و السلام، ليبلغوها لعباده، والثقافة الإسلامية الحقيقية هي التي ترتبط بالقرآن الكريم، والسنة النبوية الصحيحة، لأنهما يمثلان المصدر الأساسي لكل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين.

(18)بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، محمد عبدالله دراز ، (ص : 25).
(19)نفس المرجع ،(ص : 33).
(20)مرجع سابق ذكره (16) ، (ص : 305).
(21) التعريفات ،علي بن محمد الشريف الجرجاني ، (ص :72)، المطبعة الحلبية - 1321ه .
(22) نفس المرجع ، (ص : 45).

الفصل الأول / قبل بعثة محمد ﷺ

المبحث الأول/ نظرة إجمالية على الوضع الديني في القرن السادس الميلادي.

العصر الجاهلي:-

أعتاد الناس أن يسموا تاريخ العرب قبل الإسلام " التاريخ الجاهلي "، و يذهبوا إلى أن العرب كانت تغلب عليهم البداوة، وأنهم كانوا قد تخلفوا عمن حولهم في الحضارة، فعاش أكثرهم عيشة قبائل رحل، في جهل وغفلة، لم تكن لهم صلات بالعالم الخارجي، ولم يكن للعالم الخارجي اتصال بهم، أميون عبدة أصنام، ليس لهم تاريخ حافل، لذلك عرفت تلك الحقبة التي سبقت الإسلام " بالجاهلية " وهو اصطلاح مستحدث، ظهر بظهور الإسلام(1)، وهذا المصطلح المستحدث ظهر بظهور الإسلام تمييزاً وتفريقاً عن مرحلة الإسلام(2)، وعن الحالة التي صار عليها العرب بظهور الرسالة، على النحو الذي يحدث عندنا وعند غيرنا من الأمم من أطلاق تسميات جديدة للعهود القائمة، والكيانات الموجودة بعد ظهور أحداث تزلزلها تتمكن منها، وذلك لتمييزها وتفريقها عن العهود السابقة، مما يدل ضمناً بشيء من الازدراء والاستهجان للأوضاع السابقة في غالب الأحيان(3).

والواضح أَنَّ تاريخ العرب قبل الإسلام مر بمرحلتين زمنيتين، المرحلة الأخيرة في زمن الجاهلية إلى ما قبل القرنين الخامس والسادس الميلاديين، والبعض حدد العصر الجاهلي بحوالي 500م سنة قبل البعثة النبوية(4).

أصبحت الديانات العظمي، وصحفها العتيقة، وشرائعها القديمة _ التي مثلت في أزمان دورها الخاص في مجال الديانة والأخلاق والعلم _ فريسة العابثين و المتلاعبين، ولعبة المحرفين والناقمين، وعرضة الحوادث الدامية والخطوب الجسيمة حتى فقدت روحها وشكلها، ....(5).

و أصبحت اليهودية مجموعة من طقوس وتقاليد لا روح فيها ولا حياة وهي _ ديانة سلالية لا تحمل للعالم رسالة، ولا للأمم دعوة، ولا للإنسانية رحمة(6).

وقد أصيبت هذه الديانة في عقيدة كانت لها شعاراً من بين الديانات والأمم وكان فيها سر شرفها، وتفضيل بني إسرائيل على الأمم المعاصرة في الزمن القديم وهي عقيدة التوحيد التي وصى بها إبراهيم بنيه يعقوب عليهم السلام، فقد اقتبس اليهود كثيراً من عقائد الأمم التي جاوروها أو وقعوا تحت سيطرتها، وكثيراً من عاداتها وتقاليدها الوثنية الجاهلية، وقد اعترف بذلك مؤرخوا اليهود المنصفون، فقد جاء في " دائرة المعارف اليهودية ":

"أَنَّ سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان تدل على أن عبادة الأوثان و

(1)المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، (1: 37)، ط2 - 1993م.
(2)المسالك والممالك ، ابواسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي،(ص : 27)، دار ليدن - 1972م.
(3)نفس المرجع السابق(1).
(4)التاريخ الإسلامي، إسحاق رباح، (ص :17)، دار كنوز المعرفة ط1، عمان -2009م.
(5)النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ،أبو الحسن الندوي ،(ص : 198 - 206)ط دار القلم ، دمشق ، بيروت ،.
(6)السيرة النبوية،ابوالحسن الندوي ،(ص :24) ،ط الثامنة، دار الشروق،جدة،1998م.

الآلهة، كانت قد تسربت إلى نفوس الإسرائيليين ولم تستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد قبلوا معتقدات خرافية ومشركة، وأَنَّ التلمود أيضاً، يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود "(7).

ويدل تلمود(8)، بابل الذي يبالغ اليهود في تقديسه، وقد يفضلونه على التوراة وكان متداولاً بين اليهود في القرن السادس المسيحي وما زخر به من نماذج غريبة من خفة العقل وسخف القول ، والاجتراء على الله، والعبث بالحقائق، والتلاعب بالدين والعقل، وما وصل إليه المجتمع اليهودي في هذا القرن من الانحطاط العقلي وفساد الذوق الديني(9).

أما المسيحية فقد امتحنت بتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، ووثنية الرومان المتنصرين(10)، منذ عصرها الأول، و أصبح كل ذلك ركاماً دفنت تحته تعاليم المسيح البسيطة، واختفي نور التوحيد وإخلاص العبادة لله وراء هذه السحب الكثيفة(11)، وظهرت الوثنية في المجتمع المسيحي في مظاهر مختلفة وألوان شتي، وتفنن المسيحيون في اقتباس الشعائر والعادات والأعياد والأبطال الوثنية من أمم وديانات عريقة في الشرك بحكم التقليد أو الإعجاب أو الجهل، جاء في " تاريخ المسيحية في ضوء العلم المعاصر ""، لقد انتهت الوثنية، ولكنها لم تلق إبادة كاملة، بل إنها تغلغلت في النفوس واستقر كل شيء فيها باسم المسيحية ... فالذين تجردوا عن آلهتهم وإبطالهم وتخلوا عنهم، أخذوا شهيداً من شهدائهم، ولقبوه بأوصاف الآلهة، ثم صنعوا له تمثالاً، وهكذا انتقل هذا الشرك وعبادة الأصنام إلى هؤلاء الشهداء المحليين، ولم ينته هذا القرن حتى عمت فيهم عبادة الشهداء والأولياء، وتكونت عقيدة جديدة، وهي أن الأولياء يحملون صفات الألوهية، وصار هؤلاء

(7) نفس المرجع (ص : 24) ،دار لعارف اليهودية ،(ص : 69- 568).

(8)كلمة تلمود معناها كتاب تعاليم ديانة اليهود وآدابهم ؛ وهي مجموع حواش وشروح لكتاب "المثنا " "الشريعة " لعلماء اليهود في عصور مختلفة، نقلا عن مرجع سابق ذكره، (6) ، (ص : 24).

(9)اليهودية علي حسب التلمود ، روهلنج، وترجمته العربية في "الكنز المرصود في قواعد التلمود " يوسف حنا نصر الله (الفرنسية) نقلا عن مرجف سابق ذكره (6) ، (ص : 24).

(10)الصراع بين الدين والعلم ، للمؤلف الأوربي "داربر " (ص :40-41)، نقلا عن مرجع سابق ذكره (6).

(11)مرجع سابق ذكره (6)، (ص :24).

الأولياء والقديسون خلقاً ووسطا بين الله والإنسان يحمل صفة الألوهية .....،
وأصبحوا رمزاً لقداسة القرون الْوُسْطَى(12).

أما المجوس فقد عرفوا من قديم الزمان بعبادة العناصر الطبيعية أعظمها النار، وقد عكفوا علي عبادتها أخيراً، و يبنون لها هياكل ومعابد، وانتشرت بيوت النار ....وكانت لها آداب وشرائع دقيقة، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار وتقديس الشمس، وأصبحت الديانة عندهم عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدونها في أمكنة خاصة، أما خارج المعابد فكانوا أحراراً يسيرون على هواهم، وما تملي عليهم نفوسهم، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين من لا دين لهم ولا أخلاق، في الأعمال والأخلاق(13)، وكان أهل إيران يستقبلون في صلاتهم النار، وقد حلف " يزدجر " _ ، آخر ملوك الساسانيين – بالشمس مرة، وقال: "احلف بالشمس التي هي الإله الأكبر " وقد كلف التائبون عن المسيحية عبادة الشمس إظهاراً لصدقهم(14)، وقد دانو بالثنوية في كل عصر وأصبح ذلك شعاراً لهم، وآمنوا بالهين اثنين أحدهما النور أو آلِهَةَ الخير، ويسمونه " أهور مزاد " أو " يزدان ".
والثاني الظلام أو آلِهَةَ الشر ، وهو "اهرمن " ولا يزال الصراع بينهما قائماً والحرب دائمة(15).
يذكر المؤرخون للديانة الإيرانية مجموعة أساطير متصلة بالآلهة (mythology) لا تقل في غرابتها و تفاصيلها الدقيقة عن الميثولوجيا الإغريقي أو الهندي(16).
أما البوذية _ الديانة المنتشرة في الهند وآسيا الوسطي _ فقد تحولت وثنية تحمل معها الأصنام، حيث صارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل " بوذا "حيث حلت ونزلت(17)، ولم يزل العلماء يشكون في إيمان هذه الديانة ومؤسسها بالإله للسماوات والعارض ولا يجدون ما يثبت ذلك، ويجارون في قيام هذه الديانة .... بغير الإيمان بالله(18).
أما الإبراهيمية _ دين الهند ..._ فقد امتازت بكثرة المعبودات والآلهة والإلهيات، ..... وقد أصبح كل شيء هائل، وكل شيء نافع، إلهاً يعبد، وارتفعت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد، وتأنق فيها المتأنقون(19).
يقول الأستاذ الهند وكي " سي، وي، ويد" في كتابه " تاريخ الهند الوسطي " وهو يتحدث عن عهد الملك هرش (606-846م)، وهو العهد الذي يلي ظهور الإسلام في الجزيرة العربية:

(12)مرجع ذكره (6)، (ص :26).
(13)إيران في عهد الساسانيين ، للبروفيسور " اتهر كرستن سين " أستاذ الألسنة الشرقية في جامعة " كوبنهاجن "با لذانما رك "و تاريخ إيران ، تأليف " شاهين مكاريوس "
(14)إيران في عهد الساسانيين ، آرتهر كرستن سين ،(ص :155) .
(15)نفس المصد ر، (ص :183 – 233).
(16)نفس المصدر،(ص : 204 – 209).
(17)اكتشاف الهند ، جواهر لإل نهرو ،(ص :201 -202). مرجع سابق ذكر (6)،(ص : 28).
(18) مقالة "بوذا " في دائرة المعارف البريطانية .
(19) مرجع سابق ذكره (6)، (ص :28).

" كانت الديانة الهندو كية والديانة البوذية وثنيتين سواء بسواء، بل ربما كانت الديانة قد فاقت الديانة الهندو كية في الإغراق في الوثنية، كان ابتداء هذه الديانة – البوذية – بنفي الإله، ولكنها بالتدريج جعلت " بوذا " الإله الأكبر، ثم أضافت إليه آلهة أخري مثل " bodhisattvas" علي مر الزمن، مما لا شك فيه أَن الوثنية كانت منتشرة في العالم .. كله، لقد كانت الدنيا من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي غارقة في الوثنية، وكأنما قد أرسخت الوثنية قديمها، في المدرسة البوذية الفكرية التي تسمي " مهايانا " بالتأكيد وقد بلغت أوجها في الهند، حثى أصبحت كلمة " بوذا " (Buddha) مرادفة لكلمة " الوثن " أو " الصنم " في بعض اللغات الشرقية(20).

المسيحية والديانات السامية والديانة البوذية تتسابق في تعظيم الأوثان وتقديسها، وكانت كخيل رهان تجري في حلبة واحدة.

أما العرب الذين امنوا في الزمن القديم بدين إبراهيم، وقام في أرضهم بيت الله الحرام، فقد ابتلوا في العصر الأخير، لبعد عهدهم من النبوة والأنبياء، والانحصار في شبه جزيرتهم بوثنية سخيفة لا يوجد لها نظير إلا في الهند البرهمية الوثنية، وترقوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آله، واعتقدوا أن أهم مشاركة في تدبير الكون، والقدرة الذاتية على النفع والضرر، والإيجاد والإفناء، وانغمست الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام بأبشع أشكالها، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص، بل لكل بيت صنم خصوصي وكان في جوف الكعبة – البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وحده – وكانت قريش قد اتخذت صنماً علي بئر في جوف الكعبة يقال له: هبل(21)، وتدرجوا من عبادة الأصنام.

والأوثان إلى عبادة الحجر، من أي جنس كان، وكانت لهم آله من الملائكة والجن والكواكب، وكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، وأن الجن شركاء الله، فامنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم(22).

(20) مرجع سابق ذكره (6)،(ص: 29).

(21)السيرة النبوية ، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني ، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه ، أحمد فريد المزيدي ،(1: 63)، منشورات دار الكتب العلمية _ ط1 –2004م .

(22)نفس المرجع السابق ،(21).

ثانيا :-إطلالة علي البلاد والأمم:

هذا شأن الديانات التي ظهرت في زمانها للدعوة إلي الله، أما البلاد المتمدنة وقامت فيها حكومات عظيمة، وشاعت فيها علوم كثيرة، وكانت مهد الحضارة والصناعة والآداب.

فقد كانت بلاداً مسخت فيها الديانات، وفقدت أصالتها وقوتها، وفقد المصلحون، وغاب المعلمون(23).

أولاً : الإمبراطورية الرومانية الشرقية:

فالدولة الرومانية الشرقية(24)، ازدادت فيها الإتاوات، وتضاعفت الضرائب، حتى أصبح أهل البلاد يفضلون علي حكومتهم كل حكومة أجنبية، وحدثت اضطرابات إثر اضطرابات وثورات إثر ثورات، وقد هلك عام (235م)، في اضطراب واحد في عهد جوستين الأول ثلاثون ألف شخص في القسطنطينية - عاصمة المملكة – وأصبح الهم الوحيد اكتساب المال من أي وجه، ثم إنفاقه في التطرف، وقد أمعنوا في طرق التسلية، حتى وصلوا فيها إلي الوحشية(25)، فالقانون عندهم هو جزء من قوتهم، لم يكن لإعطاء كل ذي حق حقه، بل إنه يسلب حقوق الضعفاء ليزدادوا ضعفاً على ضعف ويعطيها الأقوياء ليزدادوا قوة علي قوة(26).

أما مصر – احدى ولايات الدولة البيزنطية الغنية – فكانت عرضة لإ ضطهاد ديني فظيع، واستبداد سياسي شنيع، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر، التي كانت مصدراً كبيراً لرخاء الدولة وغناها، وقد اتخذها الروم شاة حلوباً يحسنون حلبها، ويسيئون علفها(27) .

(23)مرجع سابق ذكره (6)، (ص : 30).

(24)الإمبراطورية الرومانية الشرقية هي المعروفة الإمبراطورية البيزنطية ويعرفها العرب بالروم ، وكانت تحكم في العصر الذي نتحدث عنه ، دول يونان وبلقان ، واسيا الصغرى ؛ وسورية وفلسطين ، وحوض البحر المتوسط بأسره ؛ ومصر ، وكل أفريقيا الشمالية ، وكانت عاصمتها القسطنطينية ، وكان ابتداء الإمبراطورية سنة395 ؛ وانتهاؤها بغلبة العثمانيين علي القسطنطينية سنة 1453 م .

(25)مرجع سابق ذكره (6) ، ص31.

(26) التكافل الاجتماعي في الإسلام ، عبد العال احمد عبد العال ،.(ص : 29) ط1 1997م .

(27)فتح العرب لمصر ، لمؤلفه ، الفرد بتلر ، نقلا عن مرجع سابق ذكره (3)، (ص :32).

أما سوريا – ولاية الإمبراطورية البيزنطية الأخرى – فكانت مطية المطامع الرومانية وكان الحكم للغرباء الذي لا يعتمد إلا بالقوة، ولا يشعر بشيء من العطف علي الشعب المحكوم، .....(28).

ثانياً الإمبراطورية الفارسية(29) :

كانت الزر تشتية – وهي التي خلفت المزدائية – ديانة إيران القديمة، ومن المرجح أن "زرتشت " صاحب هذه الديانة ظهر في القرن السابع قبل الميلاد، وكانت مؤسسة منذ أول يومها على الحرب القائمة بين النور والظلام، وبين روح الخير وروح الشر، أو بين اله الخير وبين اله الشر(30).
وظهر في إيران القديمة استعداد عجيب دائما لقبول الدعوات المتطرفة المغالية، وكانت دائماً تحت تأثير ردود فعل عنيفة، وكانت تتأرجح بين" ابيقورية "(31)، جامحة، وبين احتكار سلالي، أو طبقي، أو ديني، وشيوعية متطرفة وفوضوية مطلقة حيناً آخر، ...، وكانت الأحوال سيئة في هذه الإمبراطورية – الإيرانية الساسانية – في القرن السادس المسيحي، فكانت تحت رحمة الملوك الذين كانوا يحكمون بالوراثة، ومع ما يعانيه الشعب من بؤس وشقاء، وتعب وعناء، وتذمر وبكاء، يزج به، في حروب طاحنة مدمرة، قامت في فترات من التاريخ ودامت سنين طوالاً بين المملكة الشرقية الساسانية والمملكة الغربية البيزنطية(32).
ثالثاً الهند :

أما الهند التي برزت في العصر القديم في العلوم الرياضية وعلوم الفلك والطب وتعمق في الفلسفة(33)، امتازت بين جيرانها وأقطار العالم بالتفاوت الفاحش بين طبقات الشعب، والامتياز بين الإنسان والإنسان، وكان نظاما قاسياً لا هوادة فيه ولا مرونة، مدعماً بالدين والعقيدة، خاضعاً لمصلحة الآريين المحتلين والبراهمة المحتكرين للديانة والقداسة، وأصبح القانون العام للمجتمع ودستور الحياة، وهو يقسم سكان الهند في أربع طبقات:

(1) طبقة الكهنة ورجال الدين ، وهم " البراهمة".

(2) ورجال الحرب والجنود وهم " شتري ".

(3) ورجال الفلاحة والتجار وهم " ويش ".

(28)خطط الشام ، للأستاذ كرد علي : ج- 101. نقلا عن نفس المصدر .
(29) كانت أعظم من الإمبراطورية الرومانية الشرقية – بعد انشقاقها عن الإمبراطورية الرومانية الكبرى – تأسست علي يد "اردشير " في سنة 422 م .
(30)إيران في عهد الساسانيين ،مرجع سابق ذكره (3) (ص : 33)،.
(31) مذهب "ابيقور " الفيلسوف الإغريقي الذي قال بأن المتعة هي الخير الأسمى (نفس المرجع).
(32)نفس المرجع ، إيران في عهد الساسانيين ، مملكة الشرق ومملكة الغرب الباب الخامس (ص: 269- 333).
(33)الهند القديمة ، ج3، لمؤلفه ، أرسي ، دت ، مرجع سابق ذكره (6)،(ص : 36).

(4) ورجال الخدمة وهم "شودر " وهم أحط طبقة.

وكانت الهند في حالة فوضى وتمزق تحكمها أمارات وحكومات تعد بالمئات، تضعفها حروب ومنافسات، ويسود الاضطراب وسوء الإدارة واختلال الآمن وإهمال شئون الرعية والاستبداد(34).

أوربا:

أم الأمم الأوربية – المتوغلة في الشمال والغرب – فكانت تعيش في ظلام الجهل و الأمية، والحروب الدامية، وكانت بعيدة عن جادة قافلة الحضارة الإنسانية؛ والعلوم والآداب(35).

" لقد أطبق على أوربا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً، وقد كانت همجية ذلك العهد اشد هولاً، و أفظع من همجية العهد القديم، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت، وقد انطمست معالم هذه الحضارة، وقضى عليها بالزوال، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها في الماضي، كإيطاليا، وفرنسا، فريسة الدمار والفوضى والخراب(36).

ويتضح لنا أن الجماعات الإنسانية في جميع إنحاء الأرض في تلك الحقبة، تسير في بنائها وتنظيم علاقاتها على أنظمة من وضع البشر وفي نظرنا لا تستهدف صالحا ذا طابع أنساني بحث، يرتقي إلى منهجيه بنائيا، في تنظيم المجتمعات وصون كرامة الفرد، وتقدير واع تمتد فيه النظرة إلى أفاق عالية بحيث تشمل المحيط الإنساني العام.

(34) تفصيل القانون المدني الاجتماعي الهندي ، المسمي " منو شاستر " الأبواب : 1- 2- 8- 9 – 10- 11 .

(35) مرجع سابق ذكره (6)، (ص : 40).

(36) تاريخ الأخلاق الأوربية ، لمؤلفه ، ليسكي ،(ج :2 ، باب : "من قسطنطين إلي شارلمان " .

رابعاً: الجزيرة العربية

لقد توارث العرب دين إبراهيم عليه السلام، هم أولاد إسماعيل عليه السلام، ودينهم الذي نعرفه هو الحنيفية وهو الإسلام، قال تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ }:{78}(الحج : 78)، وقد اختلطت الحنيفية بأفكار وضعية بدأ العرب باستيرادها من الأقوام المحيطة بهم بفعل التجارة أو الحج، وكذلك بمرور الزمن الطويل الذي كان كفيلاً بخلط الحق بالباطل، فصار أكثرهم يعبد الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى، بينما كانت عبادتهم لله مباشرة دون الحاجة إلى وسيط بينهم، فأشركوا بالله شركاً دعاهم للممارسة الفحشاء والمنكر والربا، وابتعد التوحيد عن منهج حياتهم كثيراً، فغشيتهم الجاهلية رغم وجود بعض الحنيفين، وانتهت عبادة الأوثان بأهل الجزيرة إلى الضلالات والقبح في المعتقدات والأفعال وانتشر بينهم الجهل والأمية(37) .

فسأت أخلاقهم، فأولعوا بالخمر والقمار، وبلغت بهم القساوة والحمية المزعومة إلى واد البنات، وسقطت منزلة المرآة وقطع الطريق على القوافل، وسقطت منزلة المرأة، فكانت تورث كما يورث المتاع أو الدابة، ومن المأكولات ما هو خاص للذكور محرم على الإناث، وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد، ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق، وخوف الفقر والإملاق، وكانت العصبية القبلية والدموية شديدة جامحة، واغرموا بالحرب حتى صارت مسلات أهم وملهي، وهانت عليهم إراقة الدماء فتثيرها حادثة تافهة، وتدوم الحرب أربعين سنة ويقتل فيها ألوف من الناس(38).

وكانت غابة من الأصنام ... وأودية تسيل دماء بريئة ..تسيل عادات بالية وتقاليد محيرة ...(39)، تعيش في دياجير ظلام الظلم والجهل، وظلمات الطغيان والاستبداد، تنازعه الإمبراطوريتان الفارسية شرقاً، والرومانية غرباً(40).

ويؤكد هذه الحقيقة قول النبي ﷺ: "أن الله نظر إلى سكان العالم فمقتهم عربهم وعجمهم جميعاً إلا بقايا من أهل الكتاب "(41)، فالأحوال متردية ..في العالم الإنساني بأسره ، لاسيما في أرجاء العرب حيث الفساد في كل جوانب الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدينية، الكل سواء(42).

(37)السيرة النبوية ، سعدون الساموك ، (ص :44)ط1 دار وائل 2004م .
(38)مرجع سابق ذكره(6) ، (ص : 39).
(39)السيرة النبوية كما جاء فالأحاديث الصحيحة ، محمد الصوياني ،(1- 2 : 7)، مكتبة العبيكان ، ط (1) 2004م.
(40)هذا الحبيب محمد صلي الله عليه وسلم ، ابوبكر الجزائري ، (ص :21) ،دار الفجر ط الثانية -2010م .
(41)رواه مسلم ،(رقم الحديث :2865) ،في كتاب الجنة ؛ ضمن خطبة له صلي الله عليه وسلم .
(42)مرجع سابق ذكره (40).

المجتمع الجاهلي في القرآن الكريم

إن الوضع الذي ساد في مكة، القرن السادس الميلادي، إن الحياة تمضي فيها كما ألفها أهلها..قوافل التجارة تتجه إلى اليمن في الشتاء وإلى الشام في الصيف ،ووفود الحجاج يأتون للطواف حول الكعبة ..والأصنام تجد لها سوقاً رائجة في غياب العقل والمنطق والحكمة(43)، وتجد الصورة العامة للتهافت الجماعي نحو الوثنية البائسة، والانحطاط الأخلاقي، في أبشع صوره، ولقد صوره القرآن العظيم تصويراً دقيقاً بقوله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } (آل عمران :103)، وقد أشار عز وجل إلى الحقيقة، في أعجاز وايجاز بقوله تعالى: (وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)، وهذا ما شرحه النبي ﷺ، بمثال رائع وصورة حية؛ فقال عليه الصلاة والسلام:

(عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَن، أَنَّهُ حَدَّثَهُ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: " إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ، جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا ، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا ، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا"(44).

(43)مواقف في حياة الرسول ، فتحي عبد المعطي ، (ص :170)،دار نهضة مصر للطباعة ط "1"- 2007م.

(44) صحيح البخاري : كتاب تفسير القرآن الكريم ،(رقم الحديث : 6031).

إن القضية الكبرى عامة في مشارق الأرض ومغاربها، ليست قضية وثنية في حد ذاتها، أو قضية خمر وقمار، وليس قضية واد بنات، كان قضية واد الإنسانية كلها، ولعل " ليكي " يقرب لنا الصورة التي عايشها، من خلال وصفه لهمجية الإنسان ووحشيته النادرة في تلك الحقبة(45)، يقول: " أن أكثر المناظر سحراً علي نفوس أهل روما، وأعظم تسلية ومتعة لهم، كان حين يسقط الجريح في مبارزة من بني جنسه، هنالك ... يمتعوا نفوسهم بمشاهدة احتضاره، وليرن في آذانهم رنين أنينه، فقد كان أجمل من كل غناء وموسيقى، وسجع الطيور ....."(46).

لقد كانت قضايا الجاهلية الأولى، أن حجرها الأساسي حاد عن موضعه، بل تحطم وتهشم ولم يبق أمل في أصلاحه، ووضعه في محله الصحيح، ووقف الإنسان أمام المحكمة الإلهية ينتظر الحكم النهائي الأخير في مصيره، هنالك بعث محمد ﷺ ونادى صوت السماء قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}(الأنبياء: 107).

(45) مرجع سابق ذكره (6) ، ليكي ،(1 : 230).
(46) نفس المرجع ، (ص : 466) .

المبحث الثاني

أصول العرب وحضارتهم

أولاً: أصول العرب:

قسم المؤرخون أصول العرب إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي انحدروا منها(1):

1- العرب البائدة: وهي قبائل عاد، وثمود، والعمالقة، وطَسْم، وجَديس، وأمَيْم، وجُرهم وحضرموت ومن يتصل بهم، وهذه درست معالمها واضمحلت من الوجود قبل الإسلام وكان لهم ملوك امتد ملكهم إلى الشام ومصر(2).

2- العرب العاربة: وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرُب بن يشجُب بن قحطان وتسمى بالعرب القحطانية(3)، ويعرفون بعرب الجنوب (4)، ومنهم ملوك اليمن، ومملكة معين، وسبأ وحمير(5).

3- العرب العدنانية: نسبة إلى عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهم المعروفون بالعرب المستعربة، أي الذين دخل عليهم دم ليس عربيًّا، ثم تم اندماج بين هذا الدم وبين العرب، وأصبحت اللغة العربية لسان المزيج الجديد، وهؤلاء هم عرب الشمال، موطنهم الأصلي مكة، وهم إسماعيل عليه السلام وأبناؤه، والبراهمة الذين تعلم منهم إسماعيل عليه السلام، وصاهرهم، ونشأ أولاده عربًا مثلهم، ومن أهم ذرية إسماعيل (عدنان) جد النبي ﷺ الأعلى، ومن عدنان كانت قبائل العرب وبطونها فقد جاء بعد عدنان ابنه معد، ثم نزار، ثم جاء بعده ولداه مُضَر وربيعة(6).

أما ربيعة بن نزار فقد نزل من انحدر من صلبه شرقاً، فقامت عبد القيس في البحرين، وحنيفة في اليمامة، وبنو بكر بن وائل ما بين البحرين واليمامة، وعبرت تغلب الفرات فأقامت في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، وسكنت تميم في بادية البصرة(7).

أما فرع مضر: فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة، وأقامت ثقيف في الطائف، واستوطنت سائر هوازن شرقي مكة، وسكنت أسد شرقي تيماء إلى غربي الكوفة، وسكنت ذُبيان وعَبس من تيماء إلى حوران(8).

(1)فقه السيرة النبوية ،منير للغضبان، (ص : 45) ،مهد البحوث العلمية وإحياء التراث ، مكة المكرمة . .
(2) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة ، (1 : 46) ، دار القلم ، دمشق ، ط3 – 1996م .
(3) نفس المرجع ،(1).
(4) مدخل لفهم السيرة، يحي اليحي، (ص : 98).
(5)نفس المرجع (2)، (1 : 47).
(6) السيرة النبوية ، علي الصلابي ، (1: 19) ، دار المعرفة للطباعة والنشر –ط10، 2010م –بيروت – لبنان .
(7)نفس المرجع (4) (ص : 98 ، 99).
(8)الطريق إلي المدائن ،أحمد عادل كمال ، (ص : 40) دار النفائس ، بيروت لبنان ،ط5 – 1987م.

وتقسيم العرب إلى عدنانية وقحطانية هو ما عليه جمهرة علماء الأنساب

وغيرهم من العلماء، ومن العلماء من يرى أن العرب: عدنانية، وقحطانية ينتسبون إلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام(9)، وقد ترجم البخاري في صحيحه لذلك فقال: باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام، وذكر في ذلك حديثًا عن سلمة قال: خرج رسول الله ﷺ على قوم يتناضلون بالسهام، فقال: "ارموا بني إسماعيل، وأنا مع بني فلان" -لأحد الفريقين- فأمسكوا بأيديهم، فقال: "ما لكم؟" قالوا: كيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ فقال: "ارموا وأنا معكم كلكم" (10)، قال البخاري: وأسلم بن أَفْصَى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة، يعني: أن خزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العرم(11)، ووُلد الرسول صلى الله عليه وسلم من مضر، وقد أخرج البخاري عن كليب بن وائل قال: حدثتني ربيبة النبي ﷺ زينب بنت أبي سلمة قال: "قلت لها: أرأيت النبي ﷺ أكان من مضر؟ فقالت: فممن كان إلا من مضر؟ من بني النضر بن كنانة"(12).

وكانت قريش قد انحدرت من كنانة وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة وانقسمت قريش إلى قبائل شتى من أشهرها جمح وسهم وعدي ومخزوم وتيم وزهرة وبطون قصي بن كلاب، وهي عبد الدار بن قصي وأسد بن عبد العزى بن قصي، وعبد مناف بن قصي، وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم، وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم(13).

ثانيا: الحضارات في شبه الجزيرة العربية :

أسست حضارات عريقة من قديم الزمن، ببلاد العرب فتركت شواهد مدن عظام، ومتميزة بحضاراتها، ومن أشهرها:

1- حضارة سبأ باليمن:

وقد أشار القرآن الكريم إليها، ففي اليمن استفادوا من مياه الأمطار والسيول التي كانت تضيع في المال، وتنحدر إلى البحار، فأقاموا الخزانات والسدود بطرق هندسية متطورة، وأشهر هذه السدود(سد مأرب)، واستفادوا بمياهها في الزروع المتنوعة، والحدائق ذات الأشجار الزكية، والثمار الشهية(14).

قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ{15} فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ{16} ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ{17} (سبأ : 54).

(9) مرجع سابق ذكره (2)،(1: 48) .
10) البخاري ، كتاب المناقب ، (3507).
11) نفس المرجع، (9) ، (1 : 48).
12) مرجع سابق ذكره،(10) ،(3491).
13) مرجع سابق ذكره (2)، (ص : 47).
14)مرجع سابق ذكره (2) ، (1/ 50).

ودل القرآن الكريم على وجود قري متصلة في الزمن الماضي ما بين اليمن إلى بلاد الحجاز، إلى بلاد الشام، وأن قوافل التجارة والمسافرين كانوا يخرجون من اليمن إلى بلاد الشام، فلا يعدمون ظلاً، ولا ماء ولا طعاماً(15).
قال تعالى: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ{18} فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ{19})(سبأ :18 ، 19).

2)حضارة عاد بالأحقاف:

وكانوا في شمال حضر موت، وهم الذين أرسل الله إليهم نبيه هود عليه السلام ، وكانوا أصحاب بيوت مشيدة، ومصانع متعددة، وجنات، وزروع وعيون(4)، قال تعالى: (كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ{123} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ{124} إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ{125} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ{126} وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ{127} أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ{128} وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ{129} وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ{130} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ{131} وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ{132} أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ{133} وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{134}})(الشعراء :123 ...134)

3)حضارة ثمود بالحجاز :

دل القرآن الكريم على وجود حضارة في بلاد الحجر، **وأشار إلى** ما كانوا يتمتعون به من القدرة على نحت البيوت في الجبال وعلى ما كان يوجد في بلادهم من بساتين وزروع(16).

قال تعالى: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ{141} إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ{142} إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ{143}فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ{144} وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ{145} أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ{146} فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{147} وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ{148} وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ{149} فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ{150} (الشعراء :141....150).

وقال تعالى: فيهم أيضاً: (وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ{74}})الأعراف :74).

15) نفس المرجع(2).

(16)مرجع سابق ذكره (2) ، (1 : 51).

فلقد زالت كل الحضارات، ولم يبق إلا أثارها، ورسوم و أطلال، فقد اضمحلت القري والمدن، وخربت الدور والقصور، ونضبت العيون، وجفت الأشجار، وأصبحت البساتين والزروع أرضا جرزاً(17).

(17)مرجع سابق ذكره (2)، (1 : 51).

المبحث الثالث

الأحوال السائدة قبل بعثة محمد ﷺ

أولاً: الحالة الدينية:

يخبرنا القرآن الكريم أن هاجر أم إسماعيل كانت مسلمة، وأن ولدها إسماعيل كان مسلمًا كأبيه إبراهيم وأمه هاجر، وإن الله تعالى نباه وأرسله رسولًا إلى أهل بيته من زوجة وولده، وإلى أخواله وجيرانه من قبيلة جرهم اليمانية، وأن دين الله – وهو الإسلام – قد عمهم وانتظم حياتهم زمنا طويلًا لا يعرف منتهاه.

وكما هي سنة الله في الناس، إذا انقطع الوحي عنهم، جهلوا وظلوا كالأرض إذا انقطع عنها الغيث أمحلت وأجدبت، وتحولت خضرتها ونضرتها إلى قترة وظلام يجهل فيه الإنسان ذاته ويتنكر فيه لعقله(1)، ومن هنا بدئت تظهر ملامح الوثنية والبعد عن الحنيفية، و ابتليت الأمة العربية بتخلف ديني شديد، ووثنية سخيفة لا مثيل لها، وانحرافات خلقية، واجتماعية، وفوضى سياسية، وتشريعية، ومن ثم قل شأنهم وصاروا يعيشون على هامش التاريخ، ولا يتعدون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدولة الفارسية أو الرومانية، وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء والأجداد واتباع ما كانوا عليه مهما يكن فيه من الزيغ والانحراف والضلال، ومن ثم عبدوا الأصنام، فكان لكل قبيلة صنم، فكان لهذيل بن مدركة: سواع، ولكلب: ود، ولمذحج: يغوث، ولخيوان: يعوق، ولحمير: نسر، وكانت خزاعة وقريش تعبد إسافًا ونائلة، وكانت مناة على ساحل البحر، تعظمها العرب كافة والأوس والخزرج خاصة، وكانت اللات في ثقيف، وكانت العزى فوق ذات عرق، وكانت أعظم الأصنام عند قريش(2).

وإلى جانب هذه الأصنام الرئيسية يوجد عدد لا يحصى كثرة من الأصنام الصغيرة والتي يسهل نقلها في أسفارهم ووضعها في بيوتهم(3).

روى البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العُطاردي قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا آخر هو أخيرُ منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به)(4).

وقد حالت هذه الوثنية السخيفة بين العرب، وبين ومعرفة الله وتعظيمه وتوقيره والإيمان به، وباليوم الآخر وإن زعموا أنها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله، وقد هيمنت هذه الآلهة المزعومة على قلوبهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وجميع جوانب حياتهم وضعف توقير الله في نفوسهم(5)، قال تعالى: **(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)**[الأنعام: 36].

(1)هذا الحبيب محمد يا محب ، أبوبكر جابر الجزائري ، (ص: 31)،دار الفجر للتراث، ط الثانية - 2010م.
(2)الغرباء الأولون ، سلمان بن فهد العودة ،(1 : 60) ،دار ابن الجوزي ، ط1 – 1989م.
(3)السيرة النبوية ، علي الصلابي ، (1 :18). (4)البخاري ، كتاب المغازي ، وفد بني حنيفة(رقم الحديث: 4054). (5)نفس الرجع السابق (3).

ولم يبقي إلا القليل، على دين إبراهيم عليه السلام، والبقية فقد، انحرفوا عن جادة الصواب إلى جادة الوثنية، فهم بذلك غاصوا، في الملذات وما كانوا يتجمعون في موسم الحج إلا للمفاخرة، والمباهي وتعظيم إلهتهم وتمرير تجارتهم.

وكان يوجد بعض النفر من الحنفاء الذين ذكرتهم السيرة لابن هشام، وهو زيد بن عمرو بن نفيل، فهو نبذ الوثنية وما يتبعها من الضلالات، وفيه قيل: وحدثت أن ابنه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعمر بن الخطاب وهو ابن عمه، قالا لرسول الله ﷺ : أنستغفر لزيد بن عمرو؟ قال: " نعم ، فانه يبعث امة وحده "(6) .

وهذا بعض ما يلقي، من الشعر ودعوته للوحدانية، فيقول :

أربًّا واحدًا أم ألفَ رب؟؟ أدين إذا تقسِّمت الأمورُ؟

عزلتُ اللات والعزى جميعًا كذلك يفعل الجلد الصبورُ

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني عمرو أزورُ

ولا غنمًا أدين وكان ربا لنا في الدهر، إذا حلمي يسيرُ

إلى أن قال:

ولكن أعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الربُّ الغفور(7)

وممن كان يدين بشريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، قُس بن ساعدة الإيادي، فقد كان خطيبًا، حكيمًا، عاقلاً، له نباهة، وفضل، وكان يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، وترك عبادة الأوثان، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت، وقد بشر بالنبي ﷺ فقد روى أبو نعيم في دلائل النبوة عن ابن عباس قال: "إن قس بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عكاظ) فقال في خطبته: سيعلم حق من هذا الوجه وأشار بيده إلى مكة، قالوا: وما هذا الحق؟ قال: رجل من ولد لؤي بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش الأبد، ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمت أني أعيش إلى مبعثه لكنت أول من يسعى إليه" وقد أدرك النبي ﷺ ومات قبل البعثة(8).

ومما كان ينشده من شعره:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها يمضي الأصاغر والأكابر

لا يرجع الماضي إليّ ولا من الباقين غابر (9)

(6) ذكره صحيح البخاري في صحيحه تعليقا في كتاب مناقب الأنصار ، باب حديث زيد بن عمرو ابن نفيل ،(7-421)، عن السيرة النبوية لابن هشام ، (1 : 148)، دار الفجر ط2 ، 2004م. (7) السيرة النبوية، لابن كثير ،(163/1). (8) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ، محمد أبو شهبة (80/1) ، دار القلم ، دمشق ط3 – 1996م .
(9)نفس المرجع (81/1).

وقد دان طائفة من اليمن باليهودية هو دهم ذو نواس الحميري، والغسانيون من العرب لمجاورتهم الروم المتنصرة بالشام، وتنصر النعمان بالحيرة وتبعه قبائل من طيء وتغلب(10).

وهذه الصورة توضح الانحراف الديني؛ الذي يسود العالم بأسره، ومع كل ما أوردنا، فإنا لإنسان في حاجة ملحة إلى الدين و اكتساب الإيمان، فهو ميزان السلوك والأخلاق ومعيار الاستقامة، وطوق النجاة للفرد وأمن المجتمع دنيوياً وآخرة.

ومن خلال هذا الطرح علينا إن نتطرق إلى الحياة الإنسانية عاماً في عرضنا للواقع الديني من منظومة القرآن الكريم.

ثانياً: الوثنية (11)

عاش إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام في أم القرى، وتلقى رسالة ربه، وبلغها أهل مكة ومن حولها.. قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً }(مريم :54).

وطبيعة الحياة التغير وعدم الثبات على شيء، ويعتري العقائد ما يعتري الأجسام من ضمور وفساد، فمع تباعد الزمن، وتطاول العهد؛ أحدث العرب في دين الله ما لم يأذن به، وانحرفت بهم الأهواء وأغرتهم الشياطين فعبدوا غير الله وأشركوا معه ما لا يضرهم و لا ينفعهم وما ليس لهم به علم ..وتعدد الروايات في نشأة الوثنية في جزيرة العرب ....ويروي ابن هشام رواية تفيد أن عمر بن لحي الخزاعي قدم الشام فرآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ هذه الأصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا.

10)السيرة النبوية ، عبد الوهاب النجار ،(ص102)، دار الكتب العلمية ، بيروت ط1 .
(11)الرسول والوحي ، محمد احمد سيد الميسر ،(ص :168) ،مكتبة التراث المدينة المنورة ط1 .

وبتصديقه وتيقن عقيدته، أخذ منهم صنماً(12)، فسار به إلى أرض العرب فعبدوه (13)، وهناك تعليل أخر لتلك النشأة قد يكون اقرب إلى طبائع الأشياء وتعاقب الحوادث، فيسوق ابن اسحق رواية تفيد أنه كان لا يضغن مكة ضاغن منهم، حين ضاقت عليهم والتمسوا الفصح في البلاد؛ إلا حمل معه حجراً من حجرة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم، حتى خلف الخلوف ونسوا ما كان عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غير، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من الضلالات .....) (14).

ونرى أن هذه الوثنية التي استقرت في مكة وأصبح لها عباد كانت نتاج ما يحمله الطابع البشري من سلسلة قضاية عقائدية حرفت، عن جادت العقيدة الصحيحة، لدين إبراهيم عليه السلام، كما أن العقول البشرية تسعى إلى إدراك الحقيقة الدينية والكشف عن مبادئ الكون، ومصادره، ومصيره، وغاياته، ولكن ليست علي درجة واحدة من السعي خلال فترات التاريخ المختلفة(15)، فهل توافر للمجتمعات في تلك الحقبة دين أو مذهب يهيئه لهم سبل الحياة في ضل عقيدة إيمانية قبيل البعثة؟ ومع أن دين إبراهيم عليه السلام سائد، في تلك الحقبة، فقد انحرف، وتبدل بمضمون جاهلي بحث.

وهذه الوثنية الجاهلية تبلورت في أمرر كثيرة، أهمها(16).

الاعتقاد بان هذه الأصنام شفعاء عند الله آو تقربهم منه سبحانه ، وقد أشار القرآن إلي هذه المعنى فقال تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }(يونس18).

وقال جل شأنه: {.... وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ...}(الزمر:3).

(12)الصنم في المعاجم وتفاسير القرآن هو مااتخذ ألهآ من دون الله ، ويفرق بوجه عام بين كلمة صنم وكلمة وثن بان الصنم ما كان له جسم وهو يصنع من الحجر أو الخشب أو المعدن ، فحين ان الوثن يكاد يرادف الصورة أو الرسم ، وتزيد المعاجم العربية بان الصنم كلمة أعجمية الأصل ، مشتقة من كلمة شنم ،ويذهب علماء اللغة الأوربية إلي أنها من حيث الاشتقاق هي عين الكلمة العبرية " صلم " أي الصورة أو التمثال . من دائرة المعارف الإسلامية (14 :356). (13)السيرة النبوية ، لابن هشام ، (1 :56) ،دار الفجر للتراث القاهرة ط الثانية 2004 م.

(14)الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ،أبو لقاسم السهيلي ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ،(1 :101)،دار الكتب الحديثة ، 1387ه . (15) الدين والحرية ، سالمة عبد الجبار، (ص:16-17)،ط2 ،1990 م- مطابع الزاوية.

(16)مرجع سابق ذكره (11)، (ص: 5).

ونذكر هنا التناقض في قضية رئيسية في عقيدة من ينكرون يوم الحساب مع اعترافهم بوجود الله .. وقد ذكر في أكثر من أية في القرآن فقال تعالى:{وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ }(النحل: 38)، يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فاقسموا بالله، أي اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان انه لا يبعث الله من يموت، أي استعبدوا ذلك وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا علي نقيضه، فقال: مكذباً لهم ورداً عليهم "بلي " أي بلي سيكون ذلك، وعداً عليه حقا " أي لا بد منه، " ولكن أكثرهم الناس لايعلمون "، إي فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر(17).

وقد أكد، القرآن ونبه إلى الانسياق غير السوي فقال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ }(البقرة :170).

كذلك هناك قضية أخرى تعاني منها المجتمعات وهو الالتجاء إلى الأوهام و الخرافات، وملء حياة الناس بما يفسد إنسانية المرء ويسلبه خصائص البشرية السوية، مثل السحر والكهنة والعرافة والتنجيم .....) قال تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً }(الجن: 6) .

هذا ولم تكن الوثنية وقفا علي جزيرة العرب بل وجدت في العراق والشام ومصر واليونان وكثير من إرجاء العالم القديم، ويعتبر سيدنا نوح عليه السلام أول رسول يواجه عبادة الأصنام في البشرية قال تعالى: {قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً }(نوح :21) ...{وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً } (نوح :23).

وتوالت الرسالات الإلهية توقظ العقل الإنساني، وتنهي عن عبادة الأصنام وتأمر بعبادة الله الواحد الديان .....وكان لإبراهيم الخليل عليه السلام مواقف خالدة مع أبيه وقومه في سورة الأنبياء يتضح مدى الانحراف العقدي والتخلف العقلي...قال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ }(الأنبياء :51).

فثقافة النبوة رشد عقلي، وفطنه، وعصمه، وكفاية إلهيه للمصطفين الخيار، ويستوضح لنا من هذا المنطلق ما أوتي إبراهيم عليه السلام، الحجة علي قومه بقوله : {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ }ا{قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ } {قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }(الأنبياء :52.53 54).

(17)تفسير القرآن العظيم ،لابن كثير ، تحقيق محمد علي الصابوني ، (2 :327) ،دار الفكر للنشر والتوزيع ط2، بيروت ، لبنان -1999م.

وهكذا فليس للوثنية سند وحجة إلا تقليد الإباء عصبية وحمية {قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ }(الأنبياء :55)

{قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ }(الأنبياء56).

وهنا موقف المقارنة والمقابلة، فالله تعالى هو فاطر الكون والكائنات ومبدع الوجود ومانح الخير كله .. فماذا تملك الأصنام من أمر نفسها أو من أمر غيرها **؟!**

{وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ } {فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ } (الأنبياء: 57 : 58).

وهذا موقف تغير المنكر في اسمى مراتبه بعد بيان الحجة ووضوح الدليل ...

{قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ }(الأنبياء59).

{قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ }(الأنبياء60).

{قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ }(الأنبياء:61).

وهذا هو رد الفعل في أول صدام ... إنكار لتلك الجريمة في نظرهم وتشنيع علي الفاعل وبحث عن الجاني **!!**

{قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ }(الأنبياء:62).

قال : {قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ }(الأنبياء:63).

{قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ }(الأنبياء :63).

وفي ساحة المحاكمة، وعلى رؤوس الإشهاد يجرى هذا الحوار، وتقام هذه الحجة الدامغة التي تلفتهم إلى مواطن الخطأ و الخطيئة في عقيدة الوثنية.

لماذا يوجه السؤال إلى إبراهيم عليه السلام، ولا يوجه إلى كبير الأصنام **؟!** وكيف تتحطم الإلهة المزعومة وهي التي تتخذ ملجأ ومنجي؟ أيهما أقوى سلطاناً، العابد أم المعبود؟**!!**

إن الصنم أصم، أعمى، أبكم، ولا يغني شيئاً، لكن الإنسان يسمع ويبصر ويتكلم وينحت التماثيل .. فيأهما اسمى من الأخر وأعلى **؟!**{قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ }(الأنبياء :66).

{أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ }(الأنبياء :67) .

هنا لا مفر من احد أمرين، الاقتناع أو المكابرة ... لكن القوم أبوا منطق العقل وعدلوا إلي البطش والتنكيل شأن كل الجهلاء المتكبرين.

{قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ }(الأنبياء: 68).

وما كان الله ليدع رسوله، فلقد نصره نصراً موزراً، واظهر حجته البالغة وآيته الكبرى ... {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ }(الأنبياء: 69).قال لم يبق نار في الأرض إلا طفئت، وقال كعب الأحبار: لم تحرق النار من إبراهيم عليه السلام إلا وثاقه، قال ابن عباس رضي الله عنه: لولا أن الله عزوجل قال " سلاما " لآذى إبراهيم عليه السلام بردها (18).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال أبو إبراهيم لما رفع عند الطبق وهو في النار وجده يرشح جبينه قال عند ذلك: نعم الرب ربك يا إبراهيم (19).

وبعد إبراهيم عليه السلام، كانت النبوة في فرعين من ولده: أولهما إسحاق ومنه كان جميع الأنبياء عليهم السلام، وأشهرهم ذكراً وأبقاهم أثراً موسى وعيسي عليهما السلام، فقد آتي الله موسى التوراة فيها هدى نور وفصل فيها أحكام العبادات والتكاليف الدينية واستقصى فيها الإحكام التي كانت مناسبة لذلك الوقت واستعدلها النوع البشري ولأمت أحكام الجيل والوقت والمكان، إما عيسى بن مريم عليهما السلام، فدينه النصرانية نسبة إلى الناصرة من قري فلسطين وهي أول قرية اظهر تعليمه فيها والعرب ينسبون إليها فيقلون ناصري نصراني، وقد انزلا لله تعالى عليه الإنجيل فيه هدي وموعظة وتزكية للنفوس من الأدران البشرية وترغيب في الخير وترهيب من الشر، وتعديل لبعض إحكام التوراة اقتضها تغير الأمة، وتبدل أحوالها فانتشر دينه بين قليل من قومه اليهود ودخل فيه كثير من الوثنيين في أقطار مختلفة وممالك متعددة في مشارق الأرض ومغاربها (20).

أما الفرع الثاني: فهو إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام، ولم يكن في العرب دين سماوي ولا شرع الهي قائم إلى نزول إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام، في مكة، فلما أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام، ببناء مكة وتم ببناء الكعبة وأتم بناءه بإعانة ولده إسماعيل عليهم السلام، له على ذلك أمره أن يؤذن في الناس بالحج فصدع بالأمر ودعا طوائف العرب إلى توحيد الله تعالى، و العمل بما جاء به من الشريعة فلبى دعوته كثيراً منهم وفشت ملة إبراهيم (الحنيفية)، في العرب وأقامها فيهم ابنه إسماعيل عليه السلام.

(18)مرجع سابق ذكره (17)، (2: 512). (19) الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ، الإمام السيوطي،(4 : 323)، الناشر محمد أمين ، بيروت ، لبنان . (20) مرجع سابق ذكره (17)، (2 : 512).

ثم بنوه من بعده إلى أن طال عليهم الأمد وأصاب الحنيفية ما كان يصب كل الأديان في تلك الأحقاب من تراخي أمرها وميل بعض الدائنين عنها؛ إيثاراً للشهوات فقل العمل بها إلى أن أتى عمرو بن لحي الخزاعي وقد بلغ عمرو في العرب من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله و لا بعده في الجاهلية، وهو أول من اطعم الحاج بمكة سدائف الإبل ولحمانها على الثريد وذهب شرفه في العرب كل مذهب حتى صار قوله دينًا متبعا، لا يبتدع لهم بدعة ألا اتخذوها شرعة، فغير دين إبراهيم عليه السلام، وشرع لهم الضلالات وعبد الأصنام وسيب السائبة(21)، وبحر البحيرة(22)، ووصل الوصيلة(23)، وحمي الحامي(24)، ونصب الأصنام حول الكعبة واتى بهبل من الجزيرة أو الشام في احدي الروايتين ونصبه في بطن الكعبة، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه فكان الرجل إذا قدم من سفره بدأ به بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده ثم يذهب إلي أهله، وكانت العرب تستقسم عنده بالأزلام، وهو أول من ادخل الشرك في التلبية وتبعه العرب على ذلك فكان الواحد منهم يقول: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك)، وهذا مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ }(يوسف :106)، واحل للعرب أكل الميتة قائلآ كيف لا تكلون ما يقتل الله وتأكلون ما تقتلون ؟(25)،

وقد كان بدء تعظيم الحجارة أن أبناء إسماعيل لما كثروا وانتشروا في النواحي واحتاجوا إلى مزايلة الحرم كانوا يأخذون بعض حجارة الحرم للتبرك بها ويعظمون ذلك الحجر تعظيمهم للكعبة، ومن هنا بدأ تعظيمهم للحجارة تقرباً إلى الله تعالى، إلى أن فتنهم عن الدين عمرو بن لحي ، ومما يؤكد الخبر عن ذلك حديث الرسول ﷺ " رأي عمرو بن لحي يجر قصبه من النار "(26)، انتشرت عبادة الأصنام في العرب من ذلك الوقت فعبدوا (وداً)(سواعا) (يعوق) (يغوث) (نسرا) وهذه التماثيل كانت قديمة في العالم جددها هؤلاء العرب لأن كان نوحا ينهي قومه عن عبادتها فقالوا: {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً}(نوح : 23)، وفشت عبادة الأصنام في العرب وخلطوا فيها خلطآ لا يتفق مع العقل ، فكانوا يعتقدون أن هذه الأصنام تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم عنده

إن هذه التي يقدمونها لآلهتهم البحيرة السائبة والوصيلة و الحامي.

(20)مرج سابق ذكره(10) ،(ص :97). (21)هي الناقة التي يتركونها تقربا للأصنام. (22)البحيرة هي الانثي تلد خمسة أبطن فيشقوا أدنها ويتركونها ترعي لايسمحون بحلبها ولا بركوبه .(23) هي النعجة تلد تسعة في كل بطن تلد شاتين فإذا ولدت في البطن الأخير شاة وجديا قالوا وصلت أخاها ، فلا يشرب لبن النعجة ألا الرجال . (24)هو الفحل من الإبل يولد من ظهر عشرة أبطن فيقول حمي ظهره ، فلا يحملون عليه شياء ولا يمنعونه من ماء ولا مرعي . (25) نفس المرجع (10)، (ص :98). (26)أخرجه البخاري في صحيحه (69/6،224/4).

وقد حرم الله تعالى هذه القرابين الأربعة وبين أنها مما لم يأذن به الله تعالى بقوله: {مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ }(المائدة103).
وكانوا يستقسمون بالأزلام عند الأصنام إذا أراد الرجل منهم سفراً، أو نكاحًا، أو تجارة، أو حفر، بئر، أو نحو ذلك من الأغراض، وقد نهي، الله تعالى عن ذلك في غير آية من كتابه الكريم فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }(المائدة :90).
ومع ما كان عليه العرب من عبادة الأوثان و الأصنام فإنهم كانوا يعظمون الكعبة بما يفوق كل تعظيم لسواها، لأنهم يرونها الأثر الباقي من أبيهم إسماعيل عليه السلام، بها عزهم وهي مناط شرفهم، يحجون البيت ويطفون ويسعون ويقفون المواقف كلها، ويرمون الجمار ويغتسلون من الجنابة وتغتسل نساؤهم من الطمث والنفاس ولا يدعون المضمضة و الاستنشاق وفرق الرأس والسواك والاستنجاء وتقليم الأظافر ويستحدون
ويتحرجون من التزوج بالأمهات والبنات والأخوات ويعبون المتزوج بزوجة أبيه ويلقبونه(بالضيزن)، ويختتنون ويحفظون بناتهم ويقطعون يد السارق اليمنى وكل ما تقدم أثرمن أثار الحنيفية التي كان عليها إبراهيم عليه السلام (27)، ولما أتى أبرهة الحبشي من اليمن ليهدم الكعبة انتقامًا من أهلها على ما فعله احدهم بالقليس"(28)، التي بناها بصنعاء وأرسل الله تعالى على جنده طيرًا أبابيل فأهلكهم، ورأت قريش ما دفع الله عنهم من أمر الحبشة (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ{1} أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ{2} وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ{3} تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ{4} فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ{5})، هذه من النعم التي امتن الله بها علي قريش، فيم صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا علي هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود(29)، تحمسوا في دينهم وقالوا نحن أهل مكة وسكان حرمه وخدام بيته وأبناء إبراهيم خليله عليه السلام، فليس لأحد من الشرف والفضل مثل ما لنا ولا تعرف العرب من حق أحد مثل ما تعرف من حقنا، فلا تعظموا شيئًا من الحل كما تعظمون الحرم لئلا يستخف الناس بكم ولهذا تركوا الوقوف بعرفه وكانوا يقفون بأدنى موضع لعرفة من الحرم فأبطل الله ذلك بقوله تعالى :(ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ){199: البقرة }.

(27)مرجع سابق ذكره(10) (،ص :101) . (28)هي الكنيسة التي بناها أبرهة علي باب صنعاء ، فسميت بالقليس لارتفاع بنيانها وعلوها. (29)مرجع سابق ذكره(17) ، (3 : 673).

كانوا يفعلون ذلك مع إقرارهم بأن الوقوف بعرفة من مشاعر الحج ودين إبراهيم عليه السلام، ولا ينكرون على سائر الناس الوقوف بها والإفاضة منها ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب مثل الذي له بولادتهم إياه وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك، وسموا أنفسهم ومن دخل معهم الحمس المتشددين فئ الدين، وقالوا لاينبغى الحمس، أن ياتقطوا الأقط أويسلوا السمن وهم حرم وألا يدخلوا بيتًا من شعر ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت من أدم ما كانوا حرمًا، ومن السنن التي ابتدعوها أنه لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى الحرم إذا جاؤوا حجاجًا أو معتمرين ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراة فإن تكرم(ترفع)، منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم يمسها هو ولا غيره فدانت لهم العرب بذلك وقد أبطل الله تعالى ذلك كله(30)، بقوله تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ{الأعراف31}.

وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }(الأعراف :32) .

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانت قريش يطفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله " قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ " فأمروا بالثياب قال ابن القيم في إغاثة اللهفان: المتقربون إلى الله بالصفير والتصفيق، والمخلطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة، أشباه هؤلاء المشركين(31).

إن أكثر ما يعمله العرب مع أصنامهم أن احدهم إذا أراد السفر توجه إلى صنمه فتمسح به، ثم سافر، وإذا عاد من سفره أول ما يبدأ به يتمسح بصنمه ثم يدخل على أهله، فلما بعث الله رسوله محمداً ﷺ بالتوحيد، قالت قريش: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ }(ص: 5).

(30)مرجع سابق ذكره (10) ، (ص :102) .

(31)إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، ابن القيم الجوزية ، (ص: 8 - 13)، دار الكتب العلمية بيروت ،ط1- 1998م .

وكانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدى لها كما تهدى للكعبة، وتطوف بها وتنحر عندها وهم يعرفون فضل الكعبة عليها؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم الخليل عليه السلام ومسجده (32) .

وأرى أن منشأ الشرك يعود، إلى استحضار كثير من البدائل، و المسميات الجاهلية، ولذا وجب سد الذريعة، حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قطع شجرة بيعة الرضوان؛ مخافة ان تعبد بمرور الزمن (33).

وخير ما قيل في سعد (34) :

أتينا إلي سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة(35) من الأرض لا تدعو لغي ولا رشدَ ؟!(36) .

ولعلى القضية المطروحة في الوقت الراهن، أن المسلمين فقدوا كثيراً من العلم الصحيح، وابتدعوا بدعاً شبيهة بأهل الجاهلية، ونذروا لأصحاب الأضرحة، والقباب وساقوا لهم الولائم، وحملوا لهم المتاع، وحلفوا بأسمائهم، وجعلوا لهم أسماء وصفات ما انزل الله بها من سلطان، كل ذلك يرجع إلى ضعف العقيدة ويقين الإيمان، واحتيال بعض من آهل العلم، والمشائخ لتمرير بعض التأويلات، إما لخدمة طائفة، أو حزب، أو لتأكيد نظرية فلسفية، أو لطرحة فكرة، أو لدعم رأي.

(32)السيرة النبوية، لابن هشام ، (1: 59- 60) ،دار الفجر للتراث ، ط2 2004 -ج1.

(33)مرجع سابق ذكره(1) ،(ص :35) .

34)صنم يقال له "سعد" وهو لبني مضر ، صخرة بأرضهم .وذلك ان هذا الشاعر أقبل بإبل مؤبلة ليقفها علي "سعد" رجاء بركته ، فلما رأته الإبل – ملطخا بدم القربان – نفرت الإبل وشردت فذهبت كل مذهب ، فغضب ورمي الصنم ، وقال لابارك الله فيك نفرت علي ابلي .

(35)التنوفة : الأرض القفر الذي لا ينبت فيها شيئا .

(36) السيرة النبوية، لابن إسحاق، (1 : 62) ، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه ،أحمد فريد المزيدي ، دار الكتب العلمية –بيروت – ط1 _ 2004م. .

ثانيا: نظام الحكم عند العرب.

كان سكان الجزيرة العربية (1)، ينقسمون إلى بدو وحضر، وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن فى الجنوب ومملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة الغساسنة فى الشمال الغربي، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعب واحد، وإنما ظلت القبائل وحدات متماسكة(2).

والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينها وحدة الدم (النسب)، ووحدة الجماعة، وفى ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي(3).

والقبائل كانت تختار لأنفسها رؤساء القبائل في قومهم كدرجة ملوك، فكانت القبيلة تبعا لرأي سيدها في السلم والحرب، لا تتأخر عنه بحال، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأي ما يكون للدكتاتور قوي؛ حتى كان بعضهم إذا غضب غضبا له ألوف من السيوف لا تسأله : فيم غضب، **إلا إن** المنافسة في السيادة بين أبناء العم كانت تدعوهم المصانعة بالناس من بذل الجهد في إكرام الضيف والكرم والحلم، وإظهار الشجاعة والدفاع عن الغيرة، حتى يكسبوا المحامد في أعين الناس، ولاسيما الشعراء الذين كانوا لسان القبيلة في ذلك الزمن، وحتى تسموا درجتهم عن مستوي المنافسين.

وكان للسادة والرؤساء حقوق خاصة، فكانوا يأخذون من الغنيمة المرباع و الصفي والنشيطة والفضول، يقول الشاعر: لك المرباع فينا والصفايا* - وحكمك والنشيطة والفضول(4)، ومما سبق؛ فلم تكن للعرب قبل الإسلام دولة ولا سلطان مستقل يخضعون له على اختلاف قبائلهم ، ولاهئية منظمة يوظفونها للرجوع إليها والنزول عند حكمها ، كما لم يكن لهم عرف على حدود وثغور لها جيشها المنظم .. وإنما كان كيان العرب الاجتماعي الطبيعي تنمو وتتشابك أعضائه وتلتف فروعه وترسو جذوره في أطار القبيلة فقط ، وحسبهم إن يتولى رؤساء العشائر والبطون الإشراف على شؤون جماعتها ويسود من بينهم رئيس القبيلة الذي يرجعون إليه وتكون قوة القبيلة بما لديها من الأنعام (أبلها وبقرها وغنمها)، وبما تملك من سرعة المباغتة والقدرة على رد المهاجمين(5).

1)الجزيرة العربية هي تسمية مجازية لان بلاد العرب ليست جزيرة وإنما شبه جزيرة ، انظر تاريخ الدولة العربية ، السيد عبد العزيز سالم ، دار النهضة بيروت (ص:9).

2) السيرة النبوية ، علي الصلابي ، (1: 19)، دار المعرفة – بيروت – لبنان- ط10، 2010م.

3) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ، محمد أبو شهبة ،(1 . 60) دار القلم ، دمشق ، ط3- 1996م.

4)الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المبارك كفوري ،(ص :38)المكتبة التوفيقية ، ط 20 2009 م.

*والمباع : ربع الغنيمة ، والصفي : مكان يصطفيه الرئيس ، أي يختاره لنفسه قبل القسمة ، والنشيطة : ما أصاب الرئيس في الطريق قبل ان يصل إلي بيضة القوم . والفضول : ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته علي عدد الغزاة ، كالبعير والفرس ونحوهما.

5) المثل الأعلى للمجتمع الإنساني في القرآن الكريم ، سالم احمد الماقوري ،(ص : 37)، جمعية الدعوة الإسلامية، ط2 -2001م .

ثالثا: الحالة السياسية للعرب قبل البعثة

من خلال عرضنا لنظام الحكم عند العرب، يجدر بنا ذكر جملة من أحوالهم السياسية، فالأقطار الثلاثة التي كانت مجاورة للأجانب كانت حالتها السياسية في تضعضع وانحطاط ..،

فقد كان الناس بين سادة وعبيد، أو حكام ومحكومين، فالسادة - ولاسيما الأجانب – لهم كل الغنم، والعبيد عليهم كل الغرم، أي إن الرعايا كانت بمثابة مزرعة تورد المحصولات إلى الحكومات، فتستخدمها في ملذاتها

وشهواتها، ورغباتها، وعدوانها، إما الناس فهم في عاميتهم يتخبطون، والظلم ينحط عليهم من كل جانب وما في استطاعتهم التذمر والشكوى، بل يسامون الخسف، والجور، والعذاب ألواناً ساكتين، فقد كان الحكم استبدادياً، والحقوق ضائعة مهدورة، والقبائل المجاورة لهذه الأقطار مذبذبون تتقاذفهم الأهواء والأغراض، مرة يدخلون فى أهل العراق، ومرة يدخلون فى أهل الشام، وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال، تغلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية حتى قال ناطقهم :

وما إنا إلا من غزية ان غوت غويت ، وان ترشد غزية أرشد

وأما حكومة الحجاز؛ فقد كانت تنظر إليها العرب نظرة تقدير واحترام، ويرونها قادة وسدنة المركز الديني، وكانت تلك الحكومات ... خليطا من الصدارة الدنيوية والحكومية والزعامة الدينية، حكمت بين العرب بين الزعامة الدينية، وحكمت في الحرم وما والاه بصفتها حكومة تشرف على مصالح الوافدين إلى البيت، وتنفد بعض شريعة إبراهيم عليه السلام، وكانت لها من الدوائر والتشكيلات ما يشابه الإدارات(6)، ولم يكن لهم نظام أو حكم يرجعون إليه، في دعم سيادتهم أو المحافظة علي استقلالهم، حتى ما يسمون ملوك العرب والأمراء، في رأي ما هم إلا تبع للمالك أخرى ،تنصب وتعزل من تشاء، ومما لا يفوتنا ذكره أن ملك هؤلاء الملوك لم يكن ملكاً على التحقيق يأخذ محكومية بالقهر والإرهاق ويخضعون له خشية ورهبة، وإنما كان رياسة فقط إذ العرب لا تألف طباعهم مع ملك يذهب بحريتهم ولا يصبرون على عسف ولا يقيمون على ضيم(7).

(6)الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المباركفوري ، (ص :38) ،دار الوفاء مصر ط20 - 2009م.
(7)السيرة النبوية ، عبد الوهاب النجار ، (ص :74) ،دار الكتب العلمية ط1 -1997م.

ولكن هذه الحكومات في الأصل لا تقدر على حمل العبء كما وضح يوم غزو الأحباش(8)، فمن خصوصيتها أنها قائمة على نظرية الحق الإلهي المقدس للملوك، تمتع الطبقات العليا بكل الامتيازات الخاصة، تذمر الشعوب المحكومة من قبل الإمبراطوريتين وتطلعوا للخلاص من الأحوال السائدة،(مثل ترحيب أهل الشام ومصر والمغرب والأندلس بالفتح الإسلامي)(9).

(8)مرجع سابق ذكره (6).

(9)فتوح البلدان ، أبو العباس احمد البلاذري ، تحقيق ميحي الدين عبد الحميد،(ص :28)، دار الكتب العلمية بيروت 1991م .

ثالثا: الحالة الاقتصادية قبل البعثة

تقع مكة في بطن واد، وتشرف عليها الجبال من جميع النواحي فالي المشرق يمتد جبل أبو قيس، والى الغرب يحدها جبل قعيقعان ....، وتحيط بها دور قريش، أما المنطقة المرتفعة فتعرف بالمعلاة، أما عند طرفي الهلال فتقوم دور ساذجة لقريش الظواهر وهم إعراب فقراء أصحاب قتال، لكنهم دون قريش البطاح في التحضر والغني الحياة، وكانت صلات النسب بين قريش وكنانة – حيث ان قريش تنتمي إلى كنانة – التي تسكن قريباً من مكة، تعطي مكة عمقا استراتيجيا، وقد وثقت صلة النسب بالمحالفات أيضاً، وكان الأحابيش الذين يعيشون قريباً من مكة، حلفاء لقريش أيضا، وكانوا، يستخدمون في حراسة القوافل المكية(1)، وكان الاعتداء والفتك والنهب والظلم من النقائص المتمكنة(2)، وشاعرهم هو القائل: ومن لا يظلم الناس يظلم " (3)، وكان الغزو – عندهم – هو أحد موارد الرزق، ولم يكن يسلم من ذلك قريب ولا بعيد، وفي ذلك قال شاعرهم:

وأحيانا على بكر أخينا إذا لم نجد إلا أخانا

و بذلك، امتدت الأحلاف لتشمل القبائل التي تقع علي خطوط التجارة المكية إلى الشام والعراق واليمن، وكانت قريش تدفع لهم جعالات معينة وتشرك زعمائهم في تجارتهم وسمى هذا (بالإيلاف)(4)، وكانت لقريش رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، يذهبون فيها آمنين بينما الناس يتخطفون من حولهم، هذا عدا الرحلات الأخرى التي يقومون بها طوال العام، قال تعالى: **(لِإِيلاَفِ قُرَيْشٍإِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ۞فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ۞الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ)**[قريش:1-4]. (5)

1)السيرة النبوية الصحيحة ، أكرم ضياء العمري ، (1 : 77) ،ط1 دار العبيكان مكة- 2009م ،.
(2) الإسلام وحقوق الإنسان ، القطب محمد القطب ، (ص :149) ،دار الفكر العربي ط2-1984م .
(3)تاريخ الطبري ، وفيه (والحديث بين رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وبني الحارث ابن كعب)،(3 :128)، دار المعارف بمصر.
4) نفس المرجع (1) .
5)السيرة النبوية ،علي الصلابي ، (1 : 21) دار المعرفة ، بيروت ط10- 2010م..

الذي أوجده هاشم بن عبد مناف، بل تمكن هاشم بن عبد مناف من الحصول على حق التجارة داخل أرض الروم والفرس بالاتفاق مع حكامهم، وعقد المعاهدات معهم ، وسلوك مسلك الحياد بين القوتين، فارس والروم، واقتصاد مكة يقوم أساساً على التجارة أما الصناعة فكانت قليلة أبرزها صناعة الأسلحة:(رماح وسيوف ودروع نبال وسكاكين ثم صناعة الفخار ....) وأما بقية الصناعة فكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للأعاجم والموالي، حتى عندما، أرادوا بنيان الكعبة استعانوا برجل قبطي نجا من السفينة التي غرقت بجدة ثم أصبح مقيمًا في مكة(6)، كما أن الموارد الاقتصادية الأخرى مثل تربية الماشية والصيد كانت معروفة، ولكن بقيت التجارة الدولية أساساً لاقتصاد مكة فكانت سياسة الإيلاف والمعاهدات سبباً في ازدهار مكة وتكاثر رؤوس الأموال فيها الانتقال من التجارة المحلية إلى التجارة الدولية، وساعد النزاع بين الفرس والروم على ازدهار طرق التجارة البحرية بدل الطريق البري بين العراق والشام فكانت تنقل من الهند إلى اليمن ثم مكة والشام، وصارت القوافل الكبيرة تمول من قبل عدد كبير من المكيين بشكل أسهم تزيد وتنقص حسب قدراته المالية(7)، وبذلك امتن الله عليهم بأمن قوافلهم(8)، بقوله تعالى: **(أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ)**[العنكبوت: 67].

6) فقه السيرة النبوية، منير الغضبان ،(ص :60) مهد البحوث العلمية وإحياء التراث ،مكة المكرمة.
(7) نفس المرجع السابق ذكره ، (1).
(8) نفس المرجع السابق ذكره ،(5).

وهكذا ساعدت التجارة على تعميق أواصر المجتمع المكي، إذ ربطته بالمصالح إلى جانب وشائح القربى، لكن هذه المشاركة لم تحل دون نشؤ طبقة غنية متخمة وأخرى متوسطة وثالثة معدمة، فرؤوس الأموال الكبيرة بيد الأغنياء، وهي تتعاظم بالتجارة وبالإقراض الربوي للمحتاجين(9).

و لكن هذا الغنى في أوله وأخره لم يحرر قلوب آنذاك من العبودية للمال ومن شح النفس الذي يجعل المترفين اللاهين لا يجدون غضاضة في أن ينموا ثرواتهم بالربا مستغلين ضعف الضعيف ووطأة الحاجة على المحتاج وذلك ما سجله القرآن الكريم في عدد من آيات سورة البقرة، وآل عمران، والنساء(51)، منكراً على أصحابه اشد الإنكار مطالباً إياهما برد ما أخذوه مما لاحق لهم فيه، منذراً من يستمر منهم بحرب من الله ورسوله، قال تعالى: {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ }(البقرة :279)(10).

وما سجله القرآن في عدد من آيات من سورة البقرة، وآل عمران، والنساء .

(9)مرجع سابق ذكره (1).

(10) السيرة النبوية في القرآن الكريم ، دراسة وتصنيف ، عبد الصبور مرزوق ، مطبوعات رابطة العالم الإسلامي ، السنة الأولي 1401، العدد 6 .

هي علي الترتيب : البقرة ،الآيات ، 275 ، 276 ،278 . آل عمران ،الآية 130 ، النساء ، الآية 161.

الحال الأدبية و الاجتماعية عند العرب قبل البعثة

أولا: الأخلاق

إن من سنة الله تعالى: في خلقه أنه إذا أراد بأمة خيراً قدر لها أن ترقي في معارج الحضارة ألهم جمهورها خلال الخير وأغراها بالمكارم يتنافس فيها كبراؤهم ويتسابق إليها أهل الأقدار، وذلك يتلوه بالطبع أن يتنافس الأفراد في ذلك ويحرزوا منه قسطاً لأن عيونهم منوطة بعيون كبرائهم يقلدونهم في كل أحوالهم كما جاء في أقوالهم(الناس علي دين ملوكهم).

وأول الصفات التي يتحلى بها العربي وأولاها بالذكر صفة هي جماع صفات الخير على الجملة وهي حب المحمدة تستتبع الشهامة والحرص على ما يوجب الثناء الجميل من المكارم كعلو الهمة والحمية والنجدة، أن النفس الإنسان أقرب الأشياء إليه وأثرها لديه، ومن آثار العربي لنفسه غرامه بحب المحمدة الذي أغراه باكتساب المعالي لأنه يرى في ذلك خلوده على الأبد وبقاء ذكره وقد فال قائلهم : فأثنوا علينا لا أبا لأبيكم بأفعالنا ان الثناء هو الخلد .

وقال أخر : فإن يك أفتنه الليالي فأوشكت فإن له ذكرا سيفني الليواليا
وقال الهذلول العنبري: وإني لأشري الحمد أبغي رباحه وأترك قرني وهوخزيان ناعس

الشجاعة :

ومن أخلاق العربي الشجاعة مع سرعة الانفعال، والإقدام على المكارة من اخص الصفات التي يحرصون عليها ويفرون من الاتسام بضدها(1).

وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة وشدة الغيرة، وسرعة الانفعال، فكانوا لا يسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان، وأثاروا الحروب العوان، وكانوا لا يبالون بتضحية أنفسهم في هذا السبيل(2).

1)مرجع سابق ذكره(10) ،(ص: 79).
2) الرحيق المختوم ، صفي الدين المبارك فوري ،(ص :51)المكتبة التوفيقية ،دار الوفاء – مصر ، ط 20 - 2009م.

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل(3)

وكان العرب لا يقدمون شيئاً على العزة ، وصيانة العرض، وحماية الحريم واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم(4).

قتال عنترة: بكرت تخوفني الحتوف كأنني أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها ان المنية منهل لابد ان اسقي بكأس المنهل

فأقني حياءك لا أبا لك واعلمي أني امرؤ سأموت ان لم اقتل(5)

حب الحرية، وإباء الضيم و الذل :

والعربي بفطرته يعشق الحرية، يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ طليقاً لا سلطان لأحد عليه، ويأبى إن يعيش ذليلاً، أو أن ينال في شرفه، وعرضه، ولو كلفه ذلك حياته(6).

الوفاء بالعهد، والصدق:

كانوا يأنفون من الكذب ويعيبونه، وكانوا أهل وفاء، ولهذا كانت الشهادة باللسان كافية للدخول في الإسلام(7).

3)السيرة النبوية ،علي الصلابي،(1 :33)، دار المعرفة ، بيروت ط10- 2010م.
4) نفس المرجع ،(1: 33).
5) ديوان عنترة ، فاروق الطباع ، (ص : 252). دار القلم بيروت- لبنان .
6) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ، محمد أبو شهبة ،(1/ 95) دار القلم ، دمشق ، ط3- 1996م.
7) مرجع سابق ذكره ، (3)،(ص :34).

ويدل على صدقهم ونبذهم للكذب، قصة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله ﷺ وكانت الحروب بينهم قائمة قال: لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه(8).

فالوفاء بالعهود، وعدم نكثها مهما كلفت من ثمن، وهو خلق سام شريف، وجاء الإسلام بتقريره، وتأكيده قال تعالى: (وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ .....}(البقرة :177).

الكرم:

وكانوا يتبارون في ذلك ويفتخرون، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين ممتدح به ومثن على غيره، كان الرجل يأتيه الضيف في شدة البرد والجوع وليس عنده من المال إلا ناقته التي هي حياته وحياة أسرته، فتأخذه هزة الكرم فيقوم إليها، فيذبحها لضيفه(10)، وبذلك يحمد صاحبه عليه، ويحمد له ويثني به عليه فجاء الإسلام بتقريره وتأكيده(11)، إذ قال رسول الله ﷺ: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه(12).

ومن أثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة والحملات المدهشة، يكفون بذلك سفك الدماء، وضياع الإنسان، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات(13)، ويبرز أمامنا حديث، عائشة رضي الله عنها قالت: " لقد جاء الإسلام وفي العرب بضع وستون خصلة كلها زادها الإسلام شدة، منها قرى الضيف وحسن الجوار والوفاء بالعهد(14).

(8) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي (ح رقم :7) دار الفكر ، ط3 – 1991م.
(9) هذا الحبيب محمد يامحب ، ابوبكر جابر الجزائري ،(ص29)،دار الفجر للتراث، ط الثانية 2010م.
(10)مرجع سابق ذكره (2)، (ص 50).
(11)مرجع سابق ، (9).
(12)صحيح البخاري(رقم الحديث: 5702) ، كتاب تفسير القرآن الكريم . 13)نفس المرجع ، (9).
(14) مكارم الأخلاق ، للحافظ أبي بكرعبدالله بن محمد ابن أبي الدنيا، تحقيق محمد احمد عطا ، (ص :40)،دار الكتب العلمية بيروت ط1- 1989م .

الصبر على المكاره وقوة الاحتمال:

لقد اكتسبوا ذلك الخلق من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، فألفوا الصحراء، والجبال الوعرة، والسير في حر الظهيرة، ومرنوا علي الحر، والبرد، ولا وعورة الطريق، ولابعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ حينما كلفوا بالجهاد.

هذه الفضائل وغيرها كانت رصيداً مدخراً في نفوس العرب حتى جاء الإسلام فنماها وقواها، و وجهها وجهة الحق والخير، فلا عجب إذا كانوا انطلقوا من شبه الجزيرة العربية ... ، ففتحوا الأرض، وملأوها إيماناً(15)

وتحققت سنة الله تعالى لهم حيث قال تعالى: (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ{5})(القصص :5).

15)مرجع سابق ذكره (6) ، (1/ 97).

ثانيا :القراءة والكتابة :

كان العرب في الجاهلية يتميزون بفصاحة اللسان وبلاغة المنطق، وكانوا مع ذلك لا يعرفون القراءة ولا الكتابة إلا نفر قليل، فهم أميون، وقد غلبة عليهم صفة الأمية(16)، وتحققت سنة الله تعالى لهم حيث قال تعالى: (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ{5}) (القصص :5).

ولما جاء الإسلام صاروا علماء، حكماء، وفقهاء، وزالت عنهم الأمية، وأصبح العلم والمعرفة من أخص خصائصهم، وكان فيهم من يعلم علم النجوم ومساراتها، والاهتداء بها، ومعرفة الأنواء، وسقوط الأمطار، وتحسس مخابئ الماء تحت أطباق الأرض، كما مهروا في علم قص الأثر، وهو القيافة وكان فيهم أطباء، كالحارث بن كلدة، وكان طبهم مبنياً على التجارب التي اكتسبوها من الحياة والبيئة(17).

16)موقف الإسلام من الوثنية ، حسن خالد ، (ص :19) ،معهد الإنماء العربي، ط1 -1986م.
17) مرجع سابق ذكره (6)،(93/1).

المبحث الرابع: أهم الأحداث التاريخية قبل البعثة

أولا: رؤيا عبد المطلب في شأن زمزم

روي ابن إسحاق(*) في سيرته بسنده عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –انه كان يحدث حديث زمزم حين أمر عبد المطلب بحفرها قال: قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت(1) فقال: احفر طيبة(2) قال: قلت: وما طيبة ؟ فقال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر (3)برة قال: قلت: وما برة ؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر المضنونة(4)، قال: قلت: وما المضنونة ؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر زمزم، قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف(5)، ابداً ولا تدم(6)، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم(7)، عند نقرة الغراب الأعصم(8)، عند قرية النمل(9).

ثانيا: عثور عبد المطلب علي زمزم

فلما بين له شأنها، ودل علي موضعها، خرج بمعوله، ومعه ابنه الحارث، وليس له ولد غيره يومئذ ،فحرفيها، فلما بدأ لعبد المطلب الطي(10)، كبر فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه، فقالوا: يا عبد المطلب أنها بئر أبينا إسماعيل، وأن لنا فيها لحقاً، فأشركنا معك فيها، قال: ما أنا بفاعل !!ان هذا الأمر قد خصصت به دونكم، قالوا: فأنصفنا فانا غير تاركيك حتي نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد هذيم، قال: نعم وكانت بأشراف الشام، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق فنى ماء عبد المطلب وأصحابه حتى كادت أعناقهم تنقطع من العطش، ..فرأى عبد المطلب أن يحفر كل واحد لنفسه قبره ففعلوا، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشى.

*) السيرة النبوية ، لابن إسحاق المتوفي ، 151ه،حققه احمد فريد المزيدي،دار الكتب العلمية بيروت ،ط1 2004م ، ص :78/1. (1)يعني في المنام (2) لأنها للطيبين والطيبات من ذرية إبراهيم. (3)لأنها فاضت علي الإبرار ، وغاضت عن الفجار ، ولأن برها كثير لا ينقطع . (4) لأنها ضن بها علي غير المؤمنين ، فلا يتضلع منها منافق . (5)لا يفرغ ماؤها ، ولا يلحق قعرها . (6) بئر ذمة أي قليلة الماء . (7) تشبيها لها بالبن كما قال تعالي :(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ{66}. (66: النحل) .
(8)الذي احدي رجليه بيضاء . (9) قال السهيلي : " إما قرية النمل أيضا ففيها من المشاكلة والمناسبة ان زمزم هي عين مكة التي يردها الحجيج ، والعمار من كل جانب ، فيحملون إليها البر والشعير وغير ذلك ، وهي لا تحرث ولا تزرع ، وقرية النمل لا تحرث ، ولا تبدر ، وتجلب الحبوب إلي قريتها من كل جانب " . (10)الحجارة التي غطي بها البئر .

ثم بدأ لعبد المطلب، فقال لأصحابه: والله أن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لانضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا الماء لعجز، فعسى أن يرزقنا الله ماء ببعض البلاد فارتحلوا، حتى إذا بعث عبد المطلب راحلته انفجرت عين ماء عذب من تحت خفها ، فكبر عبد المطلب، ثم نزل فشرب وشربوا، وملأوا أسقيتهم، ثم دعا قريشاً، فقال: هلموا إلى الماء فقد سقانا الله، فجاؤا وشربوا، واستقوا ثم قالوا: قد – والله – قضى لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، أن الذي سقاك الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلي سقايتك رشداً، فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبينها.

فضل زمزم:

وقد ورد في فضل زمزم أحاديث كثيرة فمنها: ما رواه مسلم في صحيحه في قصة إسلام أبي ذر – رضي الله عنه: " إنها طعام طعم(11) " ورواه أبو داود الطيالسي مرفوعا بزيادة: " طعام طعم ، وشفاء سقم " وروى الإمام احمد بسنده عن جابر قال: رسول الله ﷺ:" ماء زمزم لما شرب له " وراه سويد بن سعيد وهو ضعيف وروى الدار قطني والحاكم وصححه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم " ماء زمزم لما شرب له: أن شربته لتستشفي شفاك الله، وأن شربته لشبعك أشبعك الله، وأن شربته لقطع ظمئك قطعه الله، وهي هزمة(12)، جبريل، وسقيا الله إسماعيل "، وقد صحح الحافظ الدمياطي – وهومن الحفاظ المتأخرين المتقنين – حديث :" ماء زمزم لما شرب له .." وأقره الحافظ العراقي(13).

(11)مشبع .
(12)هزمة أو همزة: أثر ضربته في الأرض بعقبه ، أوبجناحه .
(13)مقدمة ابن الصلاح وشرحها ، للحافظ العراقي ،أبو عمرو ابن الصلاح ،(ص: 13)ط1 ، دار الكتب العلمية – بيروت .

ثالثا :قصة حادثة الفيل: "750م"

حادثة الفيل قصة أوردنها في مبحثنا، وهي مشهورة أرخ بها العرب لدلالتها على مزيد عناية الله تعالى ببيته، ذلك أن أبرهة الحبشي لما غلب علي بلاد اليمن، ورأى الناس يقصدون إلى- الكعبة البيت الحرام قال: وما هو؟ قالوا له: بيت من الحجارة، قال: ما كسوته؟: ما يأتي ههنا من الوصائل(1)، قال: لأبنين خيراً منه.

فبنى لهم كنيسة بصنعاء، تفنن في بنائها، وتزينها وسماها " القليس " قاصداً صرف العرب عن الكعبة، وعزم على هدم الكعبة، وسار في جيش لجلب لا قبل لأهل مكة والعرب به، وقد تعرض له في الطريق بعض قبائل العرب، ولكنه تغلب عليهم، وعند مشارف مكة وجدوا إبلاً لعبد المطلب بن هاشم، فاستاقوها، فذهب عبد المطلب إليه، وكان وسيماً جميلاً تعلوه المهابة والوقار، فستعظمه أبرهة، وأكرمه، فلما كلمه في الإبل عجب وقال له: أتكلمني في الإبل، ولا تكلمني في بيت فيه عزك، وشرفك، وشرف أبائك؟! فقال عبد المطلب هذه الكلمة التي سارت مسير الأمثال: " أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه(2).

ثم رجع عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال:(3).

لأهم (4) ان المرء يمنع رحله فامنع رحالك

وانصر علي آل الصليب وعابديه اليوم آلك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم (5) أبدا محالك (6)

(1)الوصائل هي ثياب مخططة يمانية ، كنت تكسي بها الكعبة .
(2)رب الإبل : صاحبها ومالكها .
(3)السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ، محمد أبو شهبة ،(ص :1/ 168) دار القلم ، دمشق ، ط3- 1996م.
(4) أصلها اللهم ، حذفت الألف واللام منها ،
(5)المحال – بكسر الميم – القوة والشدة .
(6) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، (674/3).

ثم أرسل حلقة البيت وانطلق هو ومن وعه من قريش إلي الجبال ينظرون ما أبرهة فاعل بالبيت، وكان في جيش أبرهة فيل عظيم فصار كلما وجهوه إلى الطريق المؤدي إلى مكة أبى وبرك، وإذا وجهوه إلى غير طريق مكة سار وجرى، ومع هذه الآية أصر أبرهة وجيشه علي هدم الكعبة، فما كان إلا ان أرسل الله عليهم طيرا أبابيل(7)، في مناقيرها وأرجلها حجارة صغار، فصارت ترميهم بهذه الحجارة، وليست كلهم أصابت، فكان من صادفه حجر تمزق جسمه ومات.

وخرجوا هاربين يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك، ونكل الله بأبرهة وجيشه شر تنكيل(8).

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه القصة في سورة الفيل قال :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ{1} أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ{2} وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ{3} تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ{4} فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ{5}) (الفيل : 1-5).

هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل ،الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل أعمالهم، وردهم بشر خيبة(9)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليه ورسوله والمؤمنين " (10)، وقال ابن تيمية "رحمه الله": (وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ، وكان جيران البيت مشركين، يعبدون الأوثان، ودين النصارى خير منهم ،**فعُلِمَا** بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ، بل كان لأجل البيت، أو لأجل النبي صلى الله عليه وسلم ، الذي ولد في ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما، وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته)(11)، وما مضى علي واقعة الفيل خمس السنوات حتى تم طرد الأحباش، من بلاد اليمن، وبذلك كانت أول الثورات العربية، التي انطلقت من بلاد اليمن، بحركة وطنية من دولة حمير لتخليص اليمن من دولة الأحباش،(12)، وقد استنجد سيف ذى يزن بكسري فارس فأمده بحملة سنة "575م"، بقيادة وهرز، وقد تغلب هذا القائد على الأحباش في اليمن(13).

(7) جمع ابيل أو أبول أي جماعات ، وقيل : لا واحد له من لفظه .
(8) مرجع سابق ذكره (3)،(169/1) .
(9)مرجع سابق ذكره (6) ،(3/ 673).
(10)صحيح مسلم ، كتاب الحج ، (رقم : 26).
(11) أعلام النبوة ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ، (ص : 85) دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الأولى ، 1987 م.
(12)السيرة النبوية ،أبو الحسن علي الحسيني الندوي ،(ص 82)،دار الشروق ، جدة ط- 1989 م.
(13)راجع السيرة النبوية ، لابن إسحاق ، تحقيق وعلق عليه وخرج أحاديثه ،أحمد فريد المزيدي ،(1 : 52- 59) ،دار الكتب العلمية ، بيروت ط1- 2004م .

رابعا: *زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب ،ورؤيا آمنة أم* ***النبي صلى الله عليه وسلم***

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، ولما نجا من الذبح، وفداه عبد الله من الإبل، زوجه من أشرف نساء مكة نسباً، وهي آمنة ببنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب(1).

ولم يلبث أبوه أن توفي بعد ما حملت آمنة به *صلى الله عليه وسلم، ودفن أبوه في المدينة عند أخوال بني " عدي بني النجار "، فانه قد كان قد ذهب بتجارة إلي الشام فأدركته المنية بالمدينة ، وهو راجع، وترك هذه النسمة المباركة، وكان القدر يقول له: قد انتهت مهمتك في الحياة، وهذا الجنين الطاهر يتولى الله عز وجل وبحكمته ورحمته وتربيته وتهذيبه، وإعداده لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور(2).*

وسئل الرسول ﷺ، من نفر من أصحابه، قال ابن إسحاق: قالوا له: يا رسول الله ﷺ،أخبرنا عن نفسك؟ قال: " نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشري أخي عيسي ،ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ....."(3)

وقد أورد تعقيب، في المضمون وسياق التفسيري للحديث(4)، فهي دعوة إبراهيم عليه السلام، هي قوله: ((رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ))}129{ . (البقرة:129).

وبشرى عيس عليه السلام، كما أشار إليه قوله عزوجل، حاكياً عن المسيح عليه السلام: ((وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ))}6{ (الصف : 6).

وقوله ﷺ: "ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام " قال ابن رجب: وخرج من هذا النور عند وضعه، إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزالت به ظلمة الشرك منها.

(1)وقفات تربوية مع السيرة ،أحمد فريد ،(ص : 102)، دار طيبة ، الرياض ، ط3 – 1997 م.
(2)السيرة النبوية ، علي الصلابي ، (ص: 46)، بيروت ،دار المعرفة ط 10 -2010م.
(3)الحديث في ، تفسير القرطبي (131/2) وتفسير الطبري ، (1/ 435) الدر المنثور للسيوطي ، (139/1،207/5) طبقات ابن سعد ، (96/1/1)، البداية والنهاية ،لابن كثير (275/2) ، السيرة النبوية، لابن هشام ،(112/1) .
(4)نفس المرجع ،(11).

كما قال تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{15} يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{16}) المائدة : 15، 16).

وقد أورد تعقيب من ابن كثير، بقوله: "وتخصيص الشام بظهور نوره، إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام في أخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، و بها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، بدمشق، بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في الصحيحين: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك" وفي صحيح البخاري: وهم بالشام"(5).

(5) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، (184/1) ، ورواه البخاري ، كتاب المناقب ، (28/ 1463) .

خامسا : **مولده** صلى الله عليه وسلم:

ولد سيد المرسلين ﷺ، بشعب بني هاشم بمكة صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل(1)، ويوافق ذلك عشرين أو اثنين وعشرين من شهر أبريل سنة"571م"، حسبما حققه محمد سليمان – المنصور فوري "رحمه الله" (2).

وعند ولادته ﷺ، وقعت جملة من الإرهاصات، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، و انهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت، وخمدت نار النار التي يعبدها المجوس(3).

ولما وضعته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده، فجاء مستبشراً ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له(4)، وأختار له اسم محمد – وهذا الاسم لم يكن معروفا في العرب، وروي يزيد بن عبد الله بن وهب عن عمته: ((أن آمنة لما وضعت رسول الله ﷺ، أرسلت إلي عبد المطلب، فجاء البشير وهو جالس في الحجر، فأخبره أن أمنة ولدت غلاما، فسر بذلك وقام هو ومن معه فدخل عليها، فأخبرته بكل ما رأت، وما قيل لها، وما أمرت به، فأخذه عبد المطلب، فأدخله الكعبة، وقام عندها يدعو الله ويشكر ما أعطاه (5).

وروي أنه قال يومئذ:

السعد الله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد علي الغلمان أعيذه بالله ذي الأركان
حتي يكون بلغة الفتيان حتي أراه بالغ البنان
أعيذه من كل ذي شنئان من حاسد مضرب العنان(6).

1)نتائج الإفهام في تقويم العرب قبل الإسلام ، محمود باشا ،(ص :28 - 35) ، ط بيروت . وهو ثابت ،وهو صحيح الإسناد : ابن كثير (649/2) ، وولادته كانت يوم الاثنين كما ورد بسند صحيح عند احمد (277/1) في "المسند" عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه ، وفيه – مرفوعا – لما سئل صلي الله عليه وسلم ، عن صوم يوم الاثنين قال :" ذاك يوم ولدت فيه ، ويوم بعثت أو أنزل علي فيه ".
2)20 أبريل حسب التقويم الميلادي القديم و 22 أبريل حسب التقويم الميلادي الجديد .
3) دلائل النبوة للبيهقي، 1/ 126 ، 127. وتاريخ الطبري ،2/ 166 ،167 . والبداية والنهاية ، 2/ 268 ،269 .
4) ابن هشام ، 1/ 159 ، 160 .
5) صفة الصفوة ، جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي ، المتوفي سنة 297ه ،تحقيق حامد أحمد الطاهر ، (24/1) ، دار الفجر ،القاهرة ، ط1- 2005 .
6) السيرة النبوية ، لابن إسحاق ،(1: 97)، دار الكتب العلمية ط1 ، بيروت – 2004م .

أولا: مرضعاته ﷺ:

قالت برة بنت أبي تجرة (1): "أول من أرضع رسول الله ﷺ، ثويبة بلبن ابن لها، يقال له: مسروح، أياما قبل أن تقدم حليمة، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه، أرضعت بعده سلمة بنت عبد الأسد، ثم أرضعته بنت عبدالله السعدية "(2).

وهذا ما تقص به حليمة السعدية، مرضعة الرسول ﷺ، وما حلا عليها، من بركات لحضانتها للنبي صلى الله عليها وسلم

عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، قال: " لما ولد رسول الله ﷺ، قدمت حليمة بنت الحارث، خرجت في نسوة من بني سعد بن بكر بن هوزان، يلمسون الرضعاء بمكة، فخرجت على أتان لي قمراء قد أدمت بالركب، قالت: وخرجنا في سنة شهباء(3)، لما تبقى لنا شيئاً ان وزوجي الحارث بن عبد العزي، وقالت: ومعنا شارف لنا والله ان تبض(4)، علينا بقطرة من لبن، ومعي صبي لنا، والله ما ننام ليلنا من بكائه، ما في ثديي لبن يغنيه، ولا في شارفنا(5)، من لبن يغذيه إلا أنا نرجو الخصب والفرج، فلما قدمنا مكة لم تبق منا امرأة ألا عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه، وإنما كنا ترجوا الكرامة في رضاعة من نرضع له، من والد المولد، وكان يتيما ﷺ فقلنا: ما عسى أن تصنع بنا أمه؟ فكنا نأبى حتى لم تبق من صويحباتي امرأة إلا أخدت رضيعاً، غيري، قالت: فكرهت أن أرجع ولم أخد شيئاً وقد أخد صويحباتي؛ فقلت لزوجي الحارث: والله لأرجعن إلى ذلك اليتيم فلأخذنه. فأتيته فأخذته ثم رجعت به إلى رحلي، قالت: فقال لي زوجي: قد أخدته؟ قلت: نعم، وذلك أني لم أجد غيره، قال أصبت، عسى أن يجعل الله فيه خيرا.

قالت فأخذته، فأتيت به الرحل، فو الله ما هو إلا أن أتيت به الرحل، فأمسيت أقبل ثدياي بالبن، حتى رويته، وأرويت أخاه، قام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها، فإذا هي حافل، فحلبها، فأرواني، وروى، فقال: يا حليمة، تعلمين والله لقد أصبنا نسمة مباركة، لقد أعطى الله عليها ما لم نتمن، قالت: فبتنا بخير ليلة، شباعاً، وكنا لا ننام ليلنا مع صبينا.

(1)ذكرها ابن عبد البر في " الاستيعاب " برقم (5823) بترقيمي ط .التوفيقية ،وذكرها هناك أن بني تجرأة قوم من كندة قدموا مكة .نقلاً،مرجع سابق ذكره ، (19).

(2)صحيح الإسناد : ابن سعد (50/1) في طبقاته ، وابن إسحاق في " السيرة " والبيهقي (133/1)-136) في " دلائل النبوة " واصله عند البخاري (5101) ، ومسلم (1449) في الرضاع . (3) شهباء : هي السنة الشهباء : هي سنة ذات قحط وجذب ،صفة الصفوة ،(26/1) . (4) تبض : بض الماء :قطر وسال ،وبضت الحلمة : درت باللبن ، نفس المرجع

(5) شارف : هي الناقة المسنة، والجمع (شرف) بضم الشين والراء ، وقيل : بتسكين الراء كما في الدر النثير (520/1).

ثم اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا و صواحبي، فركبت أتاني القمراء فحملته معي، فو الذي نفس حليمة بيده لقطعت الركب(6)، حتى أن النسوة ليلقن: امسكي علينا، أهذه أتانك التي خرجت عليها؟ فقالت: نعم، فقالوا: إنها كانت أدمت حين أقبلنا فما شأنها ؟ قالت، فقالت: والله حملت عليها غلاما مباركاً.

قالت: فخرجنا، فما زال يزيدنا الله في كل يوم خيرا، حتى قدمنا والبلاد سنة، ولقد كان رعاتنا يسرحون ثم يريحون، فتروح أغنام بني سعد جياعا، وتروح غنمي بطاناً(7)، حفلا، فنحلب، ونشرب، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزي، وغنم حليمة تروح شباعاً حفلا، وتروح غنمكم جياعا، ويلكم أسرحوا حيث تسرح غنم رعاهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياعا كما كانت، وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يشب شباباً ما يشبه أحد من الغلمان، يشب في اليوم شباب السنة، فلما أستكمل سنتين أقدمناه مكة، أنا وأبوه، فقلنا: والله لا نفارقه أبداً ونحن نستطيع، فلما أتينا أمه، قلنا: والله ما رأينا صبياً قط أعظم بركة منه، وإن نتخوف عليه وباً(8) مكة وإسقامها، فدعيه نرجع به حتى تبرئى من دائك، فلم نزل به حتى أدنت، فرجعنا به ، فأقمنا أشهرا ثلاثة أو أربعة، فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بهم لنا(9) ، إذ أتى أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه: أن أخي القرشي، أتاه رجلان عليهم ثيابا بيض ، فأخذاه وأضجعه، فشقا بطنه، فخرجت إنا وأبوه يشتد، فوجدانه قائما، قد أنتقع لونه (10)، فلما رآنا أجهش ألينا، وبكى، قالت: فلتزمته إنا وأبوه، فضممنه إلينا: مالك بأبي وأمي فقال: (أتاني رجلان وأضجعاني، فشقا بطني، ووضعا به شيئا، ثم رداه كما هو)، فقال أبوه: والله ما أرى ابني إلا وقد أصيب، الحقي بأهله، فرديه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوف منه.

قالت: فحتملناه فقدمنا به على أمه، فلما رأتنا أنكرت شأننا، وقالت: ما رجعكما به قبل أن أسألكماه، وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أن قضى الله الرضاعة.

6) قطعت الركب : سبقت الركب .
7) بطانا : الممتلئة البطون .
8) الوباء : المرض .
9) البهم : صغار الضأن والمعز .
10)انتقع لونه : تغير .

وسرنا ما نرى، وقلنا: نؤويه كما تحبون أحب إلينا، قال: فقالت: أن لكما شأننا فأخبراني ما هو فلما تدعنا حتى أخبرناها، فقالت: كلا والله، لا يصنع الله ذلك به، أن لبني شأناً، أفلا أخبركم خبره، إني حملت به، فو الله ما حملت حملاً قط كان أخف علي منه، ولا أيسر منه، ثم أريت حين حملته خرج مني نور أضاء منه أعناق الإبل ببصري – أو قالت: قصور بصري – ثم وضعته حين وضعته، فو الله ما وقع كما يقع الصبيان، لقد وقع معتمداً بيديه على الأرض رافعاً رأسه إلي السماء فدعاه عنكما، فقبضته، وانطلقنا)(11).

وتحدث العلامة، أحمد بن عبد الرحيم (12)، عن الحكمة في ذلك بقوله: (وظهرت الملائكة، فشقت عن قلبه؛ فملأته أيماناً وحكمة، وذلك بين عالم المثل والشهادة فلذلك لم يكن الشق عن القلب أهلاكاً، وقد بقى منه أثر المخيط؛ وكذلك كل ما أختلط فيه عالم المثال والشهادة)(13).

وتحدث أيضاً، "البوطي" في كتابه فقه السيرة فقال: أن الحكمة بإعلان أمر الرسول ﷺ، وتهيؤه للعصمة والوحي، منذ صغره بوسائل مادية، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به، وتصديقهم برسالته، وبذلك عملية تطهير معنوي، اتخذت هذا الشكل الحسي المادي، ليكون ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم(14)، وأن إخراج العلقة منه تطهير للرسول ﷺ، من حالات الصبا اللاهية العابثة، المستهترة ،واتصافه بصفات الجد والحزم والاتزان، وغيرها من صفات الرجولة الصادقة، كما تدلنا عناية الله به، وحفظه له، وأنه ليس للشيطان عليه سبيل(15).

(11)مسند أبي يعلي الموصلي،(13/.93 ورقمه 7163) ، الطبراني في الكبير، (212/24ورقمه 545)، وذكره الهيثمي في المجمع (221/8) وقال: رواه أبو يعلي والطبراني ينحوه ورجالهما ثقات ، وأورده الذهبي (ص:21) ، والسيرة ، لابن إسحاق (100/1- 101 – 102)

(12)أحمد بن عبد الرحيم ، المعروف بولي الله الدهلوي، ولد في دهلي بالهند (1114ه) في أواخر عهد السلطان أورنجزيب ،أحد سلاطين الدولة التيمورية ، نشأ في بيت علم وصلاح ، من أهم مؤلفاته ،شرح التراجم (أبواب البخاري) ، عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد ،والمسوي من أحاديث الموطأ ، حجة الله البالغة في إسرار الحديث وحكم التشريع ، وترجم القرآن إلي الفارسية ، توفي : (1176ه – 1762م) . نقلا عن / فهرس الفهارس والإثبات ، عبد الحي الكناني ، تحقيق إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي-بيروت _1982م.

(13) حجة الله البالغة ، أحمد عبد الرحيم الدهلوي ، (2/ 205) .

(14)فقه السيرة ،محمد سعيد رمضان البوطي، (ص:47) دار السلام ط6، القاهرة – 1999م. (15) السيرة النبوية ،محمد أبو فارس، (ص: 106 ، 107)، دار الفرقان ، عمان ط1-1997م.

ثانيا: وفاة أمه ﷺ

وبعد واقعة شق الصدر، وخوف حليمة، ردته إلى أمه، فكان بين أحضان أمه، إلى إن بلغ ست سنين.

وتوفيت آمنة ورسول *الله* ﷺ ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تريه إياهم، فماتت وهي راجعة إلى مكة(1).

ثالثا: إلى جده عبد المطلب

وضمه جده عبد المطلب، وكانت مشاعر الحنو في فؤاده تربو حفيده اليتيم الذي أصيب بمصاب جديد نكأ الجروح القديمة، فرق عليه رقة لم يرقها على احد من أولاده، فكان لا يدعه لوحدته المفروضة، بل يؤثره على أولاده، قال ابن هشام: كان يوضع لعبد المطلب فراش في ضل الكعبة، فكان بنو يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا أبني هذا، فو الله أن له لشأناً، ثم يجلس معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع(2) .

ولثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ، توفي جده عبد المطلب بمكة ، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أبيه(3) .

رابعا: إلى عمه الشقيق

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمه إلى ولده وقدمه عليهم واختصه بفضل واحترام وتقدير، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه، ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله(4)، ورأينا في سردنا لسيرة المصطفي صلى الله عليه وسلم وما عانه في طفولته، **أن** نورد تعقيب وأن نقف على قوله عز وجل، {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى }(الضحى :6).

وهنا الخطاب الصريح إلى *النبي* ﷺ، *والرعاية التي اخصها الله عزوجل برسوله* ﷺ.

لقد ولدت يتيماً فآواك إليه، وعطف عليك القلوب حتى قلب عمك أبي طالب وهو على غير دينك(5) .

(1)السيرة النبوية ، لأبن هشام ، (114/1) . (2)الرحيق المختوم ، مصدر سابق ذكره ،(ص : 64). (3)نفس المصدر(37). (4) نفس المصدر . (5)في ضلال القرآن ، لسيد قطب ، (6: 3927) ، دار الشروق – القاهرة ، ط التاسعة والثلاثون 2011م .

خامسا: حرب الفجار :

ومن أبرز الأحداث التي عاصرها النبي ﷺ، في سنه المبكرة من شبابه حرب الفجار

وسميت بحرب الفجار لأنهم اقتتلوا في رجب، وكان عندهم الشهر الحرام الذي لاتسفك فيه الدماء، فسمى الفجار لأنهم فجروا في شهر حرام(1)، ولقد قال الله تعالى : (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ{36} (التوبة : 36).

وقيل: إن النبي ﷺ، كان حينذاك ابن عشرة سنين، وقيل: خمس عشرة، وقيل سبع عشرة وقيل:عشرين(2)، وتختلف الروايات حول سن الرسول ﷺ، وأي كانت سنه فإن هذه الحرب دامت أربع سنين(3)، وذلك راجع في المقام الأول إلى عدم التحديد الدقيق لبداية هذه الحرب، في حين نظر بعضها إلى نهايتها، ونظر بعضها الآخر إلى ما بين ذلك(4)، وفي هذا السياق يذكر بعض المؤرخين أن حرب الفجار الثاني كانت " بعد الفيل بعشرين سنة، وبعد موت عبد المطلب باثنتي عشرة سنة " (5).وإشارة إلى حرب سابقة فلم يكن لها شأن كبير، وقد شهد الرسول ﷺ، بعض أيام هذه الحرب مع أعمامه، ويقول ابن هشام: قال رسول الله ﷺ،: (كنت أنبل علي أعمامي)، أي أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها)(6)، فلم يكن بالتأكيد راضياً عن هذه الحرب ولا عن مكانها أو زمانها لأن البيئة التي نشأ فيها بيئة أمن وسلام(7).
ويفهم من ذلك ان الرسول ﷺ، كان مدافعاً؛ عن نفسه ويقي أعمامه من النبل، وبذلك أكتسب بعض الخبرات الميدانية في الحرب، وتوالدت عنده الجرأة والشجاعة منذ شبابه، وقد انتهت الفجار بعد أربع سنين من بدايتها بصلح قام على أساس على إن يدفع الفريق الذي قل عدد قتلاه دية القتلى الزائدين في الفريق الآخر، فدفعت قريش وكنانة بمقتضى هذا الصلح دية عشرين رجلاً من قريش(8).

1) تاريخ اليعقوبي ، احمد بن يعقوب بن جعفر ، (2 : 14) ، دار صادر – بيروت ، 1992م .
2) كتاب الأغاني،أبو الفرج الأصفهاني ،(22 : 56) ، نشر الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة، 1973 .
3) الرسول *صلي الله عليه وسلم*، حيلته وتطور الدعوة الإسلامية في عصره ،عبد الرحمن أحمد سالم ،(ص: 42)، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 2006 م .
4) الكامل في التاريخ ، عز الدين علي بن محمد ابن الأثير (1 : 589) ، دار صادر – بيروت ، 1982م .
5) حياة محمد *صلي الله عليه وسلم*، محمد حسين هيكل ،(ص: 133)، دار المعارف – القاهرة ، 1981 .
6) نفس المرجع ، (3) ،(ص :43).
7)السياسة والمجتمع في العصر النبوي ، إبراهيم بركات ،(ص :52)، دار الأفاق الجديدة – المغرب ، ط1 ، 1990 .
8) نفس المرجع ، (4) ،(ص : 595).

سادسا:حلف الفضول

ولم يمض طويل زمن على انقضاء حرب الفجار حتى شهد **الرسول صلى الله عليه وسلم،** عرف باسم **" حلف الفضول "** (1)، وحين رأت قريش ذلك قالت: " لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر "، عرف ذلك الحلف بحلف **الفضول "** (2)**.**

لقد كان الرسول ﷺ، أحد شهود هذا الحلف وهو في صدر شبابه، وبعد الإسلام أشار ﷺ، إلى هذا الحلف إشارة، إلى تتعدد صيغها، و في الروايات تتفق في مضمونها.

ويقول عنه ﷺ، **"** شهدت حلفاً في دار عبد الله بن جدعان لم **يزده الإسلام إلا شدة،** وهو أحب إلي من حمر النعم، أما لو دعيت إليه اليوم لأجبت **"**(3)**.**

وهذا يؤكد ميل الرسول ﷺ، منذ كان حدثاً إلى المثالية في أخلاقه وسلوكه وفي تصوره للعلاقات الإنسانية بوجه عام(4)، ويرى المتتبع لأوضاع جزيرة العرب بصفة عامة، ووضع مكة المكرمة مركز الجزيرة الديني والثقافي والسياسي وواقعها، أن الباعث لأهل الضمائر الحية على إنشاء هذا الحلف لم يكن حادثة تتعلق بفرد واحد أو لبعض حقوق مهضومة لأفراد معدودين، بل كان الباعث القوي هو القلق من حالة الفوضى وعدم الثقة التي كانت تسود على مكة وما حولها، والشعور بالحاجة إلى الأمن والاستقرار – خصوصاً بعد حرب الفجار – واحترام الحقوق والكرامات، وحماية الغرباء والوافدين إلى مكة من التجار والصناع(5).

1) نفس المرجع السابق، (7)،(ص :44).
2) البداية والنهاية ، ابن كثير، (2 : 271) .
3) السيرة النبوية ، لابن هشام،(1 : 134) .
4)نفس المرجع السابق ، (7) ، ص53.
5)السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسني الندوي، (ص :113)، ط 8، دار الشروق جدة – 1989م .

وفي تصوري لمفهوم حلف الفضول، ما هي إلا ثورة في وجه الظلم، وتدعيم للحقوق الإنسان التي رسخها الإسلام وأسس قواعدها، بقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }(النحل :90).

كما توافق التحالف والتعاهد على فعل الخير، ومن قبيل التعاون المأمور به في القرآن الكريم، قال تعالى:(وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ{2}. (المائدة : 2)(6).

6) السيرة النبوية ،علي الصلابي ،(1 : 61) ، دار المعرفة ط10 ، بيروت – 2010م.

أولا: محمد ﷺ، تاجراً وزوجا

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أرملة(1)، ذات شرف ومال ،تستأجر الرجال ليتجروا بمالها، فلما بلغها عن محمدﷺ، صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار، فقبل وسافر معه غلامها ميسرة، وقدما الشام، وباع محمد ***صلى الله عليه وسلم،*** سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد من السلع، فلما رجع إلى مكة وباعت خديجة ما أحضره لها تضاعف مالها(2).

وهنا ثبت لخديجة، صدق النبيﷺ، وأمانته وحسن خلقه، وبما نقله ميسرة في رحلته مع النبيﷺ، وبذلك رسمت لها الصورة الواضحة لزوجاً لم تجد مثله.

ولا يمكن أن تكون خديجة رضي الله عنها، قد عرضت الزواج على الرسول صلى الله عليه وسلم، بشكل مباشر، لأن هذا يتنافى مع طبيعة المرأة العربية في وضعية كوضعية خديجة رضي الله عنها، ولذلك أسندت هده المهمة إلى أحدى السيدات(3)، هي نفيسة بيت منية التي أحسنت القيام بمهمتها(4)، فتزوجها النبي ***صلى الله عليه وسلم،*** وكان عمره حينذاك خمساً وعشرين سنة، وكانت خديجة رضي الله عنها، تكبره بخمسة عشرة عاما طبقاً لأشهر الروايات(5).

1)السيرة النبوية ، علي الصلابي ، (1 : 62).
(2) رسالة الأنبياء ، عمر أحمد عمر ، (3: 27) دار الحكمة ط1 ، دمشق – 1997م.
(3) مرجع سابق ذكره (7)،(ص :55).
(4)الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ، (2 :25)، دار صادر.
(5) تاريخ الطبري ،أبو جعفر محمد بن جليل ،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (2: 280)،دار سويدان ، بيروت -1964م ، وزاد المعاد في خير هدي العباد ،أبو عبد الله أبن القيم ، (1 : 26)، حققه شعيب الأرناؤوط ، وآخر ، مؤسسة الرسالة ط1- 1399ه .

لقد ، كان زواج النبي ﷺ، معلما بارزاً في مسار حياته، فقد وجد فيها معاوناً على كل مصاعب الحياة، وأغدقت عليه هذه الزوجة المخلصة من حبها ورعايتها ما عوضه عن مرارة اليتم الذي ذاقه صغيراًومما زاد في توثيق وشيجة الصلة الزوجية بين محمد ﷺ، وخديجة رضي الله عنها، أن الله رزقه منها كل أولاده إلا إبراهيم ،..فأما ابناه فقد ماتا قبل الإسلام، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه ﷺ(6)، و يقول الشيخ محمد الغزالي ***رحمه الله***: وخديجة مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم، أن أصحاب الرسالات يحملون قلوبا شديدة الحساسية، ويلقون غبناً بالغ من الواقع الذي يريدون تغيره، ويقاسون جهدا كبيرا في سبيل الخير الذي يريد فرضه، وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه، وكانت خديجة سباقه إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمد ﷺ، أثر كريم(7)، ونود الإشارة إلى أن الرسول ﷺ، اشتغل بالتجارة وقتا طويلاً ولكنه لا توجد أي دلالات على ثراءه، و هذا مقياس على أنه لم يتخذ التجارة طريقاً للغنى والثراء، بل كسب للعيش اليومي.

(6)تاريخ الطبري، (2 : 281) والبداية والنهاية ، لابن كثير ،توثيق عبد الرحمن اللاذقي ، وآخر ، (2 : 273)، دار المعرفة ط4 ، - 1998م .

(7)مرجع سابق ذكره ، (1) ، (1 : 63).

بناء الكعبة وحل الخلاف

لم ينقطع محمد ﷺ، عن قومه في أعمالهم الجماعية، إذا كانت تتعلق بالتعاون على خير يقومون به، فإذا كانوا على أمر جامع ذهب إليه، وشارك فيه ما وسعته المشاركة، فلا يرضى بباطل، أو لا يبشر بحق، بل كان دائماً مع الحق يستبشر به، وضد الباطل، ينغض رأسه به، من غير صخب، ولا شحناء، فما كانت الشحناء من شأنه، ولا المباغضة من خلقه، بل هو في كل أحوال الودود الحليم، وصاحب النفس الطيبة وكان يحضر دار الندوة إذا انعقدت، ويستمع إلى كبراء العرب، فما يرضيه من قول الحق يستشرف إليه، ويستشرف به، وما لا يكون حقاً، يبدو نفوره منه، ولا يرضيه(1).

لما بلغ ***محمد*** ﷺ، خمسا وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة، لما أصابها من حريق وسيل جارف صدع جدرانها، وكانت لا تزال كما بناها إبراهيم ***عليه السلام*** رضماً(2)، فوق القامة فأرادوا هدمها ليرفعوها ويسقفوها، ولكنهم هابوا هدمها ، وخافوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليه وهو يقول: اللهم لم نزع، ولا نريد إلا خير.

وهدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئا، ورددناها كما كانت، وأن لم يصبه شيئا فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد غادياً يهدم، وهدم الناس معه حتى انتهوا إلى حجارة خضر كالأسمنة(3)، آخذ بعضها ببعض(4).
وتم بنا البيت، ولم يختلفوا فى شيء عند إقامته، لأن كل قسم منه اختصت به بطن من بطون قريش ولكن أمراً لا يقبل القسمة اختلفوا فيه، وهو الحجر الأسود، اختلفوا فيمن الذي يضمه في موضعه من هذه البنية، تجادلوا فيمن يضعه ، وتخالفوا، وكان الخلاف شديداً وكادت الدماء تسيل، ومكثت قريش على تلك الحال التي تأزمت حلقاتها أربع ليال سويا ، ولقد وقف أسن قريش يدعوهم إلى السلام وإنهاء الخصام، فقال:" يا معشر قريش اجعلوا بينكم في وعلموا أنه توفيق الله تعالى عندما ظهر أول داخل، فإذا هو محمد بن عبدالله ﷺ، فقال كبيرهم: هذا الأمين رضينا به حكما "وكان محمد ﷺ، يسمى الأمين، وقد اختص بهذا الاسم، بحيث إذا أطلق لا ينصرف إلا إليه ﷺ، وكلما مضى في عمره الكريم زادوا استيثاقاً من أمانته وصدقه وحكمته وعدالته، لذلك طابت نفوسهم جميعاً عندما علموا أنه ما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا الباب يقضي بينكم: فارتضوا ذلك.

1)خاتم النبيين ، محمد أبو زهرة ، ص (1 : 181) دار الفكر ، بيروت ، ط1 – 1972م.
2)الرضم : حجارة منضودة بعضها علي بعض من غير طين .
3)الأسنمة : جمع سنام وهو أعلي ظهر البعير .
4)السيرة النبوية ، علي الصلابي ،(1 : 64 ، 65).

سيكون الحكم بينهم، وانتهى إليهم وأخبروه الخبر، فطابت نفسه وقرت عينه، إذ قرت به القلوب المضطربة وقال: هلم إلي ثوباً فأتي به، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده، ثم قال: "لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعا ففعلوا، حتى إذا بلغوا موضعه، وضعه بيده، ثم بنى عليه"(5)، هذه ثقافة بالغة المعاني، في تجسيد روح الوفاق بين الإخوة وأبناء العمومة، بعد أن كان يحتدم القتال، وتقطع الأوصال ،ويحدث ما لا يحمد عقباه، وهكذا كانت النفحات الربانية المباركة، للرسولﷺ، تظهر تباشيرها، ببزوغ بوادر النبوة وإرهاصاتها.

5) مرجع سابق ذكره ، (1).(ص 1: 201).

الفصل الثاني/ بعثة الرسول ﷺ وتطور الدعوة

المبحث الأول: البحث عن الحقيقة والاصطفاء

لم يقتنع محمد ﷺ، قط بأن الأصنام التي يعبدها قومه آلهة، فما عاقل سوى يصدق أن هذه الحجارة الصماء، قد خلقت هذا الكون بكل موجوداته، لذلك لم يتجه إليها مطلقاً، ولم ينغمس مع قومه، في الموبقات، والرذائل التي جرت عليهم المآسي، لذلك حرمها على نفسه، وأخذ بالجد على نفسه، أن يبحث عن الحقيقة.

ومن هنا بدأت الخطوة الأولى في غار حراء، باحثاً عن الحقيقة العظمي التي أوجدت كل الموجودات، فهو في وحدته يستلهم الطاقة الإيمانية؛ فيجد في نفسه خشوعاً وانقياداً لا يعرف مصدره.

وفي شهر رمضان من سنة "610 م"، وقد أصبح في الأربعين من عمره، حيث أحكمت رأيه السن، وأخلصت جوهره السنون، جاء جبريل عليه السلام، ليبلغه اصطفاء خالقه له، ليكون رسوله بالرسالة الخاتمة ...رسالة الإسلام .. وبدأ التكليف بنزول جبريل عليه السلام بجوهر الرسالة – القرآن الكريم(1).

وهكذا اصطفى الله تعالى رسوله للعالمين: أصلح إنسان، من أصلح بيت، ومن أصلح قبيلة، في انسب وقت، حيث تتركز الحاجة للرسالة، وأخذت مسيرة الحق والخير والعدل مسارها نحو غاية الوجود، لتنثر على ذلك العالم المأزوم، الصفاء والبهاء، والنقاء والإخاء، وتنقد ركب البشرية من الضلال والتيه والضياع(2).

(1)النبي المربي ، أحمد رجب الأسمر، (ص : 49) ،دار الفرقان للنشر والتوزيع ط1 ،عمان - الأردن ،– 2001م .
(2)نفس المرجع .

أولا: مقومات الاصطفاء

لقد أثار اصطفاء محمد ﷺ، من بين خلق الله جميعهم، أبيضهم وأسودهم، أحمرهم وأصفرهم، عربهم وعجمهم، لحمل رسالته الخاتمة إلى العالمين، موجة عارمة من الاستنكار والاحتجاج، بل والدهشة والاستغراب.

كم من مولود ولد على وجه الأرض في تلك الليلة التي ولد فيها النبي ﷺ؟

إذا لا يحصيهم إلا الله، فلماذا أصطفى محمد ﷺ، من هؤلاء جميعاً؟.

لم يسلم الروم ولا الفرس بأن يبعث الله رسوله، من أقل واضعف أمة في ذلك الزمن ، مع أنهم كانوا، يزخرون بأعظم إمبراطورتين، على وجه الساحة حين ذاك، وما لديهم من كم هائل من العلماء، بل حتى العرب أنفسهم، لم يسلموا بمبعث محمد ﷺ، وخاصاً قريش، التي استعظمت الأمر، واستنكرته، فقال العرب: بقوله تعالى:(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ{31}).(الزخرف :31).

يقصدون بالقريتين مكة والطائف، ولقد كان رسول ﷺ، من ذؤابة بني هاشم، وهم في العيلة من العرب، كما كان شخصه – ﷺ – معروفا بسمو الخلق في بيئته قبل بعثته، ولكنه لم يكن زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، في بيئة تعتز بمثل هذه القيم القبلية(1).

وقال الوليد بن المغيرة للنبي: " لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك، فأنا أكبر منك سناً وأكثر منك مالاً(2) "

وقال عمرو بن هشام – أبو جهل – (زاحمنا بني عبد مناف في الشرف، حتى صرنا كفرس رهان، قالوا: منا نبي يوحى إليه، فمتى نبلغ ذلك ؟ لا والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبداً، إلا أن يأتينا الوحي كما يأتيه (3)).

(1)في ظلال القرآن ، سيد قطب ، (5 : 3186) ، دار الشروق، ط التاسعة والثلاثون ،مصر – القاهرة ، 2011م .
(2)فقه السيرة ، محمد الغزالي ،(ص : 91) ، مطابع علي بن علي ، ط 1 .
(3)البداية والنهاية ، لابن كثير ، (3 : 62).

وتعلل، آخرون، بأنهم أقدر منه على القراءة والكتابة، وهم لديهم كثيراً من المال والأولاد، وأنهم لم يمتهنوا حرفة الرعي، وكثير من الأسباب في معتقداتهم، التي تجعلهم أقرب للنبوة، وتاه القوم وضلوا ضلالاً بعيداً في تعليل مقومات الاصطفاء، وكأن الله –سبحانه –إذا أراد إرسال رسول يجب أن يستشيرهم ويأخذ بآرائهم، أن اصطفا الرسول ﷺ هو – ابتداء وانتهاء من اختصاص المرسل – سبحانه- وهو صاحب العلم المطلق المحيط الذي يعلم حق اليقين من يستطيع حمل رسالته من مئات الألوف أو الملايين الذين ولدوا تلك الليلة وهو سبحانه – القائل (4):(....اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ.. 124)(الأنعام: 124).

ومن مقومات الاصطفاء نستعرض بعض المقومات، سواء سلباً في اعتقاد البعض كالفقر والأمية والرعي..، أو إيجاباً كالخلق الكريم والفصاحة والنسب ... .في هذا المبحث.

أولا: الخلق الكريم

كان اصطفاء النبي ﷺ، من عظمة أخلاقه، وكرم نبله، وصفاء سريرته، وقد وصفه الخالق عزوجل بقوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ{4}(القلم: 4).

هذا الخلق العظيم خبره أهل مكة تماماً، فقد عاش محمد فيهم طفلاً ويافعاً وشاباً وكهلاً ، - قبل البعثة – ولقبوه : الصادق الأمين، والصدق والأمانة ذروة سنام الأخلاق، وما أحد من أعدائه – قبل أصدقائه – إلا ويعترف له بصدق القول، وكرم العهد، وثقة الذمة وعظم الأمانة، ورجاحة العقل، وطلاقة الحلم، ومضاء العزم ولطف المعاشرة، فأصبح مثالا للأخلاق الكريمة الحميدة، والفضائل الرشيدة(5).

(4) النبي المربي ، أحمد رجب الأسمر ،(ص : 50)، دار الفرقان ، ط1 ، 2001م .
(5) نفس المرجع السابق،(4) ،(ص : 51).

وحسن الخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها، الإتيان بالأفعال الجميلة، وإنما كان خلقه ﷺ، عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، قال عليه الصلاة والسلام:(أن الله تعالى بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال) رواه الطبراني وفي رواية مالك رضي الله عنه في الموطأ(بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)(6).

ولما كان عقله عليه الصلاة والسلام، أوسع العقول، لا جرم اتسعت أخلاقه نفسه الكريمة اتساعاً لا يضيق عن شيء، فمن ذلك اتساع خلقه العظيم ﷺ، في الحلم والعفو مع القدرة وصبره على ما يكره وحسبك صبره وعفوه على قومه الذين نالوا منه، وقوله ﷺ: اللهم ما اغفر لقومي فأنهم لا يعلمون.

إنَّ المواقف العظيمة لا يصنعها إلا الرجال العظام؛ وأن العفو والصفح عند المقدرة لا يقدر عليه إلا من يفوض أمره إلى الله، يقول الله عز وجل: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ }(فصلت: 35).

وهو العفو عند المقدرة وهي صفة تحلى بها النبي ﷺ، عند دخوله مكة، ودخل الكعبة وكبر في نواحيها، ثم خرج إلى مقام إبراهيم عليه السلام، وصلى فيه ثم شرب من زمزم وجلس في المسجد والناس حوله والعيون شاخصة إليه ينتظرون ما هو فاعل بمشركي قريش الذين آذوه وأخرجوه من بلاده وقاتلوه؛ ولكن هنا تظهر مكارم الأخلاق التي يلزم أن يتعلم منها المسلم أن يكون رضاه وغضبه لله، ولا بهوى النفس فقال ﷺ: " اذهبوا فأنتم الطلقاء(7) " هذه، شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، وعظم أخلاقه، ونبل سلوكه، وكرم معاشرته؛ كانت احد العوامل الرئيسية في نجاح دعوته(8).

إنَّ الرسالة النبيلة لا ينهض بها إلا صاحب أخلاق جليلة، ليكون للناس أسوة، ويتخذون من أخلاقه قدوة، مما يمكن للقيم، ويرسخ الفضائل، ويرتقي بالمكرمات(9).

(6)الأنوار المحمدية من المواهب اللذانية، يوسف بن إسماعيل النبهاني ، تحقيق عبد الوارث محمد علي ، (ص : 143)، ط1 ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

(7)السيرة النبوية ،محمد الشعراوي،أعده عبد الرحيم محمدالشعراوي ، (ص: 363)، دار التوفيقية للتراث، القاهرة -2010م. .

(8)الرسول والوحي ، محمد سيد المسير ، (ص : 46)، دار ابن كثير ، ط1 ، 1987م .

ثانيا: النسب الشريف

تناولنا في المباحث السابقة، نسبه ﷺ، وهذا لا يمنع من أن نلقي الضوء على نسبه الشريف كأحد أسباب مقومات الاصطفاء، في هذا المبحث.

أشرف النسب والمنبت، لدى أمم الأرض جميعاً محل نضر واعتبار حسياً و معنوياً لا سيما في البيئة الصحراوية العربية، حيث الترابط القبلي أساس المجتمعات العربية.

وولادة الإنسان من أبوين شريفين ليس من كسبه، وإنما يتفاضل الناس فيما يكتسبون هم، لذلك فتقدير الشريف إنما يأتي من استثماره بيئة الشرف ليرتقي بذاته، وليس من مجرد وجوده فيها، وقد نجح محمد ﷺ وفشل أبو لهب وهو عمه(10).

إنَّ العرب لهم ثوابت لا يحيدون عنها ويفتخرون بها، فى التحلي بالكرم، والشجاعة ،والمرؤة بقول الحق، حتى وهم كارهون لذلك، لأن الأمر يتعلق بمنازل الشرف وأن لا يحط نفسه في مواطن الريبة ومزالق الدنايا.

لذلك أبى أبو سفيان أن يكذب على محمد ﷺ، برغم عدائه له، عندما سأله هرقل عنه، وقال: (إنني امرؤ شريف ، اخشي ان تؤثر عني كذبة بين العرب)، وانفق هاشم بن عبد مناف ماله لإطعام أهل مكة سنة جذب قائلا:(لا يشبع الشريف وقومه جياع) وحرم قيس بن عاصم الخمر على نفسه لأنه لطم ضيفه وهو سكران وقال: (ما هكذا تفعل الأشراف) .

(9)مرجع سابق ذكره ،(4)،(ض: 53).

(10)نفس المرجع ،(ص : 53).

ويقول ابن القرية عن قوم: (أنهم قوم أشراف سلمت جذورهم فعظمة فروعهم، أدبتهم الحكمة وأحكمتهم التجارب، فأحسنوا المقال وجودوا الفعال).

إنَّ اصطفاء الرسول ﷺ، من أشراف قومه، يدفع عنه كل مطعن، ويخلصه من ضغط الظروف القاهرة، فيحى حراً كريماً يملك قياد نفسه، ويتصرف وفق قناعته، وقد عرفت ذلك الأمم كلها، حتى أن هرقل الروم سئل أبا سفيان عن نسب الرسول ﷺ فقال: (انه من أوسطنا نسباً)، فقال هرقل: (هكذا يبعث الله الأنبياء)(11).

ثالثا اليتم:

لقد أنكروا أهل مكة أن يبعث الله نبياً مرسل إليهم، وهو يتيم، وفيهم من أبوايه حيان يحيطانه بالرعاية والتوجيه والأمان، ولعل من أعظم مقومات الاصطفاء، هو اصطفاء يتيم للرسالة، يتيم لم ير أباه، ولم ينعم طويلاً بحضانة أمه.

فهو اليتيم الذي كفله أكثر من شخص، وعاش فى أكثر من بيت وتعدد كافلوه؛ ما وجد فيه عيب وما ظهر منه نقص، وما عرف عنه مطعن، ولا أخد عليه مأخذ وإنما كان الطاهر النزيه، والصادق الأمين، والعفيف الزكي .. إنها كفالة الله .. وعناية المولى .. وتدبير الحكيم العلي العليم(12).

وفي حياة الأنبياء نرى، أصحاب الرسالات الكبرى نشؤوا في غير كفالة أب، وتباعدوا عن جو الأسرة الحانية، وذلك لحكمة بالغة: فإسماعيل عليه السلام القى به أبوه في واد غير ذي زرع.

(11)نفس المرجع ،(ص : 53 ، 54) .

(12)مرجع سابق ذكره ، (7).ص: 25. (13)نفس المرجع ،(ص: 26 ، 27) .

وفي قوله: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ }إبراهيم37.

ويوسف عليه السلام، ألقاه إخوته في الجب والتقطه بعض السيارة وبيع إلى عزيز إلى مصر، ثم دخل السجن ثم خرج منه على خزآئن الأرض واستخلصه الملك لنفسه، {وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَـذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ }يوسف19 .

وقوله تعالى: وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ{56} وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{57}(يوسف : 57).

وموسى عليه السلام، ألقت به أمه في اليم والتقطه آل فرعون وتربى في قصر فرعون، لبث فيه السنين الطوال ..قال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ }(القصص :7).

وعيسى أتت به مريم عليهما السلام، قومها دون أن يمسها بشر ودون أن يقوموا على أمر رعيته والد، (إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ{45} وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ{46}(آل عمران : 45 -46).

أنهم جميعا، كانوا أنبياء الله، وتحملوا رسالة الوحي الإلهي.

إنَّ حكمة الله بالغة تشد عقل الإنسان إلى آفاق عليا من التأمل، فالأسباب المادية التي تعارف الناس عليها ليست هي كل شيء وأن وراء كل ظاهرة في الطبيعة تدبيراً إلهياً محكماً وأن عقل الإنسان في إدراكه لقضايا الحياة قاصر عن الإحاطة والاستيعاب(13).

ومن هنا كان طبيعياً أن يصطفي الله تعالى هذا اليتيم لتبليغ رسالته، لتكون آيته ابهر للعيون، والصق بالعقول، وأنوط بالقلوب، ولاتتهم الرسالة بتأثير الأبوين، ويلتبس على الناس موضع القدوة، ومكمن الأسوة، و حتى لا يكون لخوف الأبوين وخشيتهما تأثيراً على مضاء عزم الابن وتقحمه الصعاب، ولذلك يقول ﷺ(أدبني ربي فأحسن تأديبي)، فكل أدب تحقق له، مصدر الهي ولا تأثير للجهد البشري فيه(14).

رابعا: الفقر

وفي بيئة مكة التي طغت عليها العامل المادي، بشكل أصبح للأغنياء السلطان التام واليد الطولي، على كل مقدرات العيش، وبما يملكون يستطيعون تسخير الفقراء وتطويعهم لخدمتهم بل حتى لعبوديتهم، فهم لا يشبعون بكثير، ولا يقنعون بكثير ،فالنظرية عندهم تقوم علي السيد والعبد، فهم مصابون بحمى الثراء التي كلما زادت؛ زاد الفارق وانقسم المجتمع، بين فقير معدم وغني مترف.

لذلك لا يصلح الأغنياء للنهوض بالأعباء الجليلة، سواء في الجاهلية الأولى أو الجاهلية الحديثة، لأن الأعباء تتطلب تضحية وإيثار وشجاعة وإقداماً وصبراً على الأذى ومكاره الطريق، وتحملاً للاضطهاد والابتلاء، واجتيازا للمشاق والشدائد، وهذا ما لا يتحمله الأغنياء، وحتى لو تميز الأغنياء بكل هذه المقومات فأنهم لا يصلحون لتبليغ الرسالة لأنهم لا يمثلون قدوة ولا يرسخون أسوة، حيث يأتي الانتكاس من غيرهم، فمعظم الناس يتبع الأغنياء جشعاً وطمعاً وجلباً للمنافع وليس عن إيمان عميق ووعي وثيق، ولذلك نجد في زمننا الحاضر من يؤمن على قول الغنى وهو يعلم انه كاذب، ومن يبرر انحرافه وفى الوقت نفسه يلعنه في أعماقه، وليس معني ذلك كراهية الغنى، ولكن يعنى الحذر من مزالقه(15).

وتتحقق الحكمة جلياً في اصطفاء الرسول فقيراً، حتى يتفرغ لتبليغ الرسالة، ويكون قريب إلى قلوب الناس، بمعايشة أوضاعهم، ومخاطبة عقولهم، وملامسة وجدانهم.

(14) مرجع سابق ذكره ، (5) ،(ص : 55)،والحديث مرفوع ،(رقم الحديث: 1) كتاب أدب الإملاء و الاستملاء، عبد الكريم بن محمد السمعاني، دار مكتبة الهلال، ط1 بيروت – 1989م.

(15)مرجع سابق ذكره ، (5)،(ص : 56).

فتتعمق المعتقدات بالمنطق والشريعة بالتطبيق، والإخلاص بالأسوة، والفضائل بالقدوة(16).

وهكذا لم يكن الرسول ﷺ، طالب جاه ولا صاحب ثروة، فقد عرض عليه؛ من الملك والثراء من رجالة مكة وزعمائها، فأب ورفض، وما تمكن في قلوب الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، من الإيمان الراسخ والعقيدة الصلبة، التي فتحت مشارق الأرض ومغاربها، وبما جادوا بأموالهم، وأنفسهم في سبيل الله وإعلاء كلمته ، لخير دليل على تسلحهم بعقيدة الإيمان؛ ودون النظر إلى متاع الدنيا وما فيها.

واصطفاء الرسول فقيراً، عاملاً أساسياً من عوامل نجاح الدعوة وانتشارها، يؤكد أن الغنى الحقيقي هو غنى النفس، وقد رفع غنى نفس الرسول ﷺ، مكانته فوق كل غني(17).

خامسا: رعي الغنم

يروى لنا الرسول صلى الله علي وسلم، فقال: " ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم، قالوا: حتى أنت يا رسول الله ؟ قال: نعم، كنت أرعاها على0 قراريط لأهل مكة "(18).

هذه الحياة الحرة الطليقة، تتيح لراعي الغنم– إذا توافرت له بحكم فطرته المميزات النفسية والعقلية المناسبة، تفوقاً عالياً في عديد من الأمور، منها الخبرة والحنكة ،وصبراً على الشدائد.

كما تتيح أمام ناظريه، عملية متكاملة، يشهد الاحتضار والاندثار، ثم يشهد عملية البزوغ والنماء، من الكمون والسكون، وعملية الاهتزاز والانطلاق، وعودة الحياة، لتبدأ دورة جديدة، وهذا ما يطلق عنان فكره في استيعاب حركة الموت والحياة(19).

(16) نفس المرجع ، (ص : 57) .

(17)نفس المرجع .

(18)رواه البخاري ، كتاب الحج ، أبواب المحصر وجزاء الصيد ،(رقم الحديث: 2113). (19) مرجع سابق ذكره، (9) (ص : 59.)

إنَّ المتتبع لآيات القرآن الكريم، يجد أن للغنم والرعي، دورا أساسياً، في حركة التاريخ للأنبياء.

فإسماعيل ترتبط قصة حياته بكبش انزله الله فداء له وتصديقاً لرؤيا أبيه، قال تعالى: (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ{103} وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ{104} قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{105} إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ{106} وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ{107} (الصافات:103- 107)).

وموسى عليه السلام، وهو في الواد المقدس، حال المفاجأة الكبرى، جرى هذا الحوار: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى{17} قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى{18}.(طه :17-18).

وداود عليه السلام، تسور عليه الخصمان مكان عبادته ليحكم بينهما في شركة: فحكم داود عليه السلام، وعدل وبين عبرة الحياة: (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ{23} قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ.... {24}) (ص: 23- 24).

وأشار القرآن إلى قصة نزاع بسب الغنم تحاكم فيها أصحابها إلى دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عليهم السلام، (وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ{78} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً.. {79}) الأنبياء: 78- 79).

لقد كان للرعي دور أساسي في التاريخ الإنساني، ولا زال للأنعام ارتباطها الوثيق بحياة الإنسان، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ما هم إلا بشر يعيشون مجتمعهم بكل معالمه الإنسانية، ولعل في رعى الغنم توطئة لرعي الخلق وسياستهم(20).

(20)مرجع سابق ذكره ،(11) ، (ص:30- 33).

سادسا: الأمية

فلأمية بالمصطلح المتعارف عليه عموماً– خال من أي مخزونات علمية، وفكرية بما مشتملة على معرفة القراءة والكتابة، والنبي ﷺ، أمي لا يعرف القراءة والكتابة ،يقول الحق تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ....)(الأعراف :157).

ومن هنا تكون، أمانة التبليغ ونزاهته تقتضي توصيله للناس كما هو، والأمي– حتما – اقدر على ذلك، مما يجعل الرسالة بعيدة عن أي شك أو ريبة أو اتهام، ومن ثم أجدر بالثقة والتصديق.

والأمية لا تحد من قدرات الرسول على البلاغ، وإنما تعززها، على أن يكون واضحاً أن الأمية ميزة للرسول فقط، وليست ميزة عامة، ذلك لتكون المعجزة أعمق، والبلاغة أوثق، والتبليغ أصدق، أما غير الرسول فلا بد من أن يتعامل مع الأسباب، التي تؤكد على أهمية العلم والمعرفة ووسيلتاهما، القراءة والكتابة في كل منحى من مناحي الحياة(21).

سابعا: البلاغة والفصاحة

البلاغة والفصاحة من أهم مميزات الرسل، لأن مهمتهم تقتضي التبليغ، لما وكل به ، والبلاغة تتطلب فصاحة وقوة بيان، وحجة دامغة بحسن الكلام، الذي يبنى على أدلة ومنطق تقود إلى سلامة الكلام وبيانه، يقول الحق: {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ }المائدة92.

إذا الفصاحة والبلاغة شيئان أساسيان للرسل، كما يتضح من خلال رسالة موسى عليه السلام، عندما طلب الذهاب إلى فرعون.

بقوله عزوجل: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{24} قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي{25} وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي{26} وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي{27} يَفْقَهُوا قَوْلِي{28} وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي{29} هَارُونَ أَخِي{30} اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي{31} وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي{32})طه : 24 – 32)

(21) مرجع سابق ذكره ، (13) ، ص : 58 .

والقول هنا بطلبه: (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي)لما أصابه من اللثغ، بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ }(الزخرف52).

أي: يفصح بالكلام، وقال الحسن البصري: (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي)قال حل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطى(22).

ومجمل القول في رأي عندما دعى موسي عليه السلام ربه: (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي)، إي أن لسانه هو الكلام الغير مدرب عليه في المحاورة؛ وتقودنا سياق الآية بقوله: (يَفْقَهُوا قَوْلِي)، والواضح أنه يطلب تفقه في الدين، والتفقه هو العلم الغزير وهذا يؤكده النبي ﷺ، في دعوته لعمه العباس رضي الله عنه فقَالَ اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ، (*) " والتأويل في قولنا هو التفسير؛ الذي يبدأ بالمحاورة ثم الإقناع، الذي يتطلب الدليل من جهة السؤال أو التوضيح فما يخص الأحكام و المسائل الفقهية، أما من جهة الإقناع والمحاورة في التبليغ؛ يتطلب الفصاحة والبلاغة وحسن البيان، وهذا يتضح في محاورة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }(البقرة :258).

ومن ثم عرف إبراهيم عليه السلام، أسلوب المحاورة، لأنه يملك المواهب اللدنية؛ وهو رسول موهوب، وهناك تعقيب من السيد قطب "رحمه الله": (الرسالات تخاطب فطرة الكائن البشري في أية مرحلة من مراحل نموه العقلي والثقافي والاجتماعي، لتأخذ بيده من الموضع الذي هو فيه، ومن ثم كان التحدي الذي يخاطب الفطرة كما يتحدث بلسان الواقع الذي لا يقبل الجدل(23).

والبيئة التي عاش فيها الرسول ﷺ، بيئة تشتهر بالفصاحة وقوة البيان، فقد حاز ذلك كله، منذ طفولته، فقد ولد من بني هاشم من قريش، واسترضع في بني سعد، فهم أفصح العرب وأقواهم في البلاغة، وأعذبهم لغة، ويعتز الرسول ﷺ، فيقول: (أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر).

(22) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، (5: 282)،دار طيبة- السعودية ، ط الثانية ، 1999م .(*)رواه أحمد بن حنبل ،وهو حديث مرفوع ،(رقم الحديث: 1379).

(23)مرجع سابق ذكره (1)، 1 : 298.

ويقول عمرو بن بحر الجاحظ، المتوفي "255ه"، عن فصاحته ﷺ، هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، جل عن الصنعة، وتنزه عن التكلف،..هو الغريب الوحشي، وتنزه عن الهجين السوقي ..لم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بما حف بالعصمة...لم يسمع الناس بكلام أعم منه نفعاً أو أصدق لفظاً، أو أعدل معنى، أو أجمل مذهباً، أو أكرم مطلباً، أو أحسن موقعاً، أو أسهل مخرجاً، أو أفصح في معناه، أو أبين في فحواه، من كلامه ﷺ(24).

(24) نقلاعن، مرجع سابق ذكره ، (9)، (ص : 62).

المبحث الثاني: مبعث النبي صلي الله عليه وسلم

الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر له على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤذوا ذلك إلى كل من أمن بهم وصدقهم، فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه، يقول الله تعالى لمحمد ﷺ قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ{81})آل عمران:81)، بعد ذلك يصور حقيقة الترابط بين موكب الرسل و الرسالات، على عهد من الله وميثاق، ينبني عليه فسوق من يتولى عن إتباع أخر الرسالات، وشذوذه عن عهد الله وناموس الكون كله على الإطلاق، لقد أخذ الله - سبحانه – موثقا رهيباً جليلاً كان هو شاهده واشهد عليه رسله، موثقاً على كل نبي و رسول عليهم أفضل الصلاة والسلام، أنه مهما آتاه من كتاب وحكمة، ثم جاء الرسل من بعده مصدقاً لما معه، أن يؤمن به وينصره ، ويتبع دينه، وجعل هذا عهدا بينه وبين كل الرسل والأنبياء عليهم السلام.

والتعبير القرآني يطوي الأزمنة المتتابعة بين الرسل؛ ويجمعهم كلهم في مشهد، والله الجليل الكبير يخاطبهم جملة: هل أقروا هذا الميثاق وأخذوا عليه عهد الله الثقيل:

" قال: أأقررتم وأخذتم علي ذلكم إصرى ؟"..

وهم يجيبون: "قالوا أقررنا "..فيشهد الجليل على هذا الميثاق ويشهدهم عليه:

" قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين "(آلعمران81).

هذا المشهد الهائل الجليل، يرسمه التعبير، فيجف له القلب ويجب؛ وهو يتمثل المشهد بحضرة البارئ الجليل، والرسل مجتمعين ..(1)، وبينما كانت البشرية تعيش في دياجير الظلمات الحالكة، وتعاني من أنماط الحياة المهلكة، حيث خيم عليها الطغيان البشري الضاغط والجهل العالمي الجاثم، والاستسلام للشهوات المنحرفة من غير رادع ولا زاجر، إذا بشعاع النور الإلهي يهبط فجأة من السماء لينير جنبات الأرض(2)، و **كان النبي** ﷺ، قد بلغ الأربعين من عمره، وكان يخلو في غار حراء، ويتأمل و يتفكر في هذا الكون وخالقه، وكان تعبده في الغار يأخذ أيام وليالي طوال، حتى إذا نفد الزاد عاد إلى بيته فتزود لليال أخري(3)،

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:(.....وحبب إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو)(4).

(1)في ظلال القرآن ، سيد قطب ، (1 : 430) ،دار الشروق ط 39 ، القاهرة – 2011م .

(2)التاريخ الإسلامي مواقف وعبر ، عبدا لعزيز بن عبدالله الحميدي ، (1 : 57)، دار الدعوة الإسكندرية ط1 مصر – 1997م. .

(3)صحيح السيرة النبوية ، إبراهيم العلي، (ص : 67)، دار النفائس ط3 – 1998م.

(4) رواه الترمذي ، كتاب الدعوات ، (رقم الحديث : 3595) وقال : حديث مرفوع .

ومن أيام شهر رمضان المبارك نزل الوحي، وعن عائشة رضي الله عنها – قالت: "أول ما بدئ به رسول الله عليه الصلاة و السلام، من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا الأحاديث مثل فلق الصبح(*)، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو يتعبد – الليالي ذوات العدد، قبل ان ينزع إلى أهله، ويتزود إلى ذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاء الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني وغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارى، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما إنا بقارى، فأخذني فغطني الثالثة، ثم قال: " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ..."(العلق : 1-5)، فرجع بها الرسول الله – ﷺ – ترجف بوادره، حتى دخل علي خديجة، فقال " زملوني زملوني "فزملوه حتي ذهب عنه الروع ، فقال يا خديجة مالي ؟ واخبرها الخبر، وقال: " قد خشيت علي نفسي " فقالت له: كلا، أبشر فو الله لا يخزيك الله أبداً، انك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على النوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوافل بن أسد بن عبد العزي بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان أمر قد تنصر في الجاهلية كان يكتب الكتاب العربي، وكتب العبرانية من الإنجيل- ما شاء الله ان يكتب – وكان شيخا كبيرا قد عمى، فقالت خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخي، ما ترى؟ فأخبره _ ﷺ –بما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس(5)، الذي أنزل على موسى .ليتني فيها جذع(6)، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - :" أو مخرجي هم ؟"فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وأن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه يعلمه، ثم لم ينشب ورقة إن توفي ...(7)".

(*)مرجع سابق ذكره (4).

(5): هو جبريل عليه السلام .

(6)جذع : شاباً قوياً.

(7) أخرجه البيهقي في الدلائل، (2 : 146 ، 149) ، تحقيق عبد المعطي قلعجي ،دار الكتب العلمية ط 1،بيروت ، لبنان _ 1985م .

هذا الإخراج يصفه القرآن في قوله تعالى: (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ{13}) (محمد: 13).

وقوله تعالى :(.... وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ..) (البقرة :191).

{إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ... (9)) (الممتحنة : 9).

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ{30})الأنفال: 30).

وفي هذه اللحظة تتجلى الحقيقة، التي طالماً قراناه في كتب السيرة وكتب التفسير؛ وهي حقيقة تتجلى في دلالتها وعظيم أثرها في حياة البشرية جمعا.
حقيقة ان الله ﷻ، ..قد تكرم – في عليائه – فالتفت إلى هذه الخليقة المسماة الإنسان، القابعة في ركن من أركان الكون لا يكاد يرى اسمه الأرض، وكرم هذه الحقيقة باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي، ومستودع حكمته، ومهبط كلماته، وممثل قدره الذي يريده – سبحانه – بهذه الخليقة، وهذه حقيقة كبيرة ، كبيرة إلى غير حد، تتكشف جوانب من عظمتها حين يتصور الإنسان– قدر طاقته – حقيقة الألوهية المطلقة الأزلية الباقية، ويتصور في ظلها حقيقة العبودية المحدودة الحادثة الفانية، ثم يستشعر وقع هذه العناية الربانية بهذا المخلوق الإنساني؛ ويتذوق حلاوة هذا الشعور؛ ويتلقاه بالخشوع والشكر والفرح والابتهال(8).

(8)مرجع سابق ذكره (1) ، (6 : 3937) .

وعندما نستعرض فترة الوحي كان علينا أن نقف على كثير من المراحل التي مر بها الرسول ﷺ.

أولا: فتور الوحي :

قال ابن هشام: قال ابن إسحاق:

ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ، فترة حتى شق عليه ذلك فأحزنه، فجاءه جبريل بسورة الضحى، يقسم له ربه، وهو الذي أكرمه بما أكرمه به ما ودعه ربه وما قلاه(9).

فقال تعالى: (وَالضُّحَى{1} وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى{2} مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى{3} وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى{4} وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى{5})الضحى: 1- 5).

وهناك تعقيب من فضيلة العلامة؛ صبحي الصالح رحمه الله، في ذكر سورة الضحى بقوله: أنها نزلت، بعد فترة الوحي وهو خطأ ظاهر، أما نزول " الضحي " كما ورد في الصحيحين فهو أن النبي ﷺ، (اشتكي فلم يقم ليلتين أو ثلاثا لتهجده، فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث، فنزلت الضحى (10)، وهنا نؤكد على ما ذكره: عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: وهو يحدث أي بحديث النبي ﷺ- عن فترة الوحي: "" بينا أنا أمشي، إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني، فأنزل الله تعالى: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{1} قُمْ فَأَنذِرْ{2} وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ{3} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ{4} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ{5}}(المدثر: 1-5)فحمي الوحي وتتابع (11).

(9) السيرة النبوية في القرآن الكريم ، عبد الصبور مرزوق ، (ص : 60) ، مطبوعات رابطة العلم الإسلامي ، السنة الأولي 1401ه ، العدد : 6 .

(10)مباحث في علوم القرآن ، صبحي الصالح ،(ص : 37) ، دار الملايين للتأليف والترجمة والنشر ط 22 ، بيروت– 1999م.

(11)البخاري ، بدء الوحي، (رقم : 4).

واستبشر النبي ﷺ، وتبدل انتظاره الحزين فرحه غامرة، وأيقن أن هذا الوحي الذي استعصى عليه ولم يوافيه طوع إرادته مستقل عن ذاته خارج عن فكره، فاستقر في ضميره الواعي أن مصدر هذا الوحي هو الله علام الغيوب(12).

وأورد صفي الرحمن المباركفوري: أما مدة فترة الوحي فاختلفوا فيها على عدة أقوال، والصحيح أنها كانت أياماً، وقد روى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد ذلك، وأما ما أشتهر من أنها كانت دامت ثلاث سنين أو سنتين ونصفاً فليس بصحيح(13) .

ثانيا : تأخر الوحي

وأبطأ عن النبي ﷺ، شهرا كاملاً بعد "حديث آلافك(14) ، الذي رمى به المنافقون بنت الصديق بالفاحشة ، وأثاروا به حولها الفضيحة، حتى عصفت بقلب الرسول صلى الله عليه وسلم، الريبة فقال لزوجه: أم المؤمنين: يا عائشة، أما انه بلغني كذا وكذا، فان كنت بريئة فسيبرئك الله، وأن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله ؟ من ذا الذي لا يدرك أن هذا الشهر الذي تصرم على الحادثة من غير أن يتلقى النبي خلاله وحياً كان أثقل عليه من سنين طويلة(15) .

وهو في اشد الحاجة والشوق، إلى الوحي، بعد أن خاض المنافقون والمشككون في أم المؤمنين رضي الله عنها، خوضاً باطلاً.

فما بال النبي ﷺ، الذي كان فريسة للشك والقلق يضل شهراً كاملاً صامتاً ينتظر، واجماً يتربص، حتى نزلت آيات النور تبرئ أم المؤمنين رضي الله عنها قال تعالى :{إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ }النور:11).

(12)مرجع سابق ذكره (10) ، (ص : 37) .

(13)الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المبارك فوري ،(ص : 76).

(14)صحيح البخاري ، (6 : 101).نقلا المصدر السابق ذكره ، (10)،(ص : 37) .

(15) نفس المصدر .

وما له لا يسرع إلى التداخل في أمر السماء، فيرتدي مسوح الرهبان، ويهيئ الأسجاع، ويطلق البخور، ويبرئ الصديقة من قذف القاذفين(16).

وهذا يؤكد أن النبي ﷺ، لا يملك شيئاً من أمر السماء، وقد تكرر ذلك، في تحويل القبلة.

ولقد كان النبي ﷺ، يتحرق شوقاً إلى تحويل القبلة إلى الكعبة، وضل يقلب وجهه في السماء ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً(17). لعل الوحي ينزل في هذا التحويل قرآناً رغم تلهف رسوله الكريم ﷺ، إلا بعد قرابة عام ونصف العام، وحينئذ نزلت الآية الكريمة(18) : {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ }(البقرة :144).

أن القضية المتعلقة بتأخر نزول الوحي، على النبي ﷺ، لتفند جميع الشكوك والريبة التي تدعي وتروج؛ أن الوحي من أمر النبي ﷺ، فليس أولاء بالحسم والبث في ما تعسر عليه، وبذلك فإن الوحي من أمر الله وبأذنه عزوجل.

ومعني هذا أنه عليه السلام ، مهما أمره القرآن امتثله، ومهما نهاه عنه تركه(19).

(16) نفس المصدر .

(17)البخاري (6 : 21) ، كتاب التفسير ، نقلا عن نفس المصدر (14) .

(18) مرجع سابق ذكره ، (10) ، ص : 38) .

(19)شمائل الرسول ، ابن كثير ، شرح وتحقيق مصطفي عبد الواحد ، ص : 72 ، دار الرائد العربي ،ط الثانية 1987 م ، بيروت – لبنان .

المبحث الثالث: الدعوة سراً

بعد نزول آيات المدثر قام الرسول ﷺ، يدعو إلى الله، إلى الإسلام ..، وكان طبيعياً أن يبدأ بأهل بيته، أصدقائه، وأقرب الناس إليه(1)، ولمواصلة الدعوة وتثبيتها ، حيث لم يأمره الله عزوجل، بإعلان الدعوة والصدع بها(2)، فكيف سارت الدعوة في مراحلها الأولي وتطورت؟

كان على رسول الله ﷺ، الاستجابة للأمر الإلهي: {قُمْ فَأَنذِرْ }(المدثر :2)، والمقصود بالإنذار مطلق التبليغ، سواء أكان جهرا أم سرا، ولكن الحكمة كانت تقتضي إلا يجهر الرسول ﷺ، بدعوته على الملأ وهي ما زالت وليدة ناشئة لم تكتسب بعد أنصارا؛ ولهذا كان أسلوبه في تلك المرحلة أن يدعو من يثق فيه ويطمئن إليه من أهله و خلانه(3).

فكان أول من صدقه وآمن به واتبعه من خلق الله...زوجته خديجة رضي الله عنها(4).

فجميع ثقات المؤرخين بلا شك يؤكدون ذلك؛ فكانت، من استمع إلى الوحي الإلهي، من فم الرسول الكريم ﷺ، وكانت أول من تلا القرآن بعد أن سمعته من صوت الرسول العظيم ﷺ، وكانت كذلك أول من تعلم الصلاة من رسول الله ﷺ، فبيتها هو أول مكان تلى فيه أول وحي نزل به جبريل عليه السلام، على قلب المصطفي الكريم بعد غار حراء(5).

فكان، ...أول بيت تعهد بالنصرة ولم يتقاعس فيه فرد من أفراده كباراً أو صغارا– عن مساندة الدعوة(6).

وهكذا؛ كان للبيت النبوي مكانتها الأولى، والواجب يدعو إلى أن يكون قدوتنا و الأنموذج الذي نسير على هديه في المعاشرة، ومثالية السلوك بالصدق والتصديق، في الاستجابة والعمل لكل من آمن بالله ربا وبمحمد نبياً ورسولا(7).

(1)السيرة النبوية ، علي الصلابي ، (1 : 86).
(2)الغرباء الأولون ، سلمان العودة ، (1 : 117)، دار ابن الجوزي ط3 ، الدمام ، السعودية – 1999م.
(3)الرسول وتطور الدعوة الإسلامية،(ص : 54) ،عبد الرحمن احمد سالم .
(4)تاريخ الطبري ،أبو جعفر محمد بن جرير ،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،(2 : 307) دار سويدان ، بيروت – 1964م .
(5)المرأة في العهد النبوي ، عصمة الدين كركر ، (ص: 36) دار الغرب الإسلامي ط1 ، بيروت – 1999م .
(6)نفس المرجع (5)، (ص :43).
(7) نفس المرجع (5)،(ص : 46).

إما الترتيب الزمني للسابقين إلى الإسلام، فيذكر البعض أن علي بن أبي طالب رضي الله، أول من اسلم، وقيل ابوبكر، وقيل زيد بن الحارثة(7)، وعلى هذا الأساس تتفق المصادر أن جميع المقربين من النبي ﷺ، قد أعلنوا أيمانهم، وتثبت وقائع السيرة النبوية أن أول من آمن من الصبيان على أبن طالب، ومن الرجال أبوبكر الصديق رضي الله عنه، فهو من أخص أصحاب رسول ﷺ قبل البعثة، وفيه قال رسول الله صلى عليه وسلم: " ما دعوت أحد إلى الإسلام، إلا كانت عنده كبوة، وتردد ونظر، إلا أبا بكر، ما (عكم*) حين دعوته، ولا تردد فيه(8)، لقد كان بوبكر كنزاً من الكنوز، اذخره الله تعالى لنبيه ﷺ، وكان من أحب قريش لقريش، فذلك الخلق السمح الذي وهبه الله تعالى إياه جعله من الموطئين أكنافا، من الذين يألفون و يؤلفون، والخلق السمح وحده عنصر كاف لألفة القوم(9).

وهو الذي زاد، فقال فيه ﷺ: " أرحم أمتي بأمتي أبوبكر(10).

وهذا يؤكد؛ المكانة الأدبية و العلمية الرفيعة، التي يتمتع بها الصديق رضي الله عنه ، في مكة، فكان للرسول ﷺ، له النظرة الصائبة في تأييد دعوته بالدعاء للصديق رضي الله عنه، فالطبقة المثقفة ترتاد مجلس أبى بكر لتنهل منه علما لا تجده عند غيره غزارة ووفرة وسعة، ومن أجل هذا كان الشباب النابهون، والفتيان الأذكياء يرتادون مجلسه دائما، لأنهم الصفوة الفكرية المثقفة، التي تود أن تلقى عنده هذه العلوم، وهذا جانب آخر من جوانب عظمته(11).

وطبقة رجال الأعمال، ورجال المال في مكة، هي كذلك من رواد مجلس الصديق فهو لم يكن التاجر الأول في مكة، فهو من أشهر تجارها، فأرباب المصالح هم كذلك قصاده، ولطيبته وحسن خلقه، تلقى عوام الناس فيرتدون بيته، فهو المضياف الدمث الخلق، الذي يفرح بضيوفه، ويأنس بهم، فكل طبقات المجتمع المكي تجد حظها عند الصديق رضوان الله عليه(12).

ومن الأسس التي دعمت الدعوة، أن أسلموا بين يديه الرعيل الأول من هذه الأمة فكانوا الدعامات الأولى، التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العدة الأولى في تقوية جانب رسول الله ﷺ، وبهم أعزه الله وأيده فكانوا هم السياج الإسلام في سنيه الأولى واستمروا مصدر دعم وقوة للإسلام حتى لفظوا آخر أنفاسهم، وانضم إليهم عدد آخر من السابقين الأولين(13).

(7)أنساب الأشراف ، احمد بن يحي بن جابر ، تحقيق محمد حميد ، (1 : 122) ،دار المعارف – القاهرة ، 1987م

(8) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ،محمد أبو شهبة ،(1: 284) دار القلم ط3- 1996م.

(9) ،(ص: 89). نفس المرجع السابق (1)

(10)أورده الألباني في صحيح الجمع الصغير (رقمه ، 1 : 308) المكتب الإسلامي ط3 ، بيروت ، لبنان- 1988م .

(11) نفس المرجع السابق (1) ،(ص : 89).

(12) التربية القيادية ،منير الغضبان ، (1 : 115)، دار الوفاء ط1 ، - 1998م.

(13)مرجع سابق ذكره (3) ، ص: 55.

أن أصحاب الجاه لهم أثر الكبير في كسب أنصار الدعوة؛ ولهذا كان أثر أبى بكر رضي الله عنه، في الإسلام أكثر من غيره(14) .

وفي تلك المرحلة من تاريخ الدعوة كان الرسول صلى الله عليه وسلم، يلتقى بالمسلمين سراً في دار الأرقم بن أبي الأرقم(15)، كمقر للقيادة السرية، ومركزاً جديداً للدعوة، يتجمع فيه المسلمون، ويتلقون عن رسول الله ﷺ، كل جديد من الوحي، ويستمعون له ﷺ، وهو يذكرهم بالله، ويتلو عليهم القرآن، ويضعون بين يديه كل ما في نفوسهم وواقعهم فيربهم ﷺ على عينه كما تربى هو على عين الله ﷺ، وقد حرص الحبيب ﷺ، على توحيد مصدر التلقي وتفرده، وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج، والفكرة المركزية التي يتربى عليها الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والجماعة المسلمة، وكان روح القدس ينزل بالآيات غضة طرية على رسول الله ﷺ، فيسمعها الصحابة من فم رسول الله ﷺ، مباشرة، فتكسب في قلوبهم، وتتسرب في أرواحهم وتجري في عروقهم مجري الدم، وكانت قلوبهم وأرواحهم تتفاعل مع القرآن وتنفعل به، فيتحول الواحد منهم إلى إنسان جديد بقيمه ومشاعره، وأهدافه، وسلوكه وتطلعاته(16). والمنهج الذي تتربى عليه نفوس أصحابه، وألا يختلط تعليمهم بشيء من غير القرآن(17)، وفي دار الأرقم تعلموا أن القرآن وحده وتوجيهات الحبيب المصطفي ﷺ هما الدستور الأعلى للدعوة، والحياة، والدولة، والحضارة، كان القرآن الكريم المادة الدراسية الوحيدة التي تلقاها تلاميذ مدرسة الأرقم على يد المربي الأعظم محمد ﷺ، فهو المصدر الوحيد للتلقي، وعليه تربى الجيل الفريد من هذه الأمة العظيمة، فهو كتاب هذه الأمة الحي، ورائدها الناصح، وهو مدرستها التي تتلقي فيها دروس حياتها.

(14)الوحي و الرسالة ، يحي اليحيي، (ص : 225).
(15)(15) نفس المرجع (13).
(16)مرجع سابق ذكره (1)،(ص : 98).

(17) دولة الرسول من التكوين إلي التمكين ، كامل سلامة الدقس ، (ص : 225)، دار عمار ط1 ، الأردن ، عمان – 1994م .

لقد تلقى الرعيل الأول القرآن الكريم بجدية، ووعى، وحرص شديد على توجيهاته ،والعمل بها بدقة تامة، فكانوا يلتمسون من آياته ما يوجههم في كل شأن من شؤون حياتهم الواقعية، والمستقبلية(18).
ونشأ الرعيل على توجيهات القرآن الكريم، وجاءوا صورة عملية لهذه التوجيهات الربانية، فالقرآن كان هو المدرسة الإلهية، التي تخرج فيها الدعاة والقادة الربانيون ، ذلك الجبل الذي لم تعرف له البشرية مثيلاً، من قبل ومن بعد، لقد أنزل الله القرآن الكريم على قلب رسوله عليه السلام، لينشئ به أمة ويقيم به دولة(19).

" لقد أظهر محمد، عظمته الحقيقية في أنه لم يكن رجل عصر بعينه... بل رجل كل العصور... ..ولم يكن محمد حالماً ..بل عكف على ترسيخ أسس المجتمع الذي رسمه لنفسه ..كان رجل دولة لا نظير له !!فقد استطاع في عصر عمه التفسخ الذي لم يكن أمل في الشفاء منه ..وبالخامات البشرية التي وجدها بين يديه من حوارييه و أصحابه ..أن يبني دولة ومجتمعاً على أسس عالمية رائعة"(20).

هذا ما صرح به المستشرق " موير " وهي شهادة صادقة في كتابه " حياة محمد "

والسؤال الذي يطرح نفسه؛ ما الأسباب في اختيار دار الأرقم كمنطلق للدعوة السرية؟

وهو أن الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه، فما كان يخطر ببال أحد أن يتم لقاء محمد ﷺ، و أصحابه بداره، وهو من بني مخزوم، و قبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء الحرب ضد بني هاشم، ولن يخطر في البال أن يكون اللقاء في داره؛ لأن هذا يعني أنه يتم في قلب صفوف عدو، ومن الأسباب المؤيدة في اختيار دار الأرقم، كان فتى عند إسلامه؛ فلقد كان في حدود السادسة عشرة من عمره، ويوم أن تفكر قريش في البحث عن مركز التجمع على الأغلب في أحد بني هاشم، أو في بيت أبي بكر رضي الله عنه، أو غيره، ومن أجل هذا نجد أن اختيار هذا البيت كان غاية الحكمة من الناحية الأمنية، ولم نسمع أبدا أن قريشاً داهمت ذات يوم هذا المركز وكشفت المكان(21).

(18)مرجع سابق ذكره (1)،(ص : 99).
(19)مرجع سابق ذكره (17)، (ص : 335).
20)موسوعة هذا الرسول ، خالد محمد ،(ص : 38) ، دار الخير – دمشق ط10 – 2008م .

(21)المنهج الحركي ، منير الغضبان ،(1 : 49) مكتبة المنار ، الأردن ، ط3 –1990م .

ومع ذلك فإن السرية اقتضت صعوبة تحرك الداعية في دعوته، فهو لا يخاطب إلا من يأمن شره، ويثق به، وهذا يعني أن الدعوة تسير بخطوات بطيئة حذرة، كما اقتضت صعوبة المواظبة على تلقى مطالب الدعوة من مصدرها، وصعوبة تنفيذها، إذ كان الداخل في هذا الدين ملزماً منذ البداية بالصلاة، ودراسة ما تيسر من القرآن – مثلاً– ولم يكن يستطيع أن يصلي بين ظهراني قومه، ولا أن يقرأ القرآن

فكان المسلمون يختفون في الشعاب والأودية إذا أرادوا الصلاة ويقول ابن إسحاق:" وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ، كان إذا حضر الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب، مستخفياً، من أبيه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها ...(22))، ولذلك كشف الله تعالى عن حقيقة هذه الدعوة وميدانها منذ خطوتها الأولى، فحين الدعوة محصورة بين شعاب مكة وجباله، تعاني آلام البداية والغربة – وهي آلام تذيب الفؤاد – كان ينزل ببيان شمول الدعوة وعالميتها :(إِنْ هُو إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} (الأنعام: 90) .

و الذكر- أو الذكري – يقصد به مخاطبة هؤلاء الناس بالدعوة وتوجيها إليهم، والإبانة عن مضمونها بينهم، بحيث يتمكنون من معرفتها على حقيقتها، ثم يقبلونها أو يردونها عن علم وإدراك(23)، ولذلك جاءت آيات أخر تخص الذكر والذكرى للمؤمنين أو للعابدين أو للمتقين أو لأصحاب القلوب ...، إذ ان هؤلاء هم الذين ذكروا، فتذكروا، ووعظوا، ودعوا فامنوا، والدعوة جاءت لهذا وذاك ..جاءت لتخاطب البشر – كل البشر – ولتنقد منهم من سبقت له من الله الحسنى؛ وهذا يعني – بداهة – أن الدعوة جاءت ومن خصائصها: الإعلان، والصدع، والبلاغ، والبيان، والإنذار، وتحمل ما يترتب على هذا من التكذيب، والإيذاء، والقتل وغيره، وإذا ظهرت هذه السمة والخُصيصة – قضية عامة أصلية – دون خفاء وأن استسرار النبي ﷺ، في دعوته أول الأمر، إنما هو حال استثنائي، لظروف وملابسات خاصة، هي بداية ظروف الدعوة ...، وينبغي أن يفهم ضمن هذا الإطار(24).

(22)سيرة النبوية ، ابن هشام ،(1 : 263)، دار الفجر للتراث ، القاهرة ن ط2 – 2004م.

(23)الغرباء الأولون ، سلمان العودة ، (1 : 124)، دار ابن الجوزي ، الذمام السعودية، ط3 – 1990م .

(24) نفس المرجع ، (1:125).

المبحث الرابع /أمية النبي محمد ﷺ وحفظه للقرآن الكريم.

أولا: أميته

إن أمر الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ، على سبيل الإيجاد، يختلف عن أمره على سبيل التكليف، من ذلك أنه سبحانه تعالى، قال لأدم: (كن)، على سبيل الخلق و الإيجاد فكان، لكنه قال للبشر: (فأمنوا بالله ورسله) على سبيل التكليف، لا الإجبار، فمنهم من أمن، ومنهم من كفر، وإن أمر الله لنبيه ﷺ بالقراءة تكليف، ومن هنا بدأت البعثة وولدت الدعوة، ولو أن الله تعالى قال للنبي ﷺ،(كن قارئا) على سبيل الخلق والإيجاد لصار قارئاً، إننا بدقة التمعن، بسياق القرآن في قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}(العلق:1)، ولم يقل في سورة العلق: (اقرأ اسم ربك) ؛ فهذه الباء الدقيقة اللطيفة حلت الإشكال و أفهمتنا، أن المراد ليس قراءة أحرف وكلمات ، ولكن قراءة شيء ما مستعيناً باسم ربك ، فبما أن الله وصف نفسه بالذي خلق وأعقب ذلك بذكر المعجزة العلمية {خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ }(العلق:2).

فالمراد هنا قراءة الكون والتفكر فيه، باسم الله، ملاحظاً أنه هو الخالق(1).

فالمعنى أبعد مما يتبادر إلى الذهن، فإن من مزايا كتاب الله أنه يقرأ تتبعاً بالنظر أو حفظاً بالقلب، وكفاناً مدخلاً للمقصود الأمية ودلائلها أن نقول: أن الله سبحانه وتعالي: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ }(الزخرف:31).

فأجابهم الله عز وجل : {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ....} (الزخرف:32).

فالله تعالى، حكمته لا تقتضي فعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وهو خبير بخلقه، وإن اختياره له ﷺ إنما في أميته ليكون صفحة بيضاء نقية خالصة لما سينزله على قلبه من الوحي والعلوم التي كانت بعد ذلك سبباً في بزوغ الحضارة الإسلامية التي أشرقت علي الإنسانية.

(1)الأساس في التفسير، سورة العلق.

ولما كان هذا الجانب مؤثر في حياته ﷺ، وفي صدق رسالته آثرت أن أفرد له بأهمية هذا العرض، للوقوف عند مضامينه.

الأمية لغة :-

الأمي: نسبة إلى الأم، أو الأمة، أي الأمية؛ ومن لا يقرأ ولا يكتب (2).

والأمي من لا يعرف القراءة ولا الكتابة، أي الأمية: جهل القراءة والكتابة، وهي الأمومة(3).

ومادة أمم: قيل للعرب الأميون؛ لأن القراءة كانت فيهم عزيزة، أو عديمة (4).

وفي معجم المصطلحات الإسلامية، الأمي في كلام العرب الذي لا يحسن الكتابة، فقيل نسبة إلى الأم؛ لأن الكتابة مكتسبة، فهو على ما ولدته أمه من الجهل بالكتابة، وقيل نسبة إلى أمة العرب؛ لأنه كان أكثرهم أميين(5).

الأمية اصطلاحاً :-

وردت كلمة "الأمية" في الآيات التالية:-

قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ }(البقرة :78).

فمن اليهود طائفة من الجهلة العوام الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، ليطلعوا على ما في التوراة بأنفسهم، ويتحققوا بما فيها(إلا أماني) أي: إلا ما هم عليه من الأماني التي مناهم بها أحبارهم من الله يعفو عنهم، ويرحمهم، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، وإباءهم يشفعون لهم، وأنهم أبناء الله و أحباؤه إلى غير ما هنالك من الأماني الواهية(5).

والأمي: هو الذي لا يحسن القراءة والكتابة، والمراد بالكتاب هنا: التوراة، والأماني: جمع أمنية، وهي التمني الذي لا يرافقه عمل، وقد تأتي بمعني الكذب، أم بمعنى التلاوة غير المتعمقة، والأرجح أن المراد بها ها هنا الأول، فمعني الآية: ومن اليهود من لا يحسن القراءة ولا الكتابة، فهم لا يطالعون التوراة، فيتحققون

(2)المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، إبراهيم مصطفي و آخرون ، (ج :1).

(3)الرائد ، جبران مسعود ، دار العلم للملايين ، لبنان – بيروت ، ط8 ، 2001م .

(4)لسان العرب ، الإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، دار صادر –بيروت .

(5)معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير ، رجب عبد الجواد إبراهيم ، دار الأفاق العربية ، ط1، 2001م .

بما فيه، فهم لا يعرفون إلا ما هم عليه من أماني من أن الله يحبهم، ويعفوا عنهم ويرحمهم علي ما هم عليه كائناً ما كان، وما هم في هذا إلا ظانين لا يستندون فيما هم عليه على يقين(6)، ولو كانت الأمية مصطلحاً خاصاً بالعرب، لما وصف الله به اليهود، وواضح من الآيات، أن الله يعيب في اليهود جهلهم بالقراءة والكتابة، فقد يقول قائل: هو هنا يشبهم بالغرب، ولكن الجواب في تفسير الآية: أن الأمية لدى اليهود: بأنهم لا يعلمون الكتاب إلا أماني وهذا لا ينطبق على العرب، حتى نقول أنه تشبيه بهم، بل هو خاص باليهود. .

وقال تعالى: {فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ }(آل عمران :20).

أي: قل لليهود والنصارى والوثنيين من العرب(7).

وقال تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }(آل عمران:75).

أي: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين وهم العرب، فإن الله قد أحلها لنا(8).

وقال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ..... }(الأعراف :157).
وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }(الأعراف :158).
والمعنى بالنبي الأمي: النبي العربي، أي الذي لا يقرأ ولا يكتب ولم يمارس القراءة والكتابة ، ولم يجلس إلى معلم، فهو عليه الصلاة و السلام باقٍ على الحالة التي ولد عليها، وذلك من أعظم أدلة نبوته ، أدلة رسالته، أن يكون من لا يقرأ ولا يكتب، هو صاحب هذه الرسالة الجديدة، وما فيها من الهدى والإعجاز(9).

(6) الأساس في التفسير ، سعيد حوي ، (1: 168)، دار السلام ، 1985م .

(7) صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ،(1 : 71) ،ط6 ، دار القران الكريم ،بيروت -1985م . (8)تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، تحقيق سامي بن محمد السلامة ، دار طيبة ، ط 2 – 1992م .

(9)مرجع سابق ذكره (7)، (1 : 192).

وصفوة القول: أنه عندما يخاطب الله سبحانه تعالى، موسى وبني إسرائيل، بأنه سيبعث نبياً أمياً؛ فلابد أنه يخاطبهم بمصطلحهم ، ليفهموا أنه نبي من الأميين الأخيار وتأكيد ذلك عل أنه أمي في آيتين متتاليتين، وهنا تكن دقة الإعجاز القرآني ، ومقصد الألفاظ بمعنى وضع الأساس للمستقبل في امتحان بني إسرائيل ، بإتباع وحي الله، سواء نزل على رسول منهم أو من غيرهم.

وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }(الجمعة :2).

أي: هو جل وعلا برحمته وحكمته الذي بعث في العرب رسولاً من جملتهم ،أميًّا مثلهم لا يقرأ ولا يكتب ، وقد سمى العرب أميين ؛ لأنهم لا يقرأون ولا يكتبون، فقد اشتهرت فيهم الأمية كما قال ﷺ: (نحن أمة لا نقرأ ولا نحسب)(10).

والحكمة في اقتصاره على ذكر الأميين، مع أنه رسول إلى كافة الخلق تشريف العرب، حيث أضيفت صلوات الله عليه إليهم، وكفى بذلك شرفاً للعرب(11) .

يقول الجاحظ: (إن الهند لهم معانٍ مدونة وكتب مجلدة لا تضاف إلى رجل معروف، ولا إلى عالم موصوف، إنما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة، ولليونان فلسفة ومنطق، ولكن صاحب المنطق نفسه يكيء اللسان ولا موصوف بالبيان، وفي الفرس خطباء، إلا إن كلام الفرس وكل معنى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة، وعن اجتهاد وخلوة، وكل شيء للعرب، فإنما هو بديهه وارتجال وكأنه إلهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إحالة فكر ولا استعانة، وإنما هوان يصرف وهمه إلى الكلام فتأتيه المعاني إرسالاً وتناثل عليه انثيالاً وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهروا أكثر، وهم عليه أقدر وأقهر، وليس هم كمن حفظ على غيره واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب(12).
ثم نقل أحمد أمين عن أبن خلدون: (وهم أبعد الناس عن العلوم؛ لأن العلوم ذات ملكات محتاجة إلى التعليم، فاندرجت في جلمة صنائع العرب، أبعد الناس عنها، فصارت العلوم لذلك حضرية، وبعد العرب عنها وعن سوقها، والحضر لذلك العهد هم العجم أو من في معناهم من الموالي، ولذلك كان جملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم أو المستعجمون باللغة والمربي ، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم (13).

(10) رواه البخاري ،(رقم : 1814)،صحيح مسلم، (رقم :1080)،

(11)مرجع سابق ذكر (7) ، (1 : 475). (12) فجر الإسلام ، أحمد أمين ، (1 : 36) ، مطبعة الاعتماد ، 1928م
(13)مرجع سابق ذكره (12) ، (ص: 378).

قال تعالى: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ }{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ }(العنكبوت49:48).

أي: لقد لبثت في قومك يا محمد، ومن قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ }(الأعراف:157).

وهكذا كان عليه الصلاة السلام، دائماً وأبداً إلى يوم القيامة لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده؛ بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم(14)، وصفوة القول: أن قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ }(الأعراف :157).

يتجلى معنى لفظ الأمي في القرآن، نسبته إلى الأم، ونسبة للأمة عامة، ونسبة لأمة العرب، ونسبة لام القري، ونسبة لأم الكتاب، وأن أقرب هذه المعاني، النسبة إلى الأمم، وذلك أن النسبة للجميع ترجع إلى النسبة للمفرد، أي أنه(أممي)، فبعثه لكل الأمم، والدلائل على اعتماد هذا المعنى أن الله تعالى قال عنه ﷺ: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{28} وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{29} قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ{30} (سبأ :28– 30).
فهذه الآية الشريفة سيتجلى معناها تماماً حتى تملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، بل لكل مخلوقات الله في جميع العوالم في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }(الأنبياء:107).
ونستدل على أن الرسول ﷺ، لم يقرأ ويكتب من قوله تعالى: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ }(العنكبوت:48).
فقد ورد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: نحن أخر الأمم وأول من يحاسب .
يقال ابن الأمة الأمية ونبيها فنحن الآخرون الأولون) فلو كان الرسول ﷺ،يكتب ويقرأ قبل أن يوحى إليه لشك الناس في أمره، أو قالوا: إنه تعلم هذه العلوم عن طريق القراءة والكتابة، ولكن هذه العلوم الوافرة والمعارف الزاخرة لا يستطيع عالم قارئ كاتب تحصيلها أخرى أمي لا يكتب، ولا يقرأ فيعلم بذلك أنها
وحي من الله تعالى، أوحي به إلى هذا النبي العظيم، وهذا لاشك أبلغ في التحدي و الإعجاز، ولهذا قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }(يونس:38).

(14)تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير، (3 : 38) .

وبهذا فقد ثبت في صفة النبي ﷺ، التي وردت في الكتب السابقة أنه أمي معلم من الله تعالى، فكان أمياً ليعرفه أهل الكتاب الذين يعرفون صفاته الواردة في كتبهم، كما اشرنا مسبقاً أما في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }(الجمعة :2).

ففيه وصف الرسول النبي الأمي بأنه يتلو على الأميين آيات الله، أي وحييه، ويعلمهم الكتاب، أي يلقنهم إياه، كما كانت الرسل تلقن الأمم الكتاب بالكتابة، ويعلمهم الحكمة التي علمها الرسل السابقون أممهم، في كل هذه الأوصاف نجد معجزة الأمية، في هذا الرسول ﷺ، فهو مع كونه أمياً، قد أتى أمته لجميع الفوائد التي أتى بها الرسل غير الأميين أممهم، لا ينقص عنهم شيئاً، فتمحصت الأمية لتكون معجزة حصل من صاحبها أفضل مما حصل من الرسل الكاتبين، مثل: موسى عليه السلام، وفي وصف الأمي بالتلاوة، وتعليم الكتاب والحكمة، وتزكية النفوس، ضرب من محسن الطباق، لأن المتعارف عليه أن هذه مضادة للأمية(15).

وفي قوله تعالى: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ }(العنكبوت:48).

هذا استدلال بصفة الأمية المعروف بها، ﷺ، ودلالتها على أنه موحي إليه من الله، أعظم دلالة، وقد ورد الاستدلال بها في مواضع كقوله تعالى: {قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }(يونس : 16).

أي أنك لم تكن تقرأ كتاباً حتى يقول أحد؛ هذا القرآن الذي جاء به هو مما كان يتلوه من قبل، أي نفي حالتي التعلم، وهما التعلم بالقراءة والكتابة، استقصاء في تحقيق وصف الأمية، {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ }(العنكبوت :49).

أي بل القرآن آيات ليست مما كان يتلى قبل نزوله، وقد عبر عن صدر النبي صلى الله عليه وسلم –بصفة الجمع في قوله تعالى: (صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)، تعظيماً له ، والعلم هو النبوة .

وإن أميته ﷺ، لا تعني الجهل، إذا أن الجهل بالشيء نقص، فكيف يتماشى ذلك النقص والجهل مع المختار المصطفى، وقد قال تعالى: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }(القصص :68)

(15) التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور ، (13 : 209) ، دار الكتب الشرقية ، تونس.

وقد كان موسى عليه السلام، بلا جاه ولا سلطان، وفوق هذا يعاني من عقدة في لسانه، تحول بينه وبين الإفصاح في كلامه، مما جعل فرعون يسخر منه ويتساءل حيث قال تعالى: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ }(الزخرف :52).

ومع ذلك فقد اختاره الله تعالي للرسالة، وجعله كليمه، وهكذا هي حكمته ومشيئته، أن يكون خير الأنبياء والمرسلين وخير خلق أجمعين رجلاً أمياً لم يقدر له تعلم القراءة والكتابة، وكما جمع الماء مع النار في السحاب، جمع مع أمية محمد ﷺ، العظمة والكمال، لأن النبي ﷺ، لم يتعلم من أحد، إلا من الله، فما تخلص إليه مما سبق: أنه شتان بين معنى الجهل ومعنى الأمية، لأن الجهل ضلال، أضف إلى ذلك أن الأمية شرط في طالب العلم ومعلم المدرسة والعالم والباحث ....ولكنها ليست شرطاً في النبي؛ لأن وظيفة النبي كما قال تعالى:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً }(الأحزاب :45).

وهذا كله يبطل من أن الرسول قد ألف القرآن، بالاعتماد على مصادر سماوية وغير سماوية، وبذا لا يستطيع من يطفئ الشمس من ينفخ عليها وإن الرسول ﷺ، منذ ولادته حتى وفاته، أمي لم يعرف القراءة ولا الكتابة، والحكمة واضحة في قوله تعالى: {.... إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ })العنكبوت:48) .

ثانياً: حفظه للقرآن الكريم :

لقد شاءت الحكمة الإلهية أن تظل الوحي متجاوباً مع الرسول صلى الله عليه وسلم، يعلمه كل يوم شيئا جديدا، ويرشده ويهديه، ويثبته، ويزيده اطمئنانا مع الصحابة يربيهم ويصلح عاداتهم ويجيب وقائعهم، ولا يفاجئهم بتعاليمه وتشريعاته(17) .

ومن هذا المنطلق، جاء القرآن ليربي أمة، وينشئ مجتمعا، ويقيم نظاما، والتربية تحتاج إلى زمن والى تأثر وانفعال بالكلمة، والى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع، والنفس البشرية لا تتحول تحولاً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد، إنما تتأثر يوما بعد بطرف هذا المنهج؛ وتتدرج في مراقبة رويداً رويداً ، وتعتاد علي حمل تكاليفه شيئاً فشيئاً ، فلا تجفل منه كما تجفل لو قدم لها ضخماً ثقيلاً عسيراً، وهي تنمو في كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح في اليوم التالي أكثر استعداداً للانتفاع بالوجبة التالية، وأشد قابلية لها والتذاذا بها، ولقد جاء القرآن بمنهاج كامل شامل للحياة كلها، وجاء في الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية عن علم بها من خالقها، فجاء لذلك منجماً وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة(18).

(16)نفس المرجع ، (10 : 12).

(17)مباحث في علوم القرآن ، صبحي الصالح ،(ص : 49) دار العلم للملايين للتأليف والترجمة والنشر ط22، بيروت – 1999م.

(18) في ظلال القرآن ، سيد قطب ،(5 : 2562).

ومن فضائله، أن الله تعالى له برسوله عناية عظيمة ومحبة شديدة، حيث جعل الوحي متتابعاً عليه ولم يقطعه عنه؛ ولهذا إنما أنزل عليه القرآن مفرقاً ليكون ذلك في أبلغ العناية والإكرام(19).

وعلى هذا الأساس، جاء ليكون منهج تربية ومنهاج حياة لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد المعرفة، من أجل هذا كله نزل القرآن مفصلاً، يبين أول ما يبين عن منهجه لقلب الرسول ﷺ، ويثبته على طريقه؛ ويتابع على مراحل الطريق رتلاً بعد رتل، قال تعالى: { ...لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً }(الفرقان32).

والترتيل هنا التتابع والتوالي وفق حكمة الله وعلمه بحاجات تلك القلوب و استعدادها للتلقي ..ولقد حقق القرآن بمنهجه ذاك خوارق في تكييف تلك النفوس التي تلقته مرتلاً متتابعاً(20).

فتأثرت به وانطبعت فتمثل في، القيادة هي شخص محمد عليه أفضل صلاة الله وسلامه، ثم أكابر صحابته رضي الله عنهم، وكان هذا الشباب الجيل الفريد من الصحابة الذين تربوا على يدي رسول الله ﷺ(21).

والقضية التي عرضت؛ إن التدرج كان مثار اعتراض المشركين الذين ألفوا أن تلقي القصيدة جملة واحدة، فأخذوا يتساءلون عن نزول القرآن نجوماً، وودوا لو ينزل كله مرة واحدة، وقد ذكر الله اعتراضهم في سورة الفرقان.

ولتجاوب الوحي مع الرسول ﷺ، صورتان إن أحداهما تثبيت فؤاده بما يتجدد نزوله من القرآن بعد كل حادثة، والثانية تيسير حفظ القرآن عليه(22).

وقد أشار إلي الصورة الأولى أبو شامة(23)، في قوله: فأن قيل: ما السر في نزوله منجماً؟ ولا أنزل كسائر الكتب جملة ؟ قلنا: هذا سؤال قد تولى الله جوابه فقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} بعنوان: كما أنزل على من قلبه من الرسل، فأجابهم تعالى بقوله: " كذلك " أي أنزلناه مفرقا ِ(لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً }(الفرقان:32)، أي لنثبت به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان اقوى للقلب، واشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان وكان جبريل عليه السلام، يعرض القرآن على النبي ﷺ، في رمضان، قال مسروق ....، أسر إلى رسول الله ﷺ: أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة وأنه عارضني العام مرتين ولا؟ أراه إلا حضر أجلي(24).

(19)تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، (1 : 22 –23).

(20)مرجع سابق ذكره (18)، 5 : 2563 .

(21)الغرباء الأولون ، سلمان العودة ،(1 : 67).

(22)مرجع سابق ذكره (17)، ص : 52.

(23)هو الفقيه الشافعي عبد الرحمن بن إسماعيل ...المقدسي ، له المرشد الوجيز إلي علوم تتعلق بالقرآن العزيز ، توفي سنة 665ه .

(24)صحيح البخاري ،(9 : 43) . نقلا عن تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ،(1 : 50).

والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة: مقابلته على ما أوحاه إليه عن الله تعالى، ليبقى ما بقى، ويذهب ما نسخ توكيداً، أو استثباتاً وحفظاً؛ ولهذا عرضه في السنة الأخيرة من عمره، عليه السلام، على جبريل مرتين، وعارضه به جبريل عليه السلام كذلك؛ ولهذا فهم، عليه الصلاة و السلام(25) .

ومن العلماء من يرى أن " تثبيت فؤاده " المذكور في آية الفرقان السابقة لا يراد منه إلا جمع القرآن حفظاً في قلبه" فإنه عليه السلام كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ،ففرق عليه ليسر عليه حفظه، بخلاف غيره من الأنبياء، ونضيف أن التوراة أنزلت جملة، لأنها نزلت على نبي يقرأ ويكتب – موسى عليه السلام – وأنزل القرآن مفرقاً لأنه غير مكتوب على نبي أمي.

وأما تجاوب الوحي مع المؤمنين على عهد رسول الله ﷺ، ففي القرآن منه صور متنوعة، ألوان متباينة، تلتقي كلها عند غاية واحدة: وهي رعاية حالة المخاطبين، وتلبية حاجاتهم في مجتمعهم الجديد الآخذ في الازدهار، وعدم مفاجأتهم بتشريعات وعادات و أخلاق لا عهد لهم بمثله(26) .

ونزول القرآن على هذه الوتيرة مقصود للشارع الحكيم، فإن الزمن جزء من علاج النفوس وسياسة الأمم وتقرير الأحكام، وأن القران رسول حي، تسائله فيجاوبك، وتستمع إليه فيقنعك؛ انظر: كيف يؤسس عقيدة البعث والجزاء، وينوه بشمول الإرادة والقدرة في ثنايا إجابة على سؤال موجه وكيف صيغت المعاني في أخذ ورد واعتراض ودفع، كأنها حوار سيال، يتعدى أصحابه حتى يجمع الناس إلى آخر الدهرقال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{77} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{78} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{79} الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ{80} أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ{81} إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ{82} فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{83}).

أن هذا مثل للاستدلال القائم على النظر الصائب، لا يختص به زمان دون زمان ولا مكان دون مكان فهو خطاب العقل العام في البشر أجمعين، وهو بيان لحكمة نزول القرآن منجماً إذ جاءت الآيات للرسول ﷺ، قل: كذا، رداً على ما عرض له من أسئلة في أثناء طوافه هنا وهناك يدعوا إلى الله، ثم ثبت السؤال والجواب ليكون منها علم ينفع الناس آخر الدهر(27).

(25)صحيح البخاري ، (1 : 51).

(26)مرجع سابق ذكره (17) ،(ص : 56).

(27)فقه السيرة ،محمد للغزالي ،(ص 30)، دار القلم ، دمشق ، ط4 – 1998م.

ثالثا: التعصب الديني والإمعان في الافتراض والتخمين

ما نريد الوقوف عليه، في هذا السياق؛ ما جاءت في قضية بحيرى الراهب، والتي رأينا أن نقف ولو بشيء من التدقيق و التحليل، و الوقوف على مضامين هذه القضية والتي أخذت مساراً ضنياً عند المشككين وأتباعهم.

فقد جاءت هذه القصة مطولة في سيرة ابن هشام(1)، وغيرها وتكلم في صحتها كثير من النقاد والمحدثين رواية ودراية، قد جاء في" سيرة النبي ﷺ، "للعلامة شبلي النعماني أن جميع روايات هذه القصة مرسلة(2)، فإن كل من روى هذه القصة من الصحابة، إنما سمعها من غيره ولم يسمعه، وقد قال الترمذي بعدما روى الحديث: " حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه "، ومن رواته عبد الرحمن بن غزوان، ونو ورد تعقيب للعلامة الذهبي فقال: " كان يروي الأحاديث المنكرة وأشدها نكارة الرواية التي جاء فيه أن أبا طالب أرسل رسول الله ﷺ، مع بلال، وقال العلامة ابن القيم في(زاد المعاد)، " ووقع في كتاب الترمذي وغيره أنه بعث معه بلالا، وأنه من الغلط الواضح، فإن بلالاً إذ ذاك لعله لم يكن موجوداً، وإن كان فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر"(3).

ونورد ما قاله الذهبي في قصة بحيرا:-

" وهو حديث منكر جداً، وأين كان ابوبكر، كان ابن عشر سنين، فانه أصغر من رسول الله ﷺ - بسنتين ونصف، وأين كان بلال في هذا الوقت؟ فان أبا بكر لم يشتره إلا بعد المبعث ولم يكن ولد بعد، وأيضاً فإذا كان عليه غمامة تظلله كيف يتصور أن يميل فيء الشجرة؟ لأن ظل الغمامة يعدم في الشجرة التي نزل تحتها، ولم نراء النبي صلى الله عليه وسلم، ذكر أبا طالب قط بقول الراهب ولا تذاكرته قريش ولا حكته أولئك الأشياخ مع توفر هممهم ودواعيهم علي حكاية مثل ذلك(4) .

وانتهز المستشرقون والمغرضون هذا الحدث، وهي لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، بحبر من أحبار النصارى، شخصيته ومكانته في العالم مجهولتان، فصنعوا من الحبة قبة ، أسسوا عليها بناء شامخاً، من تلقى رسول الله صلي الله عليه وسلم ، لتعاليم التوحيد النقية من عالم نصراني، وأغرب من هذا أن (carra de Vaux) الفرنسي ألف كتاباً مستقلاً في هذا الموضوع، أسماه "

مؤلف القرآن " حاول أن يثبت فيه أن " بحيرى " لقن محمد ﷺ، القرآن كله، في هذا اللقاء القصير(5).

1) السيرة النبوية ، لابن هشام ،(1 : 120- 121 – 122)، دار الفجر للتراث ، ط2 ، 2004م .
2)لابد هنا من الإشارة إلي ان مراسيل الصحابة – رضي الله عنهم – حجة عند أكثر المحدثين والفقهاء .
3)زاد المعاد في هدي خير العباد ،أبو عبد لله بن القيم، (1: 18).
4)السيرة النبوية ، للذهبي ، (ص 28 -29) ط دار الكتب العلمية ، وهو منقول من كتاب " تاريخ الإسلام " للحافظ الذهبي.

(5)السيرة النبوية ، أبو الحسن الحسيني الندوي ، (ص105).

هذا – أن صحت الرواية – لا يقول عاقل رزق من سلامة العقل والإنصاف ذرة، فكيف يعقل أن غلاماً لا يجاوز عمره تسع سنوات – على الأصح – واثنى عشر عاماً– على الأكثر – تلقى من شيخ لا يعرف لغته، ولم يجلس إليه إلا ما يستغرقه وقت الجلوس على المائدة، المسائل الدقيقة والتفاصيل العميقة في نقد عقيدة الشرك والمسيحية الممسوخة في القرن السادس المسيحي، التي لم يهتد إليها كبار النقاد، والمصلحين في ..في العالم المسيحي، والتمييز الدقيق بين عقائد الفرق المسيحية وأقوالها، وتعرض القران لحوادث لم تحدث إلا بعد ثلاثين وأربعين سنة ، حين أصبحت عظام بحيري نخرة، كاندحار الروم أمام الفرس في الأعوام الأولى من القرن السابع المسيحي(603-616)، إلى آخر نقطة من تراجع الجيوش وتقلص الحكومات، حتى كادت الإمبراطورية البيزنطية تلفظ نفسها الأخير، وتصبح مستعمرة ساسانية حقيرة، وانقطع كل أمل في نهوض الدولة البيزنطية وعودتها إلى أوجها الأول، ثم انتصار الروم البيزنطيين الرائع، النافي لكل تقدير وتخمين، على الفرس الظافرين المنتصرين، حتى أوغلت الجيوش الرومانية بقيادة هرقل، في بلاد الفر، وغرزت أعلام الفتح في قلب البلاد، و أثخنت الشعب قتلاً وجراحاً، و أهانت المعابد والمقدسات الدينية، وعادت من أسوار العاصمة ظافرة، وذلك كله في ظرف تسع سنين(6).

وهو ما أعلن القرآن به؛ بقوله: (الم{1} غُلِبَتِ الرُّومُ{2} فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ{3} فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ{4} بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{5} وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{6} يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ{7})(الروم : 1-7).

وهي نبوة لا يقدر عليها إلا العليم القدير الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ،ولم يكن أغرب خيالاً، وأبعد منالاً من هذه النبوة التي أعلنها القرآن عند فرح قريش المشركين بانتصار المجوس المشركين على أهل الكتاب المسيحيين، وشماتتهم بهزيمة الروم المنكرة فقال تعالى:(وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ{3} فِي بِضْعِ سِنِينَ) (الروم : 3- 4).

والبضع ما دون العشر – واستبعدته قريش كل الاستبعاد ، حتى قامروا على ذلك استبعاداً له، يقول المؤرخ الانجليزي الشهير جبون " EDWARD GIBON "

إنَّ محمداً تنبأ حين بلغت فتوح الفرس أوجها وقمتها، أن الرايات الرومية سترتفع بالفتح والانتصار في بضع سنين ، ولم يكن شيء أبعد عن القياس من هذه النبوة التي أعلنها محمد، لأن السنين الأثنتي عشرة أبعد عن القياس من هذه النبوة التي أعلنها محمد، لأن السنين الأولى من حكم هرقل كانت بتمزق الإمبراطورية الرومانية ، ونهايتها القريبة)(7).

(6) نبوة تتحدي ومعجزة تتحقق ،في كتاب ؛ للندوي ، المدخل إلي الدراسات القرآنية ، (ص :75- 93)، ط القاهرة ، 1986م.

(7)تاريخ انحطاط روما وسقوطها ، (3: 302، 303) ، ط1890م .

ولكن تحققت هذه النبوة بشكل غريب خارق للعادة، وذلك في سنة (625)م (العام الثاني من الهجرة النبوية عند غزوة بدر)، يقول: " جبون " في أسلوبه الأدبي القوي " كما أن ضباب الصبح والأصيل ينقشع ويتبدد بنور الشمس البازغة الوهاج، كذلك تحول الأمير الرقيق المترف الذي لم يكن يعرف إلا الشباب والهوى ، والذي كان علي قدم اركاديوس في عصره(8) ، فارساً منتصراً يقود الجيوش ويفتح البلاد كسيزر(9) لقد ؟ أنقدت كرامة هرقل وروما بطريقة غريبة رائعة، وعاد إليهما اعتبارهما وقيمتهما "(10)، هذا إلى نبوات أخرى وإعلانات بعيدة عن القياس والقرائن، كالفتح المبين (صلح الحديبية)، المهين في نظر كثير من المسلمين، وغيرهم، عندما وافق عنه الرسول صلى الله عليه وسلم، ودخول الناس في الإسلام أفواجاً، وظهوره على الدين كله بعدما كان المسلمون مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، وبقاء القرآن محفوظاً متلواً، مبيناً مفسراً، يتلوه ويحفظه أكبر عدد من البشر إلى غير ذلك من النبوات؛ والإعلانات المتحدية للعقل والقياس، والأخبار الغيبية التي زخر بها القرآن الكريم(11).

8)الملك الرومي الخليع المستهتر الذي أصبح مثلا في تاريخ أوربا للتمتع المسرف والترف الفاحش .
9)الإمبراطور الرومي الذي اشتهر بفتوحه العظيمة وامتداد ملكه .
10)انحطاط روما وسقوطها ،(3: 304) .1890م.
11)الأخبار الغيبية والنبؤات ، سليمان الندوي ،(ج :3).

المبحث الخامس: ظاهرة الوحي

لم يكن النبي ﷺ، كظاهرة فريدة؛ للوحي بين السماء و الأرض، ولا أول من خاطب الناس بلغة الوحي.

فمن لدن نوح تتابع أفراد مصطفون أخيار ينطقون عن الله ولا ينطقون عن الهوى، ولم يكن الوحي الذي أيدهم به الله مخالفاً الوحي الذي أيد به محمداً ﷺ، بل كانت ظاهرة الوحي متماثلة عند الجميع، لأن مصدرها واحد، وغايتها واحدة(1).

كما قال الله(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً{163} وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً{164}النساء:176.

وواضح أن الأنبياء عليهم السلام، الذين صرحت الآية بأسمائهم إنما خصوا لأنهم كانوا أشهر أنبياء بني إسرائيل، وكانت أخبارهم مشهورة بين أهل الكتاب المجاورين لرسول الله عليه السلام في الحجاز وما حوله(2).

إنَّ ظاهرة الوحي معجزة خارقة للسنن، والقوانين الطبيعية، حيث تلقى النبي ﷺ، كلام الله(القرآن)، بواسطة الملك جبريل عليه السلام، وبالتالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام(3)، أو التأمل الباطني أو الاستشعار الداخلي، بل أن الوحي يتم من خارج ذات النبي صلى الله عليه والسلام، وتنحصر وظيفته بحفظ الموحى وتبليغه، وأما بيانه وتفسيره، فيتم بأسلوب النبي كما يظهر في أحاديثه وأقواله، وأفعاله، وتقريراته ﷺ(4).

1) دلالة الوحي:

دلالته في جانب الله سبحانه – أنه ذو الفضل الواسع، والرحمة السابغة، الكريم الودود المنان، يفيض من عطائه ورحمته بلا سبب ولا علة، سوى أن الفيض والعطاء بعض صفاته الذاتية الكريمة.

ودلالته – في جانب الإنسان، أن الله –سبحانه – قد أكرمه كرامة لا يتصورها، ولا يملك أن يشكرها وأن هذه وحدها لا ينهض لها شكره ولو قضي عمره راكعاً ساجداً ..هذه ..أن يذكرها الله، ويلتفت إليه، ويصله به، ويختار من جنسه رسولاً إليه بكلمتها، وأن تصبح الأرض مسكنه ومهبط لهذه لكلمات التي تتجاوب بها جنبات الوجود في خشوع وابتهال(5).

(1)تفسير الطبري ، (6 : 20).
(2)الوحي المحمدي ، نقلا عن مباحث في علوم القرآن ، صبحي الصالح ،(ص : 22).
(3)السيرة النبوية ، علي الصلابي ،(1 : 76).
(4)السيرة النبوية الصحيحة ، للعمري (1 : 129).(5) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، (6 : 3937).

أن الفترة التي دامت الثلاثة والعشرين عاماً، بين الملا الأعلى والبشر؛ المتمثلة في شخصه(النبي ﷺ)، لا يرسم حقيقتها إلا الذين عاصروها وعاشوا لحظاتها.

كانوا يعرفون مذاقها، ويدركون حلاوتها، ويشعرون بقيمتها، ويحسون وقع فقدانها حينما انتقل رسول الله ﷺ، إلى الرفيق الاعلى، وانقطعت هذه الفترة العجيبة التي لا يكاد العقل يتصورها لولا أنها وقعت حقا(6).

عن انس – رضي الله عنه – قال: قال أبوبكر لعمر – رضي الله عنهما – بعد وفاة رسول الله ﷺ، انطلق بنا إلى أم أيمن – رضي الله عنها – نزورها كما كان رسول الله – ﷺ، يزورها، فلما أتيا إليها بكت ، فقالا لها :ما يبكيك ؟ أما تعلمين ان ما عند الله خير لرسول الله – صلي الله عليه وسلم ، ؟ قالت : بلي ، إني لا اعلم ان ما عند الله خير لرسول الله – ﷺ، ولكن ابكي ان الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما علي البكاء، فيجعلا يبكيان معها ..(7).

ثانيا: وصف حالات الوحي

حرص القرآن على تسمية ما نزل على قلب محمد ﷺ، وحياً، ليشابه مدلول الوحي بين جميع النبيين تشابه اللفظ الدال عليه، فقال تعالى(و ۞النَّجْمِ إِذَا هَوَى{1} مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2} وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{3} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى{4})النجم:4. وقال تعالى: (..... قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ .....}يونس 15. وقال {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي ....}(الأعراف :203).

ثم أنكر على العقلاء توهمهم أن في الوحي عجباً عجابا فقال: (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ{2})(يونس: 2).

(6)نفس المرجع ، (5) .

(7)أخرجه مسلم .نفس المرجع (5) ، (6: 3938).

هل كان المنطق أن يقضي بأن اشتراك الناس في البشرية يمنع اختصاص الله واحداً منهم بما شاء من العلم والحكمة والإيمان؟ وهل كان للمنطق أن يعد هذا الاختصاص أعجوبة حتى تفكه الناس باستغراب ما فيه من نك، ورأى فيه أهل الكفر ما يشبه عمل السحر؟

أن الوحي الذي لا ينبغي أن يتعجب منه لا بد ان يكون إدراكه سهلاً ميسراً خالياً من التعقيد، فما حقيقة هذا الوحي في نظر الدين؟ ومدى التشابه بين ظاهرته عند محمد ﷺ، وعند سائر النبيين(8).

حين سمى الدين هذا الضرب من الإعلام الخفي السريع " وحياً " أم يبتعد عن المعني اللغوي الأصلي لمادة الوحي والإيحاء: فمنه الإلهام الفطري للإنسان، كقوله تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ {7}) لقصص(مكية)88 . وقوله تعالى: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ{111} . المائدة : 111).

ومنه الإلهام الغريزي للحيوان كالذي في قوله: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ{68}.النحل : 68).

ومنه الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء، كما في قوله عن زكريا عليه السلام : (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً{11}) (مريم : 11).

ويذكر صبحي الصالح، "رحمه الله"، في تفسير هذه الآية، أن زكريا عليه السلام أشار إليهم إشارة وحية سريعة ولم يتكلم ومنه الإيماء بالجوارح(9).

(8) مباحث في علوم القرآن ،،صبحي الصالح ، (ص : 23) ،دار العلم للملايين للتأليف والترجمة والنشر ط 22، بيروت - 1999م.

(9) نفس المرجع ،(ص : 24).

وعليه قول الشاعر: نظرت إليها نظرت فتحيرت دقائق فكري في بديع صفاتها

فأوحى إليها الطرف أني أحبها فأثر ذلك الوحي في وجناتها(10).

وعبر القرآن بالوحي عن وسواس الشيطان وتزينه خواطر الشر للإنسان، فقال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ{112})(الأنعام: 112).

وقوله تعالى: (.. وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ{121}الأنعام : 121).

مثلما عبر بالوحي أيضاً عما يلقيه الله إلى الملآئكة من أمره ليفعلوه من فورهم كقوله تعالى: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُوا....)(الأنفال : 12).

أما تعبيره بالوحي عما يكلف الله الملك حمله إلى النبي من آيات كتبه المنزلة فهو شديد الصلة بتعبيره بالوحي إلى النبي نفسه؛ وما بين مدلولي التعبير من اختلاف لا يعدو الوظيفة التي يتحملها ملك الوحي بالنقل الأمين، ويتحملها النبي بالوعي والتبليغ، من ذلك قوله تعالى: (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى){10} (النجم :10).

إذ المراد أن الله أوحى إلى عبده جبريل عليه السلام، ملك الوحي الأمين، ما أوحاه جبريل إلى محمد ﷺ، خاتم النبيين، ومدلول الوحي إذن في هذه الآية كمدلول التنزيل الصريح في الآية الأخرى في قوله تعالى: (إِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ{192} نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ{193} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ {194})الشعراء: 192 ،193).

(10) مفردات الراغب الأصفهاني ، نقلا مرجع سابق (9)،(ص: 24).

إنَّ المعنى اللغوي الأصلي لمادة الإيحاء وبين سمي وسيلته في الإعلام الخفي السريع " وحياً" – لم يقصر ظاهرة هذا الاتصال الغيبي الخفي بين الله وأصفيائه على تنزيل الكتب السماوية بوساطة ملك الوحي، بل أشار في آية واحدة إلى صور ثلاث من صور الوحي:

أحداهما إلقاء المعنى في قلب النبي أو نفثه في روعه، والثانية تكليم النبي منت وراء حجاب كما نادى الله موسى عليه السلام، من وراء الشجرة وسمع نداءه؛ والثالثة هي التي متى أطلقت انصرفت إلى ما يفهمه المتدين عادة من لفظة " الإيحاء) حين يلقى ملك الوحي المرسل من الله إلى نبي من الأنبياء ما كلف إلقاءه إليه سواء أنزل عليه في صورة رجل أم في صورته الملكية؛ فبهذا نطقت الآية الكريمة: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ{51}).الشورى: 51)(11).

ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهة، وقد روى عن عائشة رضي الله عنها: " من زعم ان محمداً رأي ربه فقد أعظم على الله الفرية "(12) .

إنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث: " وحياً" يلقي في النفس مباشرة فتعرف أنه من الله، أو من وراء حجاب " كما كلم الله موسى عليه السلام، وحين طلب الرؤية لم يجب إليها، ولم يطق تجلى الله على الجبل " وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال: سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين" ... (أو يرسل رسولا)، وهو الملك ""فيوحي بإذنه ما يشاء "" بالطرق التي وردت عن رسول الله – ﷺ.

(11) نفس المرجع السابق ،(9)، ص: 25 . (12) متفق عليه ، نقلا عن مرجع سابق ذكره (5) ، ص : 3169.
(13) نفس المرجع ، ص : 3170.

وقد عبر ابن خلدون عن مفهوم الوحي الشرعي في إشارة إلى الآية السابقة في تأكيدنا لهذا التفسير بقوله:

" استغرق في لقاء الملك الروحاني بادراك الأنبياء المناسب لهم، الخارج عن مدارك البشر بالكلية، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية ...كل ذلك في لحظة واحدة بل في أقرب من لمح البصر""(14).

يعني أن الوحي يملك على النبي قلبه وقالبه، ويستجمع الشعور كله ويوجه نحو هذا اللقاء الفريد بين الإنسان المصطفي والملك الروحاني، ويكون للنبي في هذه الحال أدراك خاص ووسيلة معرفة غير ما إلفه البشر من الحواس والعقل، ثم تحصل مرحلة عبور للوحي من حالته الروحية إلى حالة حسية وعقلية يدركها النبي ويبلغها للبشر في صورة خبر أو نهي ...الخ(15).

ثالثا: حالات الوحي عند الرسول ﷺ

1)الرؤيا الصادقة

وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وقد جاء في الحديث: "" رؤيا الأنبياء وحي "" ، قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: (يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ{102 }

(الصافات : 102)(16).

2)الإلهام

وهو ينفث الملك في روعه أي قلبه من غير أن يراه – كما قال صلى الله عليه وسلم، : "" أن روح القدس نفث في روعي "" أي : أن جبريل عليه السلام ،نفخ في قلبي "" أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ...""(17).

(14)مقدمة ابن خلدون ، تحقيق عل عبد الواحد وافي ، ط 1 ، نقلا: عن الرسول والوحي ، (ص : 238) .
(15) نفس المرجع ، (ص : 238).
(16) السيرة النبوية ، علي الصلابي ،(1 : 78).
(17) زاد المعاد في هدي خير العباد ، أبو عبد الله بن القيم، (1: 79) .

1) مثل صلصلة الجرس

وعلى هذا النمط رسم النبي الكريم ﷺ، فيما صح من حديثه طريقة نزول الوحي على قلبه، فقال: "" أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي ، فيفصم عني (18) وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول "" (19).

أن صور الوحي الشديدة على رسول الله ﷺ، تعتبر الأشد، فعن السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت: "" ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليفصد عرقاً"(20)، بل كانت وطأة الوحي في هذه الصورة تبلغ أحياناً من الشدة والثقل حدا يجعل،(راحلته تبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ،...(21).

3)الوحي بلا واسطة

ظهور جبريل عليه السلام، وهو بصورة إنسان يشاكله في المظهر لا ينافره ،ويطمئنه بالقول ولا يرعبه، فهي أخف وطأ وألطف وقعاً، فلا أصوات تجلجل ولا جبين يرشح، بل تشابه شكلي بين الملقي والمتلقي، ييسر الأمر في الوقت نفسه على ناقل الوحي الأمين وعلى النبي المصطفي الكريم(22).

وفي كل حالات الوحي؛ لم يخلط على النبي ﷺ، أي صورة من الصور، بل كان في وعي تام بما يحمله الوحي، طيلة العصر القرآني الذي يضم كل مراحل التنزيل – بين شخصيته الإنسانية المأمورة المتلقية وشخصية الوحي الآمرة المتعالية، فهو واعٍ أنه إنسان ضعيف بين يدي الله، يخشى أن يحول الله بينه وبين قلبه، بل كان أول عهده بنزول الوحي – مخافة ضياع بعض الآيات من صدره

(18)يفصم ، ينكشف وينجلي .
(19)صحيح البخاري ، بدء الوحي (1 : 6). (20) صحيح البخاري ، (1 : 71). (21) زاد المعاد في هدي خير العباد ، أبو عبد الله بن القيم (1 : 25)، حققه : شعيب الأرناؤوط وعبد القادر ، مؤسسة الرسالة ط1 – 1399ه .
(22)مرجع سابق ذكره ، (8) ،(ص : 18).

– يعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه، ويحرك به لسانه وشفتيه ليستذكر ولا ينساه، ويحرص على متابعة جبريل عليه السلام، في كل حرف يدارسه إياه حتى يسر الله عليه عليك حفظه بتفريقه وتنجيمه، وأمر بالاطمئنان إلى وعده فقال تعالى: (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ{16} إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ{17} فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ{18} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ{19})(القيامة : 19) .

ونهاه عن هذه العجلة التي لا مسوغ لها فقال تعالى:(..... وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً{114})(طه : 114).

ومن يتل الآيات القرآنية التي تصور رسول الله إنساناً ضعيفاً بين يدي الله، يستمد منه العون، ويستهديه ويستغفره، ويصدع بما يأمره به وأحياناً يتلقى العتاب الشديد، و يجد في أعماق قلبه من الفيض الوجداني ما يحمله على الإقناع بالفرق الذي لا يتناهى بين صفة الخالق والمخلوق، وبين ذات الخالق والمخلوق.

إنَّ صورة محمد ﷺ، في القرآن هي صورة العبد المطيع، الذي يخاف عذاب ربه أن عصاه، فيلتزم حدوده، ويرجو رحمته، ويعترف بعجزه المطلق عن تبديل حرف من كتاب الله: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ{15} قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{16}) يونس : 16) . (23).

(23)مرجع سابق ذكره ،(8)،(ص : 28 ، 29).

وفي معنى هذه الآيات المفرقة بين صفة الخالق المخلوق، مل يتكرر في القرآن كثيراً من التصريح بأن النبي ﷺ، بشر مثل سائر البشر، ليس عليه إلا البلاغ، ولا يملك خزائن الله ولا يعلم الغيب، ولا يزعم لنفسه صفة ملكية تغاير صفة الإنسان وخلقه: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ .....{110}}(الكهف :110)..

{قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }(الأعراف : 188).(24).

{قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ } (الأنعام : 50) .

والمفهوم من الآيات السابقة، هو الخطاب بعبارة(قل) الموجه للرسول صلى الله عليه وسلم، وتوجيه وتعليمه، وتحديد دوره كمبلغ ، بصيغة الوحي من غير زيادة ولا نقصان وقد ورد تعقيب من" صبحي الصالح رحمه الله" (لقد تكررت عبارة " قل " أكثر من ثلاث مئة مرة في القرآن ليكون القارئ على ذكر من أن محمداً صلى الله عليه وسلم، لا دخل له في الوحي، فلا يصوغه بلفظه، ولا يلقيه بكلامه، وإنما يلقى إليه الخطاب إلقاء، فهو مخاطب لا متكلم، حاك ما يسمعه، لا معبر عن شيء يجول في نفسه)(25).

لقد عالجت قصة الوحي منذ النبوات الأولى، لتقرر وحدة الدين، ووحدة المنهج، ووحدة الطريق، ولتعلن القيادة الجديدة للبشرية ممثلة في رسالة محمد ﷺ.

(24)مرجع سابق ذكره ، (8)، (ص :29).

(25) نفس المرجع ، (ص : 30) .

المبحث السادس: بشرية الأنبياء

إنَّ مبعث الرسالات في كلّ عهد انطلقت فيه، هي موضع جدل ونقاش في المجتمعات الذي تبعث فيه، باعتبارها حَدَثاً غير عادي في حياة النّاس، ولأنَّها ليست مجرّد دعوة تغييريه تتحرّك على أساس بشري يخضع لما يخضع له البشر- عادة - من إمكانات وطاقات، وقوّة وضعف.. بل هي دعوة تختص وتتميز بما وراء هذا العالـم، من خلال ظاهرة غير عادية وهي الوحي، لأنَّه يمثّل الاتصال غير المرئي بالقوى غير مرئية، ولأنَّها ليست من عالمنا الذي نعيش فيه، بل هي من عالـم آخر يختلف عنّا في شكله ومضمونه وفي طبيعته، وهي - في هذا المجال - لا تخضع لأيّ ضعف في الصدق والصواب والانسجام مع المصلحة الأساسية للحياة لأنَّها من الله العالـم بما يصلحهم ويفسدهم.

وقد شاركت هذه المِيزة التي تتميَّز بها الرسالات عن الدعوات الأخرى في إثارة العديد من علامات الاستفهام؟ التي اتخذت لنفسها طابعاً جدلياً عنيفاً، من جهة الرافضين للنبوة، بل لـم تقتصر آثاره على الكلمات التي تُثار في هذا السبيل، فامتدت إلى المواقف العملية التي تحوَّلت إلى رفض قاطع للأشخاص الذين تتجسَّد فيهم فكرة النبوّة وتتحرّك معهم.
ففي البداية، ووجه أكثر الأنبياء بتصوّر النّاس حول شخصية النبيّ، وما يجب أن تكون عليه هذه الشخصية.... فإذا كانت النبوَّة حدثاً غير عادي، فيجب أن تتجسَّد في شخص غير عادي.. ولهذا فإنَّ من الضروري أن لا يكون النبيّ بشراً ما دامت النبوَّة مرتبطة بغير عالـم البشر.. وما دامت طرق الاتصال بالسماء غير بشريّة.
ومن هنا وُلدت فكرة رفض تصديق الأنبياء، لأنَّهم بشر مثلهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.. وهذا الأمر لا ينسجم مع التصوّر العام للنبيّ الذي يجب أن يكون ملكاً من السماء ليصلح لحمل رسالة السماء.
وينطلق - بعد ذلك - سؤال ثانٍ في هذا المجال، فقد نتقبَّل فكرة النبيّ البشر، ولكن لا بُدَّ أن يكون إنساناً غير عادي.. يتميَّز بقوى خارقة تحمل ظلال الألوهية في قدراتها، وإن لـم تكن لها هذه الصفة.. لأنَّ اتصالها المباشر بالله، وحملها الرسالة منه بطريق الوحي يفرضان ذلك كلّه.
وفي ضوء ذلك، كانت علامات الاستفهام تتكاثر وتتنوَّع حول الأنبياء الذين لا يتميَّزون عن الإنسان العادي بشيء في قدراتهم وأوضاعهم العملية في الحياة..
ولذلك لا نجدهم يستجيبون لأيّ اقتراح من الاقتراحات التي تُطلب منهم، في القيام ببعض الأعمال، أو في إيجاد بعض الظواهر الخارقة في الحياة.

أولا :شخصية النبيّ محمَّد ﷺ

أمّا رسالة الإسلام إلى جانب علامات الاستفهام هذه، فقد جابهت في علامات استفهام من نوع آخ، تعرضت للنبيّ ﷺ، يقول الإمام الشعراوي _ رحمه الله تعالى،

اختار رسول الله ﷺ، بشراً كريمًا، وكان هذا الاختيار هو محل هجوم المنافقين والكفار إلي يوم القيامة، قال تعالى: {فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ }(هود :27)(1) .

فواجهه بأسلوب بعيد عن المنطق والمعرفة الواعية الهادئة، فاعتبرت أنَّ ما جاء به سحر، ولهذا أعطته صفة الساحر.. وبأنَّه شعر يتخذ لنفسه صفة الشاعر، وأنه يجمع أساطير الأولين التي اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً..قال تعالى: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً }(الفرقان :5).

أن تصور المعركة العنيفة مع بشرية الضالة الجاحدة المشاقة لله ورسوله، وهي تجادل في عنف، وتشرد في جموح، وتتطاول في قحة، وتتعنت في عناد، وتجنح عن الهدي الواضح الناطق المبين(2).

وتفاعلت القضية وتحوّلت إلى حالة من الحقد، شبيهة بالتشنجات الانفعالية، فكان الوصف بالجنون، وهنا لا أوكد إن هذه الصفات اختص بها النبي صلى الله عليه وسلم، بل القرآن قد أشار في بعض الآيات إلى أنَّ الأنبياء عليهم السلام حوربوا باتهامهم بالجنون كذلك، كما جاء في قوله تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلاَّ قالوا ساحرٌ أو مجنونٌ} (الداريات:52) .

وهنا نؤكد إنَّ هذه الصفات كانت بارزة في موقف أعداء الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم.

أنها البشرية التي تقول عن هذا القرآن العظيم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً }الفرقان4.

أو تقول عن محمد ﷺ: {نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً }الإسراء47.

أو تقول في استهزاء: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً }الفرقان41.

والتي لا تكتفي بهذا الضلال، فإذا هي تتطاول في فجور على ربها الكبير: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً }الفرقان60.

أو تتعنت فتقول : {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً }(الفرقان:21 (3)).

(1)السيرة النبوية ، محمد متولي الشعراوي ،أعده عبد الرحيم محمد متولي ،(ص : 57) ، دار التوفيقية للتراث ،القاهرة – 2010م. .

(2) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، (5: 2544).

وقد واجه الرسول ﷺ، هذا كلّه بأسلوب رسالي هادئ، ينطلق من الثقة العميقة بنفسه وبرسالته، ومن خلال تفهّمه ووعيه للظروف والدوافع والتصوّرات التي شاركت في ولادة علامات الاستفهام الرافضة التي واجهت رسالته وأساءت إلى شخصه، بحيث كان للتصوّر المنحرف لمعنى النبوّة وللعوامل الاجتماعية والذاتية التي كانت تقود خطى المعاندين نحو معاندة الحقّ الذي أطلقه، ولغير ذلك، الأثر الكبير في هذا كلّه، وعلى هذا الأساس، بدأ الحوار معهم، من أجل أن يقودهم إلى تصحيح المفهوم الخاطئ الذي يحملونه عن النبوّة ودورها في الحياة، وتوضيح ما التبس عليهم من فهم لشخصية النبيّ ﷺ، وإمكانية طاقاته، وما يتعلّق بطبيعة الرسالة ومواصفات القرآن، عدا تصويبه للأفكار التي ألصقت بعض المواصفات بشخصه، التي كان للأجواء المحمومة والانفعالات المتباينة دورٌ مهمٌ في إيجاد مثل هذه الأفكار والتصوّرات الخاطئة.

ثانيا: النبي محمَّد ﷺ، كما صوره الله تعالى في القرآن الكريم أمّا الفكرة الأولى التي تتحدّث عن العلاقة بين النبوّة والبشرية، فقد تعاطى معها بأسلوبين: الأسلوب الأول: محاولة عرض الفكرة من خلال تاريخ النبوّات، وطريقة الحوار الذي كان يدور في حياة الأنبياء السابقين مع خصوم الرسالات.

الأسلوب الثاني: محاولة إدارة الحوار ـ بشكل مستقل ـ حول الفكرة التي تتحدى النبوّة من خلال هذا التصوّر المنحرف في شخصه.

وتواجه ـ في الأسلوب الأول ـ الآيات التالية التي تتحدّث عن الأنبياء عليهم السلام، السابقين الذين كانوا محل احترامٍ لدى الأمم السابقين الذي ولدت فيهم الرسالات.. ولا مانع من فرضية أنَّهم كانوا يؤمنون بهم كأنبياء، فقد تحدّثت هذه الآيات عن رفض الأمم السابقة لهؤلاء الأنبياء من خلال صفة البشرية التي كانت لا تنسجم مع صفة النبوّة حسب زعمهم.. ولكنَّ النبوّة كانت تفرض نفسها في نهاية المطاف من خلال مواقفها ومعجزها الخارقة للعادة التي قام بها أولئك الأنبياء.. ما يوجب تحطيم المفهوم الخاطئ الذي كانوا يحملونه في أفكارهم، ففي حديث القرآن عن نوح وقومه يقول الله تعالى: {فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلاَّ بشراً مثلنا وما نراك اتَّبعك إلاَّ الذين هم أراذِلُنا بادي الرّأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنُّ كم كاذبين{27}(هود : 27 – 28).

(3)مرجع سابق ذكره (2).

ذلك رد العلية المتكبرين ..كبار القوم المتصدرين ..وهو يكاد يكون رد الملأ من قريش: مانراك إلا بشراً مثلنا، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أرذلنا – بادي الرأي – وما نرى لكم علينا من فضل، بل نظنكم كاذبين(4). وفي آية أخرى.. تتحدّث عن أسلوب النبي ﷺ، في حواره معهم ـ حول تجريد مفهوم النبوّة في واقعها الأصيل من فكرة القدرات الخارقة التي يتمتع بها النبيّ، أو صفة الملائكية غير البشرية: {قل لا أقولُ لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنّي ملك} (الأنعام:50).

انه – ﷺ، يؤمر من ربه أن يقدم لهم نفسه بشراً مجرداً من كل الأوهام التي سادت الجاهليات عن طبيعة النبي والنبوة، وإن يقدم لهم كذلك هذه العقيدة بذاتها مجردة من كل إغراء ..ولا ثراء ..ولا أدعاء ...إنها عقيدة يحملها رسول، لا يملك إلا هداية الله، تنير له الطريق، ولا يتبع إلا وحي الله يعلمه ما لم يكن يعلم.. ولا يقعد على خزائن الله ، ليغدق منها على من يتبعه ، ولا يملك مفاتح الغيب ليدل أتباعه على ما هو كائن؛ ولا هو ملك كما يطلبون أن ينزل الله ملكا..إنما هو بشر رسول؛ وإنما هي هذه عقيدة وحدها، في صورتها الناصعة الواضحة البسيطة وتصرّح بعض الآيات بفكرة النبيّ ـ الملك التي كانوا يزعمونها كأساس لرفض دعوته: {فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلاَّ بشرٌ مثلُكُم يُريد أن يتفضَّل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكةً ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوَّلين} (المؤمنون:24).
وهكذا يطرح القرآن قصة نوح وقومه، ليؤكد في أكثر من آية، من خلال الأدلة التي انطلقت فيها رسالته، خطأ الفكرة التي كان يزعمها قومه، في التنافي بين البشرية والرسالة، وتمتدّ القضية إلى بقية الأنبياء، كما حدّثنا بذلك، ماذا قال أقوام نوح وعاد وثمود ومن بعدهم لرسلهم ؟و الحق سبحانه وتعالى يقول : (...قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{10}(إبراهيم : 10).
وقوم ثمود الذين قالوا لنبيهم صالح: {فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ{24}(القمر: 24).
وعن موسى عليه السلام، عندما كذب به قوم فرعون ..ماذا قالوا؟
(فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ{47})(المؤمنون : 47)(5).
ويلخص القرآن الكريم الجانب التاريخي لرفض فكرة التنافي بين البشرية والنبوّة، ليشمل تاريخ الأنبياء السابقين، فيقرر أنَّهم كانوا ـ بأجمعهم ـ بشراً، لهم كلّ صفات البشر الجسدية، في كلّ ما يقتضيه ذلك من ضعف وقوّة.. وذلك هو قوله تعالى: {وما أرسلنا قبلك إلاَّ رجالاً نُوحي إليهم فاسألوا أهل الذِّكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطَّعام وما كانوا خالدين} (الأنبياء:7-8).

(4). مرجع سابق ذكره (2) (4 : 1871).

ردًا على من أنكر بعثة الرسل من البشر؛ أي جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالا من البشر لم يكن أحد من الملائكة، واسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف، هل كلن الرسل الذين أتوهم بشرا أو ملائكة ؟ وقوله: {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ }(الأنبياء8).أي بل قد كانوا أجسادا يأكلون الطعام، كما قال تعالي : {وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً }(الفرقان: 20 (6)).

ثم جاء الحق سبحانه وتعالى بالقضية كلها مجملة في قوله تعالى: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{5} ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (التغابن : 5-6)(7).

أمّا الأسلوب الثاني: فتواجهنا فيه الآيات الكريمة التي ترفض رسالة النبيّ من خلال البشرية والطاقات العادية، قال تعالى: {وقالوا مال لهذا الرَّسول يأكل الطَّعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملكٌ فيكون معه نذيراً * أو يُلقى إليه كنزٌ أو تكون له جنَّةٌ يأكل منها وقال الظَّالمون إن تتَّبعون إلاَّ رجلاً مسحوراً * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلاً} (الفرقان:7-9).

والله لم يراد لرسوله ﷺ، إن يكون له كنز ولا تكون له جنة ، لأنه أراد أن يكون قدوة كاملة لأمته ؛ ينهض بتكاليف رسالته الضخمة الهائلة، وهو في الوقت ذاته يسعى لرزقه كما يسعى رجل من أمته ..لقد كان رسول الله ﷺ، مكفى الحاجة، لا يعاني صراع العيش، ومن ثم فرغ لعقيدته ورسالته وتكاليفه، فلم يعوقه عائق(8).

ويتابع القرآن الكريم، الجانب الثاني من الحوار، في السورة نفسها في قوله تعالى: {*وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاَّ إنَّهم ليأكلون الطَّعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربُّك بصيراً*} (الفرقان:20).

(5)مرجع سابق ذكره (1)، (ص : 58) .
(6) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، (2 : 500).
(7)مرجع سابق ذكره (5) ، (ص : 58).
(8) مرجع سابق ذكره (2)، (5 : 2553).

ونلتقي ـ في هذا الاتجاه ـ بالآيات الكريمة التي تعرض الخطأ وتحاول أن تناقشه: {وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجّر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنَّةٌ من نخيل وعنبٍ فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تُسقط السَّماء كما زعمت علينا كِسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيتٌ من زخرف أو ترقى في السَّماء ولن نؤمن لرُقيّك حتى تُنزّل علينا كتاباً نقرأهُ قل سبحان ربّي هل كنت إلاَّ بشراً رسولاً * وما منع النَّاس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلاَّ أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً * قل لو كان في الأرض ملائكةٌ يمشون مطمئنين لنزَّلنا عليهم من السَّماء ملكاً رسولاً }(الإسراء:90-95).

وهكذا كان توجيه الله تعالى نبيه ﷺ، إلى الجواب بهذه الجملة الموجزة البليغة (*سبحان* ربّي هل كنت إلاَّ بشراً رسولاً)،وقد تضمنت التعجب الإنكاري من مطالبهم المتعنتة القائمة على حب المغالبة وكسب القضية لصالحهم ولو خرجوا من منطق العقل السليم، كما تضمنت بيان مهمة الرسول ﷺ، في هذه الحياة، وهي أنه رسول من عند الله تعالى، يبلغ رسالته، ويقيم الحجة على الناس بذلك، وينفذ شريعة الله جل وعلا، فإذا فعل ذلك فقد أدى مهمته بنجاح، وليس للمخالف أن يطالبه بما فوق مقدرته كبشر، ولا بأن يتجاوز ما حدد الله تعالى له كرسول، ولقد تبين كذبهم في ادعاء قبول الإسلام لو تحققت لهم هذه المطالب في نفس ذلك المجلس الذي طلبوها فيه حيث قال أحدهم وهو عبدالله ابن أمية لرسول الله ﷺ- بالرغم من كونه ابن عمته -: والله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك)، وهذه المقالة تعتبر مثلا من واقع المشركين الذي بينه الله تعالى بقوله: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ }(الحجر:14).

{لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ }(الحجر: 15)(9). .

ونرى في هذه الآيات، أنَّهم من منطلق تصوّرهم الخاطئ واجهوا الرّسول بهذه المقترحات باعتبارها الأساس لإثبات رسالته؛ كونها تمثّل ما يتمتع به من القدرات غير العادية.. وكان الجواب الهادئ البسيط منطلقاً من تأكيد فكرة البشرية التي لا تلتقي مع كلّ هذا الحشد من الاقتراحات، واعتبار الرسالة ـ بعد ذلك ـ هي الميزة الوحيدة التي تميّزه عن الآخرين، ممّا هو غير عادي في حياته.. ثمَّ تضيف الآية تقرير التصوّر الخاطئ في تاريخ الشعوب التي عايشت النبوّات، الذي يقضي برفض فكرة الرّسول، وقد رد عنها القرآن الكريم ، رداً واحداً، قال تعالى: {انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً } (الإسراء : 48)(10).

(9)السيرة النبوية ، عبد العزيز بن عبدالله الحميدي ، (1 : 177،178).

(10)مرجع سابق ذكره (1) ، (5 : 2553).

المبحث السابع /الإسراء والمعراج

في تلك الظروف القاهرة والإحداث العصيبة، حدث الإسراء والمعراج، ولعل الله أراد به نوعاً من الدعم النفسي، ليثبت الرسول في محنته، وتأييد لدعوته.

ومن خلال تناولنا لهذا الحدث الجلل، في مسيرة دعوة النبي ﷺ، فأن علماء السيرة يختلفون في تحديد الزمن الدقيق لقضية الإسراء والمعراج.

فبينما يرى البعض أنه كان قبل وفاة أبي طالب وخديجة ويرجح آخرون حدوثه بعد ذلك، بل البعض يذكر أنه كان قبل الهجرة إلي المدينة بسنة أو بستة عشر شهراً(1).

(كان الإسراء قبل الهجرة والحق أنه عليه السلام أسرى به (يقظة) لا (مناماً) من بيت مكة إلي المقدس (2).

وقضية الإسراء والمعراج ذائعة مشهورة، وما يهمنا ما ترتب عليها؛ ردود أفعال المشركين وبعض المسلمين، في قوله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ{1})الإسراء(1)).

كما أشار إلى المعراج في قوله: (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى{13} عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى{14} عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى{15} إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى{16} مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى{17} لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى{18})(النجم : 13..18.)

وعندما أذاع الرسول ﷺ، حديث الإسراء والمعراج في مكة كان لذلك صدى عميق في نفوس من سمعوه، أما المشركون فنعلم مسبقا الإنكار التام، فهم بالأصل؛ قد أنكروا بعثت الرسول ﷺ، فلا يكون من السرد المقنع أن نتوقع غير ذلك.

بل رأوا في قضية الإسراء والمعراج دافع قوي لمحاربة الدعوة، حتى من الذين أسلموا، وهذا يؤكد ما طلبه" أبو جهل "، عندما طلب ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال له: (أرأيت ان دعوت قومك لك لتخبرهم، أتخبرهم بما أخبرتني به ؟ قال: نعم .فجمع له أبو جهل قريشا وقال للرسول: أخبر قومك بما أخبرتني به! فقص عليهم رسول الله ﷺ، خبر ما رأي وأنه جاء بيت المقدس هذه الليلة ، وصلى فيه ! " فمن بين مصفق ومصفر تكذيباً له واستبعاداً لخبره(3).

(1) الرسول ﷺ حياته وتطور الدعوة ،عبد الرحمن أحمد سالم ،(ص : 39) دار الفكر العربي ، القاهرة – 2006م .
(2) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، (2 : 359) .
(3) مرجع سابق ذكره (1) ، (ص : 93).

وأما المسلمون فيتضح موقفهم من خلال الرؤية الصديقية، وقصدت بهذه اللفظة ما كان من ردت فعل أبا بكر رضي الله عنه.
فقد ذهب إليه الناس يخبرونه إن محمداً ﷺ، يقول انه اسرى به إلى المسجد الأقصى وعرج به من هناك، فقال أبابكر: إنكم تكذبون عليه!، فقالوا: والله انه ليقوله! فقل: (والله إن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟ !فوالله إنه الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه(4).

ويتضح من رد أبي بكر رضي الله عنه، من رده علي المشركين، بقوله: (إنكم تكذبون عليه !) كان خبر مفاجأة للمسامين عاماً، لا سيما أبا بكر رضي الله عنه، ولهذا فقد أرتد عند سماعه بذلك الحديث وكان ما سيستند إليه الكفار والمتشككون هو أن الإبل تسير شهراً من مكة إلي الشام ذاهبة، وشهر راجعة؛ فكيف يذهب محمد ويعود في ليلة واحدة؟! ومن هنا كانت قضية الإسراء والمعراج اختباراً ليقين المسلمين وتمحيصاً لإيمانهم، وفي مجمل السياق القرآني للقضية ذاتها؛ يقول الحق تعالى: (... وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ...) (الإسراء : 60)

وهنا نشير إلى؛ ما ثار من خلاف حول كيفية الإسراء والمعراج، فيرى جمهور المسلمين أن الإسراء كانا بالروح والجسد معاً، ويذهب البعض إلي إن الإسراء من مكة إلى بيت المقدس بالروح والجسد، وكان المعراج بالروح فقط، ويرى آخرون أن الإسراء والمعراج كليهما بالروح فقط، وهم يعتمدون على مفهوم كلمة الرؤيا التي جاءت في قوله: (... وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ...)؛ فالرؤيا في لغة العرب مصدر للفعل رأى؛ وينجم عنه مصادر كثيرة، إما إن يقال رأى رؤيا بألف الممدودة وإما إن يقال رأى رؤية بتا المربوطة، قالوا رؤيا(بتا المربوطة) يعنا بها الرؤية البصرية، ورؤية بألف الممدودة(الرؤيا) ويعنا بها الرؤيا المنامية (الأحلام).
ونذكر قول الصديق يوسف عليه السلام، عندما أخبر أباه، بقوله تعالى: (وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ) (يوسف :100) وهنا قال (رُؤْيَايَ) ولم يقول هذا تأويل (رؤية)
وفي هذا السياق عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت : ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن الله أسرى بروحه(5)).

(4) مرجع سابق ذكره (1) ، (ص : 94).
(5)مرجع سابق ذكره (2) ، (5 : 44).

ونذكر حديث رسول الله ﷺ: (تنام عيناي، وقلبي يقضان) وكان رؤيا منام، فيجب أن نلاحظ أن أول الوحي لرسول الله ﷺ، لا يرى رؤيا إلا وجاءت كفلق الصبح(6) "
فرؤيا النبي ﷺ ليست كرؤيانا، بل صدق لابد أيتحقق، ومثال ذلك ماحدث، من إرادة الله له رؤيا الفتح قال تعالى: (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً{27}) (الفتح : 27).

وقد أخبر صلى الله عيه وسلم، صحابته هذا الخبر، فلما ردهم الكفار عند الحديبية ، فقال الصحابة لرسول الله ﷺ: ألم تبشرنا بدخول المسجد الحرام؟ فقال: (ولكن لم أقل هذا العام)

لذلك يسمون هذه الرؤى رؤى الإيناس، وهي أن يرى النبي ﷺ، الشيء مناماً حتي إذا ما تحقق لم يفاجأ به، ومادام لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح فلا بد أن هذه الرؤيا ستأتي واقعاً وحقيقة، وقد يرى هذه الرؤيا مرة أخرى علي سبيل التذكرة بذلك الإياس.

فالرؤيا إيناس تحققت في الواقع، فلدينا رؤى الإيناس أولا، ورؤى التذكير بالنعمة ثانيا، وواقع الحادث في الحقيقة ثالثاً، وبذلك نخرج من الخلاف حول: أكان الإسراء يقظة أم مناماً(7).

ونؤكد إلى إن الإسراء كان نوعاً من التأييد، والترويح ،لكل ما يلقاه الرسول ﷺ، من التعب والإيذاء في سبيل الدعوة.

وفي تتبعنا لقضية الإسراء والمعراج هناك تفسير و رأي، "للدكتور هيكل " (فقد اعتبره استجماعاً ذهنياً ونفسياً لوحدة الوجود من الأزل إلى الأبد، في فترة من فترات التألق النفساني الفذ، الذي اختص به بشر نقي جليل مثل محمد ﷺ، وفي إبان التألق الذي استعلى به على كل شيء – استعرض حقائق الدين والدنيا، وشاهد صور الثواب والعقاب ..الخ .فالإسراء حق ..وهو – عنده – روحي لا مادي، ولكنه في اليقظة لا في المنام، فليس رؤيا صادقة كما يرى البعض، بل هو حقيقة واقعة على النحو الذي صوره، ثم قال فيه بعدئذ: ((وليس يستطيع هذا السمو إلا قوة فوق ما تعرف الطبائع الإنسانية))(8).

(6) صحيح البخاري ، باب بدء الوحي ، (رقم الحديث : 3).
(7) السيرة النبوية ، محمد متولي الشعراوي ،أعده عبد الرحيم محمد متولي ، (ص : 123) دار التوفيقية للتراث ، القاهرة – 2010م.
(8) فقه السيرة ، محمد الغزالي ، (ص : 136)، دار القلم ، دمشق ، ط4 – 1989م .

إن حكمة الإسراء تتيح لرسوله ﷺ، الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلبه ثقة به وتأيداً له، إذ يواجه قوى الطغيان والكفر والعناد.
فقبل إن يرسل الله موسى عليه الصلاة والسلام، شاء أن يريه عجائب قدرته، فأمر أن يلقي عصاه قال: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى{19} فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى{20} قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى{21} وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى{22} لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى{23}﴾(طه : 19 – 23).

فلما ملأ قلبه إعجاباً بمشاهد هذه الآيات الكبرى قال له بعد: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } (طه :24) .

وثمرة الإسراء والمعراج اطلاع الله نبيه على هذه الآيات الكبرى ويقول محمد الغزالي: (أن الخوارق في سير المرسلين الأولين قصد بها قهر الأمم علي الإقناع بصدق النبوة فهي تدعيم لجانبهم أمام اتهام الخصوم لهم بالادعاء، وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم فوق هذا المستوي(9).

فقد تكفل القرآن الكريم بإقناع أولى النهي من أول يوم، وجاءت الخوارق في طريق الرسول ﷺ، ضرباً من التكريم لشخصه، والإيناس له، غير معكرة، ولا معطلة للمنهج العقلي العادي الذي اشترعه الله.

وفي قصة المعراج ما هو من أصول هذا الدين؛ وهو إكمال البناء بين الأنبياء عليهم السلام.

يقول الحق: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ{285} (البقرة : 285) .

والتحيات المتبادلة بين النبي ﷺ، و أخوانه السابقين توثق هذه العلاقة، ففي كل سماء يحل بها يقول النبي ﷺ (مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح(10)، إن الخلاف بين الأنبياء هو من صنع الكهان والمتاجرون بالأديان.

(9)مرجع سابق ذكره (8) ، (ص : 140).
(10) نفس المرجع ، (ص : 141).

أما النبي ﷺ، أظهر أنه مرسل لتكملة البناء الذي تعده من سبقوه، ومنع الزلازل من تصعيده قال رسول الله ﷺ: ((مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زوايا فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ! ويقولون هل وضعت هذه اللبنة ؟ فأتا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين(11).
وفي ليلة الإسراء والمعراج تأكدت الصفة الأولى لهذا الدين وهي أنه دين الفطرة.
ففي الحديث (...ثم أنيت بإناء من خمر وانأ من لبن . فأخذت اللبن فقال: هي الفطرة التي أنت عليك و أمتك(12)).
أن شرب رسول الله ﷺ، اللبن حين خير بينه وبين الخمر، وبشارة جبريل عليه السلام هديت للفطرة، البشرية، تؤكد أن هذا الإسلام دين الفطرة البشرية، خلق لهذا الدين، الذي يلبي نوازعها واحتياجاتها، ويحقق طموحاتها، ويكبح جماحها قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } (الروم :30)(13).
وفي المعراج شرعت الصلوات الخمس، شرعت في السماء لتكون معراجاً يرقى بالناس كما تدلت بهم شهوات النفوس وأعراض الدنيا(14) .
فالصلاة فرضت على الأمة الإسلامية في ليلة عروجه ﷺ، إلى السموات، قال ابن كثير(رحمه الله): (اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها(15))، فالصلاة لها أهمية في حياة المؤمن، ولذلك فقد؛ أوصى بها رسول الله ﷺ، قبل وفاته(16).
ونختم في هذا المبحث ما ذكره الأستاذ أبو الحسن الندوي: ((لم يكن الإسراء مجرد حادث فردي بسيط، رأى فيه رسول الله ﷺ، الآيات الكبرى، وتجلى له ملكوت السموات والأرض، مشاهدة عياناً– بل زيادة إلى ذلك – اشتملت هذه الرحلة النبوية الغيبية علي معانٍ دقيقة كثيرة، وشارات حكيمة، بعيدة المدى: فقد ضمت قصة الإسراء، وأعلنت السورتان الكريمتان اللتان نزلتا في شأنه (الإسراء)، و(النجم) أن محمداً ﷺ، هو نبي القبلتين، وإمام المشرقين والمغربين، ووارث الأنبياء قبله ، وإمام الأجيال بعده، فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكة بالقدس، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى، وصلى بالأنبياء خلفه، فكان هذا إيذاناً بعموم رسالته وخلود إمامته وإنسانية تعاليمه، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزمان، و أفادت هذه السورة الكريمة تعيين شخصية النبي ﷺ، ووصف إمامته، وقيادته، وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها، وآمنت به، وبيان رسالتها، ودورها الذي ستمثله في العالم، ومن بين الشعوب والأمم(17).

(11) حديث صحيح أخرجه البخاري (6 : 436).
(12) رواه ابن حيان في صحيحه (192 – 198)، نقلا عن فقه السيرة ، للغزالي .
(13)السيرة النبوية ، علي الصلابي ، (1 : 228).
(14)مرجع سابق ذكره (8)، (ص : 143).
(15)مرجع سابق ذكره (2) ، (3 : 23).
(16)المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ، (2 : 93)عبد الكريم زيدان ، مؤسسة الرسالة ، ط1 – 1997م .
(17) الأساس في السنة ، أبو الحسن الندوي ، (1 : 292) .

المبحث الثامن /الجهر بالدعوة

يأمر الله عز وجل نبيه ﷺ، بالجهر بالدعوة؛ وبذلك تأخذ الدعوة مسار المواجهة، وهذا لا يعني أن النبي ﷺ، لم يأخذ بالأسباب؛ بل رسخ عقيدة ثابته في رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

ويعد الإعداد العظيم الذي قام به النبي لتربية أصحابه، وبناء الجماعة المسلمة المنظمة الأولى على أسس عقدية، وتعبدية، وخلقية رفيعة المستوى(1).

ويأتي الأمر بتبليغ الدعوة جهراً، بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ{214} وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{215}﴾ (الشعراء : 245 :

فجمع قبيلته ﷺ وعشيرته، ودعاهم علانية إلى الإيمان بإله واحد، وخوفهم من العذاب الشديد إن عصوه، وأمرهم أنقاد أنفسهم من النار، ويبين لهم مسؤولية كل إنسان عن نفسه(2).

قال ابن عباس لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ{214}﴾ (الشعراء : 214).

خرج رسول الله ﷺ، فصعد على الصفا، فهتف: (ياصباحاه) فاجتمعوا إليه، فقال: يابني فلان، يابني عبد المطلب، يابني عبد مناف فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً.

قال: فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبولهب: تبا لك إما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قال فنزلت﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ{1}﴾ (المسد : 1)(3).

ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول ﷺ، دعوة العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ إن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة، قد يعين على نصرته وتأييده، وحمايته، كما أن القيام بالدعوة في مكة لا بد إن يكون له اثر خاص، لما لهذا البلد من مركز ديني خطير، فجلبها إلى حظيرة الإسلام، لابد وإن يكون له وقع كبير على بقية القبائل، لأن الإسلام كما يتجلى من القرآن الكريم – اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية(4).

(1)السيرة النبوية ، علي الصلابي ، (1 : 120).
(2) رسالة الأنبياء ، عمر أحمد عمر ، (3 : 46)، دار الحكمة دمشق ط4 ، 1997م.
(3)الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ،(1 : 548) دار صادر ، بيروت.
(4)دراسات في السيرة ، عماد الدين خليل ، (ص : 66) دار النفائس ط11،بيروت ،- 1989م .

فقد جاءت الآيات المكية تبين عالمية الدعوة، قال تعالى:(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً{1}(الفرقان : 1).

إنَّ هذه الآية هي أصل سورة الفرقان؛ فقد نزلت إيناس لرسول الله ﷺ، وتطمين له، وتثبت له، وتقوية وهو يواجه مشركي قريش، وتطاوله عليه وعنادهم ومجادلتهم بالباطل وصدهم عن سبيل الله.

(ويرسم الغاية من تنزيل الفرقان على عبده .." ليكون للعالمين نذيراً" ..وهذا النص، وله دلالته على إثبات عالمية هذه الرسالة منذ أيامها الأولى، لا كما يدعى "المؤرخين" غير المسلمين، إن الدعوة الإسلامية نشأت محلية، ثم طمحت بعد اتساع رقعة الفتوح أن تكون عالمية، فهي منذ نشأتها رسالة للعالمين، طبيعتها طبيعة عالمية شاملة، ووسائلها وسائل إنسانية كاملة؛ وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلي عهد، ومن نهج إلى نهج، عن طريق هذا الفرقان الذي نزله الله على عبده ليكون للعالمين نذيراً، فهي عالمية للعالمين والرسول يواجه في مكة بالتكذيب والمقاومة والجحود...(5)) وقال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ{107}) (الأنبياء : 107)، وقال تعالى:(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{28}) (سبأ : 28).

ونشير إلى الدعوة؛ حيث انقسمت بين الحق والباطل، فأصبحت حرب تتخذ عدة مراحل: - المرحلة الأولى: هي مرحلة الرفض وتتمثل في " الإغراء " .

المرحلة الثانية : هي مرحلة العنف وتتمثل في " الإيذاء ".

المرحلة الثالثة : هي مرحلة المقاطعة وتتمثل في " الحصار "

المرحلة الرابعة : هي محاولة قتل النبي ﷺ، وتتمثل في " الاغتيال"

فالمرحلة الأولى: الرفض وتتمثل في((الإغراء))

تتمثل في الرفض التام لقبول رسالة النبي ﷺ، وحاول الكفار

(5) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، (5 : 2548).

أن يشككوا في نبوته، وأنه رسول الله المكلف بالرسالة، فقالوا لست نبياً ولا رسولاً، وفي هذا يقول الحق ﷻ: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ{43}) (الرعد : 43).
ولم يجد هذا التشكيك شيئاً، فاستمرت الرسالة تنتشر وعدد المؤمنين يزداد(6).

وفي ما يخص اعتراض المشركين، فقد تنوع شكلاً ومضموناً و تناولها في مبحث مستقل بشيء من التفصيل.

وجاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ..، فانهه عنا ..، فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ: إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم، فحلق رسول الله ببصره إلى السماء، فقال: ((ترون هذه الشمس ؟)). قالوا نعم، قال : ((فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشغلوا منها بشعلة)).

وفي رواية: (والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحد من هذه الشمس شعلة من نار) فقال أبو طالب:(والله ما كذب ابن أخي قط ، فارجعوا راشدين(7).

وجاءت قريش مرات عديدة، للضغط على رسول الله ﷺ، بواسطة عائلته ولكنها فشلت(8).

ومع هذا كله، فإن الدعوة أخذت مواجهة مباشرة جادة، فحاولوا أغراء النبي ﷺ، حينئذ قال الكفار نعطيه، ونغريه لعله يترك هذه الدعوة وينصرف عنها ،وقالوا: إن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالاً وإن كنت تطلب الشرف سودناك علينا وإن كنت تريد ملكاً جعلناك ملكاً علينا.

ومن الجدير بالذكر، إن الدعوة قد انتشرت؛ وعمت أرجاء مكة والتمسوا ذلك في قوة عقيدة من اسلموا، من الصحابة، ولكي يغيروا مسار الدعوة من أيماني

(6)السيرة النبوية ، محمد متولي الشعراوي ، أعده عبد الرحيم محمد متولي ، (ص : 108) دار التوفيقية للتراث ، القاهرة – 2010م .

(7)صحيح السيرة النبوية ، إبراهيم العلي ، (ص : 78) ،دار النفائس ط3– 1998م.

(8)مرجع سابق ذكره (1) ، (ص : 131).

عقائدية، إلى دعوة مادية بحثه، عرضوا عليه العروض المغرية لعله يستجيب لمطالبهم ويحيد عن الدعوة، فما رد رسول ﷺ؟

فقال رسول الله صلى عليه وسلم: ((ياعم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على إن اترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو اهلك فيه ما تركته(9) . (إن سمة هذا الدين الأولى وشعاره المميز الأول التركيز على العقيدة أولا وقبل كل شيء، فما زال الأنبياء من لدن آدم إلى خاتم الرسل محمد ﷺ، يدعون إلى عقيدة معينة يوحي بها إليهم، يدعون إليها، ويطالبون بها، لا يقبلون عنها صرفاً ولا عدلاً، ولا يبغون بها عوضاً ولا بدلاً(10)، وهكذا وضع الرسول ﷺ، الدنيا التي يتقاتل عليها الناس في موضعها الحقيقي ..فليست هذه الحياة التي يرجوها المؤمن ..إن الدنيا عند المؤمن هي وسيلة للوصول إلى رضا الله في الآخرة ..وفشل الإغراء ..وفشلت المرحلة ..واقتنع الكفار أنهم لن يستطيعوا ثني رسول الله ﷺ، بالإغراء بكل كنوز الدنيا، وكذلك في قول الرسول ﷺ، ..لعمه أبي طالب، وفي رفضه ما عرضته عليه قريش من مال وملك، دليل على صدقه في دعوى الرسالة، وحرصه على هداية الناس، وكذلك ينبغي أن يكون الداعية مصمماً على الاستمرار في دعوته مهما تألب عليه المبطلون، معرضاً عن إغراء المبطلين بالجاه والمناصب، فالمتاعب في سبيل الحق لدى المؤمنين راحة لضمائرهم وقلوبهم، ورضى الله وجنته أعز وأغلى من كل مناصب الدنيا وجاهها أموالها(11).

أن المبطلين لا يستسلمون أمام أهل الحق بسهولة ويسر، فهم كلما أخفقت لهم وسيلة من وسائل المقاومة والقضاء على دعوة الحق، ابتكروا وسائل أخرى نفس وهي مرحلة الإيذاء وتتمثل في" العنف " وهي أصعب مرحلة يمر بها المسلمون، وأرى أن هذه الفترة؛ تشكلت ألبناً الأساسية في تشكل البناء العقائدي الثابت الصلب، والذي من خلاله استطاع النبي ﷺ، بناء رجال لا يخافون في الله لومة لائم.

(9)السيرة النبوية ، لابن هشام ، (1 : 170) .

(10)العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية ، أبو الحسن علي الحسني، (ص : 22) دار القلم ، الكويت – 1983م .

(11)السيرة النبوية دروس وعبر ، مصطفي السباعي ، (ص : 50)، المكتب الإسلامي ، ط 8 – 1985م .

وهذا؛ بعد الإعداد الرفيع الذي قام به النبي ﷺ، لتربية أصحابه وبناء القاعدة الصلبة على عقيدة متينة، وآمنيه وتنظيمية، وبعد أن قطع المرحلة السرية بكل نجاح وتفوق(12).

المرحلة الثانية: هي مرحلة العنف وتتمثل في(الإيذاء)

ومع مرحلة الإيذاء زادت الأحوال سواء، مات أبو طالب، عم الرسول في السنة العاشرة من البعثة، وكان في حياته شديد الدفاع عن ابن أخيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت قريش لا تستطيع أن تنال النبي بأذى في نفسه طيلة حياة أبي طالب احتراماً له وهيبة، وأن المرء ليسمع عجباً، ويقف مذهولاً أمام مروءة أبي طالب مع رسول الله ﷺ، فقد ربط أبو طالب مصيره بمصير ابن أخيه محمد ﷺ، بل واستفاد من كونه زعيم بني هاشم أن ضم بني هاشم، وبني المطلب إليه في حلف واحد، على الحياة والموت، تأييداً لرسول الله ﷺ، مسلم هم ومشركهم علي السواء(13).

لقد كان كسب النبي ﷺ، لعمه وجذبه إلى صفة للدفاع عنه، نصرا عظيماً، وقد استفاد ﷺ، من العرف القبلي فتمتع بحماية العشيرة، ومنع من أي اعتداء، وأعطى حرية التحرك، والتفكير، وهذا يدل على فهم النبي ﷺ؛ للواقع الذي يتحرك فيه، وفي ذلك درس بالغ للدعاة إلى الله تعالى، للتعامل مع بيئتهم ومجتمعاتهم، و الاستفادة من القوانين والأعراف والتقاليد لخدمة دين الله(14). وهكذا، جرؤت قريش على تشديد الأذى للنبي ﷺ، ولذلك كانت وفاته مبعث حزن عميق للنبي ﷺ، وقد حرص النبي أن يقول أبو طالب كلمة الإسلام وهو على فراش الموت، فأبى خشية أن يلحقه العار من قومه(15)، ولم يزل النبي ﷺ، يأمل في هداية عمه، وأقبل على عمه؛ فقال: قل كلمة أشهد لك بها يوم القيامة، قال: لولا أن تعيبكم بها العرب، وتقول جزع من الموت لأعطيتكها، ولكن على ملة الأشياخ، فنزلت: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }القصص56 ،(16).

(12)تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين ، علي الصلابي ، (ص: 38)، مكتبة الصحابة ط1، الإمارات ، الشارقة – 2001م .
(13) فقه السيرة النبوية ،منير الغضبان،(ص : 184)، مهد البحوث العلمية والتراث ، مكة المكرمة.
(14) مرجع سابق ذكره (1) ، (ص : 133).
(15)مرجع سابق ذكره (11) ، (ص : 53) .
(16) الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ، (1 : 588).

وفي رواية أخرى قال النبي ﷺ: ((لاستغفرن لك .....))قال تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ }التوبة113))(17).

وبعد وفاة أبى طالب بنحو شهرين أو ثلاثة أيام – على اختلاف القولين – توفيت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وكانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة، ولها خمسة وستون على أشهر الأقوال، ورسول الله ﷺ، إذ ذاك في الخمسين من عمره(18) .

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام؛ نروى حديث النبي ﷺ، وما أثر فيه عند وفات أم المؤمنين رضي الله عنها، وسمى ذلك العام عام الحزن.

يقول رسول الله ﷺ: ((آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبتني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرم ولدها غيرها)(19).

ولا شك أن المرأة الصالحة تساهم في نجاح المرء، وقد اتضح ذلك في موقف خديجة رضي الله عنها، وما قامت به في الوقوف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهو يواجه الوحي لأول مرة، ولا شك أن الزوجة الصالحة المؤهلة لحمل مثل هذه الرسالة، لها دور عظيم في نجاح زوجها في مهمته في هذه الحياة، وبخاصة الأمور التي يعامل بها الناس، وإن لدعوة إلى الله تعالى هي أعظم أم يتحمله البشر، فإذا وفق الداعية لزوجة صالحة ذات كفاءة، فإن ذلك من أهم الأسباب نجاحه مع الآخرين، وصدق رسول الله ﷺ، إذ يقول: (الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة)(20).

ومع مرور الأيام زادت فترة الحزن، على النبي ﷺ ، فتتنزل عليه الآيات؛ تأمره بالصبر والثبات، وتنهاه عن الحزن، ومن ثم تضرب له أمثلة من واقع المرسلين؛ وذلك قوله تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً }المزمل10 .

{وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ }النمل70. وقوله تعالى: {مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ }فصلت43.

(17)مرجع سابق ذكره (11)، (ص : 57) .

(18) صحيح البخاري ، باب قصة أبي طالب (1 : 548) .

(19) رواه الإمام أحمد في مسنده (6 : 118) نقلا عن ؛ الرحيق المختوم ،صفي الرحمن المبارك ، (ص : 117، 118).

(20)رواه مسلم ، كتاب الرضاع ؛(رقم 1467 ، ص 1090).

وبدأت المرحلة الجادة؛ في تعذيب المؤمنين، وقالوا لأنفسهم إذا كنا لم نقدر على محمد فإننا نقدر على أتباعه، سنعذبهم تعذيبا يصل إلى حد القتل، حينئذ سينصرف الناس عنه ولن يجد واحد يؤمن برسالته، وبدأت مرحلة التعذيب(21)، وتحمل الصحابة رضوان الله عليهم من البلاء العظيم ما تنوء به الرواسي الشامخات، وبذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل الله وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ، ولم يسلم أشراف المسلمين من هذا الابتلاء، فلقد أوذي أبوبكر رضي الله عنه، وحتى على رأسه التراب، وضرب في المسجد الحرام بالنعال، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحمل إلى بيته في ثوبه، وهو ما بين الحياة والموت(22).

ويقول الحق في هذا المقام، بقوله تعالى: (مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{106})(النحل : 106)، فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وآذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله(23).

والنص هنا يغلظ جريمة من كفر بالله من بعد إيمانه، لأنه عرف الإيمان وذاقه، ثم ارتد عنه إيثارا للحياة الدنيا على الآخرة، فرماهم بغضب من الله، وبالعذاب العظيم،...واستثنى من ذلك الحكم الدامغ من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان، أي من أظهر الكفر بلسانه نجاة لروحه من الهلاك، وقلبه ثابت على الإيمان مرتكن إليه مطمئن به(24).

(21)مرجع سابق ذكره (6)، (ص : 108 ، 109) .
(22)التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم ،محمد السيد حمد ، (ص : 243) ،دار السلام ط1 ، مصر -1997م
(23)تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، (1 : 605).
(24)مرجع سابق ذكره (5) ، (4: 2196).

وقد روى أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه، أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئنا بالإيمان، قال النبي صلى الله عليه وسلم، إن عادوا فعد((25))، وبشر آل ياسر بالجنة، فقال: (أبشروا آل ياسر، موعدكم الجنة(26)))

وقد رفض المسلمون إن يظهروا الكفر بلسانهم مؤثرين الموت على لفظة باللسان، كذلك صنعت سمية أم ياسر، وهي تطعن بالحربة في موضع العفة حتى تموت وكذلك صنع بأبي ياسر، وكذلك، بلال رضي الله عنه، يفعل المشركون به الأفاعيل حتى ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله، فيأبى عليهم وهو يقول: أحد، أحد، ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها، ولم يكن يملك ﷺ، أن يدفع عن أتباعه المستضعفين شيئا من العذاب ينزله بهم قومهم دون رحمة (27).

ولعلنا نتساءل ما الحكمة في عدم مشروعية القتال بموجب الدفاع عن النفس في هذه المرحلة العصيبة والصعبة؟ ويلمس عليه الصلاة والسلام من واقع أصحابه، وملابسات أحوالهم، برميهم بالعذاب الذي يلاقون، حتى يفتنوا عن دينهم، ويستعلى عليهم الكفرة، ويموت منهم من يموت تحت التعذيب، وقد لا يكون من الميسور أن يدرك المرء بمجرد قراءة النص – حقيقة الحال التي كانوا عليها حين طلبوا منه عليه الصلاة والسلام – الدعاء والاستنصار، ولا أن يعرف المشاعر والإحساسات التي كانت تثور في نفوسهم إلا إن يعيش حالاً قريباً من حالهم ويعاني في سبيل الله، فقال عليه الصلاة والسلام: ((كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشق باثنين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله لتيمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون(28))).

(25) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، (2: 344).
(26) رواه الحاكم في المستدرك ،(3 : 388).
(27)الغرباء الأولون ، سلمان العودة ، (1 : 106)،دار ابن الجوزي ط3 ، الذمام ، السعودية – 1991م.
(28) رواه البخاري،كتاب المناقب ، ب –علامات النبوة في الإسلام ، ورقمه (3612).

لقد كان ﷺ، يربيهم على التأسي بالسابقين من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، و أتباعهم، في تحمل الأذى في سبيل الله ويضرب لهم الأمثلة في ذلك، والتعلق بما أعده الله في الجنة للمؤمنين الصابرين من النعيم، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدنيا، والتطلع للمستقبل الذي ينصر الله فيه الإسلام في هذه الحياة الدنيا، ويذل فيه أهل الذل والعصيان، وثمة أمر أخر كبير إلا وهو: أنه ﷺ مع هذه الأشياء كلها كان يخطط ويستفيد من الأسباب المادية المتعددة، لرفع الأذى والظلم على أتباعه، وكف المشركين عن فتنتهم، وإقامة الدولة التي تجاهد في سبيل الدين، وتتيح فرصة لكل مسلم أن يعبد ربه حيث شاء، وتزيل الحواجز والعقبات، التي تعترض طريق الدعوة إلى الله(29)، وقال تعالى: ((حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ{110})) يوسف :110)

إنها صورة رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل عليهم السلام، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود، وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل، وتمر الأعوام والباطل في قوته، وكثرة أهله، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة.

وما يقف الرسول ﷺ، هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه البشر، وما قرأت هذه الآية والآية الأخرى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ }البقرة:214.

وما نقرأ هذه الآية أو تلك إلا و نشعر بالمعاناة الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ ، ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس، والكرب المزلزل الذي يرج نفس الرسول هذه الرجة، وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات، وما يحس به من ألم لا يطاق، في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة ...في هذه اللحظة يجيء النصر كاملا حاسما فاصلا. (.....جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ }يوسف110. (30).

(29)مرجع سابق ذكره (27)، (1 : 146). (30)مرجع سابق ذكره (5)،(4: 2035 ، 2036).

(30)مرجع سابق ذكره (5)، (4 : 2035 – 2036).

المرحلة الثالثة: هي مرحلة المقاطعة وتتمثل في((الحصار))

وتبدأ مرحلة المقاطعة وتتمثل في حصار النبي ﷺ، وأصحابه.

وبالتحديد في محاصرة بني هاشم ...ومنعوا عنهم الطعام واحكموا الحصار وشددوا على ذلك، بنشرهم الصحيفة كمنطلق واتفاق ملزم لقريش على حصار الرسول ﷺ، وبلغ الأذى شدته في الحصار المادي والمعنوي.

ويقول الزهري: ((ثم أن قريش اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، وأجمعت قريش في مكرها، أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية؛ فلما بلغ رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ، شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً، فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ، فأجمعوا أمرهم ألا يجالسوهم، ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق على ذلك؛ إلا يتقبلوا من بني هاشم أبداً صلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلموه للقتل(31).
وفي رواية أخري: (...على إلا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ولا يعوا سبب من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفة، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلموهم، ولا يدخلوا بيوتهم، حتي يسلموا إليهم رسول الله للقتل، ثم تعاهدوا وتوثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداًعلي أنفسهم(32)، وأحكم الحصار الذي استمر ثلاث سنوات، أكلوا خلالها الجلود وورق الشجر .. حتى قام بعض شباب قريش بنقض صحيفة المقاطعة، وعندها شقوا الصحيفة ((وبعد أن دار الكلام بين القوم وأبي جهل، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا "" باسمك اللهم "" وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله(33).
ثم نقض الصحيفة وخرج رسول الله ﷺ، ومن معه من الشعب، وقد رأى المشركون أية عظيمة من آيات نبوته، ولكنهم – كما أخبر الله عنهم عزوجل : (وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ{2}(القمر : 2)(34).

(31)دلائل النبوة، للبيهقي ، (2 : 80- 85) ، السيرة النبوية ، لابن كثير، (2 :43-72)، الروض الأنف ،للسهيلي، (2: 101- 129).

(32)السيرة النبوية لابن هشام ، (1 : 350)، زاد المعاد ،عبدالله بن القيم، (2 : 46)، الكامل في التاريخ،لابن الأثير، (2 : 87).
(33) مرجع سابق ذكره (19)، (ص : 112- 114).

ومع نقض الصحيفة زاد إيذاء الكفار للمؤمنين، وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة ورفض النجاشي تسليمهم لكفار .... وانتشار الإسلام بين القبائل يزداد يوما بعد يوم.

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين، و استمساكهم بدينهم، ورفعة نفوسهم فوق كل باطل، بدأت خطوط اليأس في نفوسهم، من أن المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم؛ فسلكوا مهزلة أخرى من مهازلهم الدالة على طيش أحلامهم، ورعونتهم الحمقاء، ...الوليد بن الغيرة، وأمية بن خلف ...فقالوا يا محمد، هلم نعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراًمما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه

فأنزل الله فيهم:((قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6})) الكافرون : 1-6). ومثل هذه السورة آيات أخري تشابهها ، في إعلان البراء من الكفر وأهله ، مثل قوله تعال : {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ }يونس41.

وقوله تعالى: (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ{56} قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ{57}}) (الأنعام : 56 – 57).

إنَّ الدعوة الإسلامية تحقق انتصارات رائعة في الحبشة، وفي نجران، ..وفي غفار، وكانت تتم في خط واضح، سيكون سنداً للإسلام والمسلمين، ومراكز قوية يمكن إن تتحرك في اللحظة الحاسمة، وامتدادات للدعوة، تتجاوز حدود مكة الصلدة المستعصية (35).

(34)مرجع سابق ذكره (19)، (ص : 114).
(35) مرجع سابق ذكره (1)، (ص : 185).

أ : أقراره بالأخذ بالأسباب ﷺ:

ومن السنن الربانية التي تعامل معها النبي ﷺ، الأخذ بالأسباب، التي تتطلبها المرحلة الدعوية، وهو كل شيء يتوصل إلى غيره، وسنة الأخذ بالأسباب مقررة في كون الله تعالى، بصورة واضحة، فلقد خلق الله هذا الكون بقدرته وأودع فيه من القوانين والسنن، ما يضمن استقراره واستمراره، وجعل المسببات مرتبطة بالأسباب بعد أرادته تعالى ...ولقد وجه الله عباده إلى وجوب مراعاة السنة، في كل شؤونهم الدنيوية والأخروية سواء قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } (التوبة105).

وقال تعالى:{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ }(الملك : 15).

ولقد أخبرنا القرآن الكريم: أن الله تعالى طلب من السيدة مريم أن تباشر الأسباب وهي في أشد حالات ضعفها، قال تعالى: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً }مريم25.(36).

وهكذا كان النبي يوجه صحابته في الأخذ بالأسباب والتوكل على الله، وعدم الاستهانة أو التواكل والاستكانة في غير الأخذ بالأسباب؛ يقول ﷺ: ((أعقلها وتوكل (37) .

أن النداء اليوم موجه إلى الأمة في النهوض والتحول من مرحلة السلبية؛ إلى مرحلة البناء والتشييد، والوصول إلى الإبداع الحضاري الموصول برب العالمين.

أولا الهجرة إلي الحبشة :

اشتد البلاء عل أصحاب رسول ﷺ، وجعل الكفار يحسبونهم ويعذبونهم، بالضرب والجوع والعطش، ورمضاء مكة والنار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من تصلب في دينه، وعصمة الله منهم؛ فلما رأى رسول الله ﷺ، ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء.

(36)مرجع سابق ذكره (1) ، (ص : 188).
(37) رواه الترمذي (4 : 1476) كتاب صفة القيامة ، باب (60) ورقمه(2517)وحسنه الألباني رحمه الله.

قال لهم: (لو خرجتم إلى ارض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده احد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه(38).
ومن خلال المصادر فَإن الهجرة إلى الحبشة كانت؛ في السنة الخامسة من البعثة (هاجر جماعة من الصحابة إلى الحبشة – بإذن رسول الله ﷺ – حفاظاًعلي دينهم، منهم: عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وجعفر بن أبي طالب، فأقاموا بها عشر سنين(39).

والحفاظ على الدين في رأينا، من أهم الأسباب التي دعت؛ إلى الهجرة للحبشة، وفي ذلك قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً }النساء97 .

وقوله تعالى: {وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً }النساء100 .

إذا فالهجرة واجبة طالما كنت مستضعف، وخائف على دينك من الفتنة؛ قال ابن إسحاق: (فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم(40).

ومنها نشر الدعوة خارج مكة، وقال الأستاذ السيد قطب "رحمه الله" (ومن ثم كان الرسول يبحث عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة تحمي هذه العقيدة، وتكفل لها الحرية، ويتاح فيها ان تتخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة، وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة، وهذا في تقديري كان هو السبب الأول والأهم للهجرة(41).

ولا شك إن الهجرة لها ثمرة أخرى غير دفع الأذى، والاعتصام منه ومنع الفتنة التي أرهقوا بها عسراً، وهذه الثمرة هي التعريف بالإسلام، و بالمبادئ السامية ،فقد وقف جعفر بن أبى طالب المتحدث باسم المهاجرين أمام النجاشي

(38) الهجرة في القرآن الكريم ، أحزمي سامعون ،. (ص : 290)، مكتبة الرشد ط1، الرياض -1996م .
(39) السير والمغازي (123) ، البداية والنهاية، (3 : 72)، نقلا عن ؛ الخلاصة البهية في ترتيب إحداث السيرة النبوية ، جمع وترتيب ، وحيد عبدا لسلام بالي .دار الفوائدط2– القاهرة ، 2007م .
(40) السيرة النبوية ، لا بن هشام (1 : 398) .
(41) مرجع سابق ذكره (5)، (1 : 29).

يبين الحقائق الإسلامية، وما يدعوا إليه دين الوحدانية من صلة الأرحام ،والحث على مكارم الأخلاق، وما يمنعه من فساد الجاهلية والعصبية المعرفة ..... أن الهجرة إلى الحبشة تعرف النصارى بالإسلام، فهي تزرع الإسلام في أرض غير أرض مكة وتباينها، كما أن الهجرة من بعد ذلك إلى المدينة كان فيها تعريف اليهود بالإسلام ودعوتهم إليه(42)، أنه اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم، الهجرة إلى الحبشة، يشير إلى نقطة استراتيجية هامة، تمثلت في معرفة الرسول ﷺ، بما حوله من الدول والممالك، فكان يعلم طيبها من خبيثها، وعادلها من ظالمها، الأمر الذي ساعد على اختيار دار آمنة لهجرة أصحابه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدعوة، الذي لابد أن يكون ملما بما يجري حوله، مطلعا على أحوال وأوضاع الأمم والحكومات، إن وعي النبي وثقافته في القيادة السياسية؛ على مستوى عالي في تعين السفراء، ولذلك وضع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، على إمارة المسلمين في الهجرة، وتم اختياره من قبل المسلمين ليتحدث باسمهم بين يدي الملك، وليتمكن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص(43)، وبذلك انهزمت قريش في هذه الجبهة سياسياً ومعنوياً وإعلامياً، أمام مقاومة المسلمين الموفقة وخطواتهم، وأساليبهم الرصينة(44).

ثانيا: الهجرة إلي المدينة :

قبل الخوض في أحداث الهجرة، كان علينا واجباً إن نذكر جملة من التفصيلات و الأحداث النبوية ضمن أطار الدعوة؛ فهي جزء من تفاعلات تاريخية، قادت للهجرة إلي المدينة.

أ- إلى الطائف: -

ولما اشتد على الرسول ﷺ، كيد قريش وأذاها بعد وفاة عمه وزوجه، توجه إلى الطائف لعله يجد في ثقيف حسن الإصغاء لدعوته والانتصار لها، ولكنهم ردوه رداً غير جميل، وأغروا به صبيانهم، فقذفوه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الطاهرتين عليه الصلاة والسلام(45).

(42)خاتم النبيين ، محمد أبو زهرة ، (1 : 490)، دار الفكر ط1 ، بيروت ، 1972م.
(43)مرجع سابق ذكره (1) ، (ص : 203).
(44)نفس المرجع (42)، (ص : 206).
(45)مرجع سابق ذكره (11)، (ص : 54).

وهنا تجلى قوة وعظمة النبي ﷺ، وتسامحه، وعطفه، وقوة إيمانه وهو يلجأ إلى رب الكون بالدعاء، وهو في محنته((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني (وجه كريه وهي كناية عن العداوة والبغضاء) أو إلى عدو ملكته أمري؟ ان لم يكن بك غضب-على فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع ....ولا حول ولا قوة إلا بك(45).

وهنا يعلمنا عليه الصلاة والسلام، الأخذ بالأسباب، والدعاء، والرجوع إلى الله، والتوكل عليه، وقد اظهر النبي ﷺ، عفوه، وصفحه، ورحمته النبوية بقوله: (وهواني علي الناس)، ولما كان أهل الطائف أصحاب أملاك وبساتين، وثراء ورخاء، أورثهم كل ذلك الكبر وجعلهم مصدقاً لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ }{وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } (سبأ : 35-34) ، وهكذا ؛ دخل ﷺ، مكة عائدا من الطائف في الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة عشر من البعثة(46)، وهنا لم يضعف النبي ﷺ، من عزيمته في مواصلة الدعوة، لأن التكليف عنده منوط بالتبليغ للناس كافة؛ وبذلك الأمر متروك: {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ..... }الكهف29.

ومع ما لقاه النبي ﷺ، من تعب وأذًى، فقد ضيفه الله ضيافاً كريماً، وتجبيراً لخاطره، فقد اسري به من المسجد الحرام؛ إلى المسجد الأقصى، ونريد أن نشير إلى أن الإسراء كان بعد رجوع النبي ﷺ، من الطائف على الأرجح ، وقد تناولنا قضية الإسراء بمبحث مستقل.

ب-العقبة الأولى:- أن المنهج الذي اتبعه الرسول ﷺ، بعد ذلك هو أن يعرض نفسه في المواسم - إذا كانت -على قبائل العرب ، يدعوهم إلى دين الله (ويخبرهم أنه نبي مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به(47) .

(45)) تاريخ الطبري، أبو جعفر بن جرير، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ،(2 : 345) ، دار سويدان – بيروت ، لبنان – 1964م.

(46) أنساب الأشراف ، البلاذري ، تحقيق محمد حميد الله ،(1 : 237) دار المعارف – مصر .

(47) مرجع سابق ذكره (45)، (2 : 348).

وفي أثناء مرور الرسول ﷺ، على القبائل فى موسم الحج –في السنة الثالثة عشر من النبوة – يونيو " 622" م- كعادته في كل عام(48)– لدعوتهم إلى الإسلام وترك عبادة الأوثان، وبينما هو عند العقبة التي ترمي عندها الجمار، لقى رهطاً من الأوس والخزرج، فدعاهم إلى الإسلام، فأسلموا، وكان عددهم سبعة، ثم عادوا إلى المدينة، فذكروا لقومهم لقيأهم النبي ﷺ، وما دانوا به من الإسلام(49).

أن الجماعة التي لقاها النبي ﷺ، (لأنها كانت من نفر صغير لم يروا لأنفسهم الحق في أن يلتزموا بمعاهدة دون الرجوع إلى قبائلهم في المدينة، ولكنهم أخلصوا في تبليغ رسالة الإسلام(50).

وبعد عام من المقابلة الأولى التي تمت بين الرسول ﷺ، وأهل يثرب، عند العقبة، وفي الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه ﷺ بالعقبة، وبايعوه العقبة الأولى،(عشرة من الخزرج ، واثنان من الأوس) مما نشير إلى أن نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى، لكنهم تمكنوا في الوقت نفسه من اجتذاب رجال الأوس، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام(51)، ونذكر في سيرة ابن هشام (إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ، راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا(52)، وسمية البيعة الأولى، باسم: بيعة النساء(53).

وقد تحدث عبادة بن الصامت الخزرجي عن البيعة في العقبة الأولى، فقال:(كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله

(48) مرجع سابق ذكره (19)، (ص : 142). (49) مرجع سابق ذكره(11) ، (ص : 55). (50)هجرة الرسول وصحابته في القرآن والسنة ، احمد الجمل ،(ص : 143) ، دار الوفاء ،مصر ط1-1989م .
(51)السيرة النبوية الصحيحة ، أكرم العمري ، (1 : 197) ، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة ، ط1 – 1992م . (52) السيرة النبوية، لابن هشام ، (1 : 428 : 429) ، صحيح السيرة النبوية ، إبراهيم العلي ، (104 ، 105)، دار النفائس للنشر والتوزيع ، ط1 – 1995م . (53)مرجع سابق ذكره (27)، (ص : 185).

ﷺ، على بيعة النساء وذلك قبل أن تفترض علينا الحرب: على ألا نشرك بالله، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عزوجل إن شاء عذبكم، وإن شاء غفر لكم(54)، وأزداد الإسلام انتشاراً في يثرب بعد بيعة العقبة الأولى؛ وذلك بفضل الدعوة التي قام بها السابقون إلى الإسلام من الأنصار؛ ثم بفضل الجهد الذي بذله مصعب بن عمير في هذا المجال(55) .

فلقد نجحت سفارة مصعب بن عمير رضي الله عنه في شرح تعاليم الدين الجديد، وتعليم القرآن الكريم، وتفسيره، وتقوية الروابط الأخوية بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحية، وبين النبي ﷺ، وصحبه بمكة المكرمة، لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدعوة(56).

وقد نزل مصعب بن عمير رضي الله عنه في يثرب على أسعد بن زرارة رضي الله عنه(57)، ونشط المسلمون في الدعوة إلى الله، و يقود تلك الحركة الدعوية الرائدة مصعب رضي الله عنه، وقد انتهج منهج القرآن الكريم، في دعوته، وهذا الذي تعلمه من أستاذه ﷺ(58)، يقول الحق عزوجل: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }النحل125.

وكان من صنع الله تعالى لرسوله و للإسلام، أن هيأ الله الأوس والخزرج – وهما قبيلتان عربيتان عظيمتان في مدينة يثرب – لتقدرا هذه النعمة التي لا نعمة أعظم منها، وتسبقا أهل عصرهما، و أبناء الجزيرة إلى الترحيب بالإسلام والدخول فيه، حين تنكرت له قبائل العرب وعلى رأسها قريش(....وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }البقرة213.

وقد ساعدت على ذلك عدة عوامل، هي من خلق الله تعالى وتيسره وصنعه، كانت فارقة بين قريش وأهل مكة، وقبائل يثرب العربية

منها ما طبعها الله من الرقة اللين، وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق، وذلك يرجع إلى الخصائص الدموية والسلالية التي أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين وفد وفدا من اليمن من، بقوله تعالى: (أتاكم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة ، وألين قلوبا)، وقد أنزل القرآن مادحا لهم: {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }(الحشر: 9)(59).

(54)صحيح مسلم ، (41: 1709).
(55)الرسول حياته وتطور الدعوة الإسلامية في عصره ، عبد الرحمن سالم ، (ص : 98) ، دار الفكر الغربي ، ط1 – 2006 .
(56) مرجع سابق ذكره (1)، (ص : 240).
(57)السيرة النبوية الصحيحة في ضوء القرآن والسنة ، محمد أبوشهبة ، (1 : 441) ، دار القلم ، دمشق ، ط3 – 1996م .
(58) مرجع سابق ذكره (1) ، (ص : 240).

ج - البيعة العقبة الثانية :-

قال جابر بن عبدالله رضي الله عنه: (..فقلنا : حتى متى نترك رسول الله ﷺ، يطرد في جبال مكة ويخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً، حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه منا رجل ورجلين، حتى توافينا فقلنا: يارسول الله علام نبايعك؟

قال: (تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني، إذا قدمت عليكم، مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة).

قال: فقمنا إليه فبايعناه، و أخذ بيد أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم – فقال: رويدا يأهل يثرب، فانا لم نضرب أكباد الإبل ونحن نعلم: أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وإن تعظكم السيوف، فإما أنتم قوم تبصرون على ذلك، وأجركم على الله، وإما انتم قوم تخافون من أنفسكم جبينه، فبينوا ذلك، فهو اعذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً، ولا نسليها أبداً قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة(60).

وهكذا بايع الأنصار رسول الله ﷺ، على الطاعة، والنصرة، والحرب، ولذلك سماها عبادة بن الصامت بيعة الحرب(61)، وهذه البيعة حددت الوضع القانوني للنبي ﷺ، بين أهل يثرب، فهي قد اعتبرت النبي ﷺ، واحد من أهل يثرب دمه كدمهم وحكمه كحكمهم، وقضت ضمناً بخروجه من عداد أهل مكة، فانتقلت بذلك تبعية النبي من مكة إلى يثرب، وهذا نوع من تغير الجنسية بما يعرف بالمصطلح السياسي الحديث، ولهذا أخفى المسلمون أمر هذه البيعة وأمر هذا الشرط بخاصة عن قريش، لان الفترة الواقعة بين هذه البيعة وبين وصول النبي إلى يثرب فترة خاصة، لا يستطيع اليثربيون أن يحموا النبي ﷺ، لأنه بعيد عنهم، وقد اشترطوا فعلاً أن تبدأ حمايتهم له بعد وصوله إلى يثرب لا قبل ذلك.

(59)السيرة النبوية ، أبو الحسن الندوي ، (ص : 154)، البخاري ، كتاب المغازي ، باب قدوم الأشعريين (4388) .

(60) مرجع سابق ذكره (51)، (1 : 199) ،وأخرجه الإمام أحمد ، وهذا لفظه ، ورقمه (14456).

د - الإذن للرسول ﷺ، بالهجرة*

من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول ﷺ، بمكة فأمر بالهجرة وأنزل عليه قوله: {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً }الإسراء80.(62)..ورأى البعض إن الإذن بالحرب والقتال جاء قبل الهجرة، كما رأى عروة ابن الزبير وغيره، أو كان بعد الهجرة، كما هو ظاهر في سياق الآيات، في قوله تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ{39} الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ){40}}الحج : 39 ، 40). سواء كان هذا أو ذاك فإن بدء الجهاد كان مرتبطا ارتباطاً وثيقاً بالبيعة ففي البيعة الأولى كان الإيمان بالله ورسوله.

وفي البيعة الثانية كان العهد على الهجرة، والجهاد، وبهده العناصر الثلاثة: الإيمان ،والهجرة، والجهاد يتحقق وجود الإسلام، في واقع جماعي ممكن، والهجرة لم تكن لتتم لولا وجود الفئة المستعدة للإيواء، قال تعالي: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ....) (الأنفال 72).

وقال: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } (الأنفال 74).وقال : {وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ..) (الأنفال 75)(63).

*خرج رسول الله صلي الله عليه وسلم ،الخميس أول من ربيع الأول لسنة ثلاث وخمسين من مولده عليه الصلاة والسلام . مرجع سابق ذكره (11)، (ص : 62).

(61) مسند الإمام احمد (5 : 316) ورقمه (22700) بإسناد صحيح لغيره .

(62) مرجع سابق ذكره (52) ، ص119 قال أخرجه الحاكم في المستدرك 3 : 3، وقال صحيح في الإسناد ووافقه الذهبي.

وقد كانت البيعة الثانية هي التمهيد الأخير لهجرة النبي ﷺ، وأصحابه إلى المدينة، وبعدها بدأ المهاجرون يغادرون أرض مكة إلى الأرض التي اختارها الله لتنزل وحيه، وجعل فيها بيته مثابة للناس وأمنا، وخرج معظم المسلمين حتى لم يبق إلا محبوس، أو مأسور، أو رجل تأخر لغض كعلي بن أبى طالب، وأبى بكر الصديق رضي الله عنهما(64)، أما الرسول ﷺ، فقد تأخر ينتظر الإذن الإلهي، وطلب إلى أبى بكر رضي الله عنه أن يكون رفيقه وصاحبه(65).

المرحلة الرابعة: محاولة قتل النبي ﷺ، وتتمثل في (الاغتيال).

لما بايعت طلائع الخير، ومواكب النور من أهل يثرب النبي صلى الله عله وسلم ، والدفاع عنه، ثارت ثائرة المشركين، فازدادوا إيذاء للمسلمين(66).

زاد في إصرارهم على محاربة النبي ﷺ، وإسكاته للأبد، وهي قتل النبي ﷺ، قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } (التوبة :32).

أدركت قريش خطورة الموقف بعد أن رأت مسلمي مكة يلحقون تباعاً بإخوانهم من أهل يثرب(67)، وهذا يعني أن يثرب ستصبح مركزاًحصيناً للإسلام، ويترتب على ذلك أيضاً وقوع خطوط التجارة كما ذكرنا سلفاً بين يدي المسلمين، كل ذلك يشير إلى بناء دولة تحت قيادة النبي ﷺ.

وهذا يقود لبناء قوة إسلامية تقضي على نفوذهم وألهتهم بمكة، كل هذه المعطيات دفعت بقريش إلى اتخاذ قرار قتل النبي ﷺ.

واجتمعت قريش في دار الأرقم يتشاورون فيما يصنعون في أمره ﷺ، فأجمع رأيهم على قتله(68)، وكان هذا أخطر اجتماع عقدته قريش في دار الندوة؛ ولهذا حضره ممثلون عن كل قبيلة من قبائل قريش(69)، وكانت القضية المطروحة من أشد القضايا التي شغلت سادة قريش منذ بداية الدعوة ورفضهم لها إجمالاً و تفصيلاً، فكان السؤال بينهم: ماذا يصنعون مع رسول الله ﷺ حتى يحولوا بينه وبين الهجرة.

(63) الغرباء الأولون ، سلمان العودة ، (1 : 194) .
(64) السيرة النبوية ، ابن هشام ،(2 : 123 -129).
(65)مرجع سابق ذكره (63) ، (1 : 195) .
(66)الهجرة النبوية المباركة ،عبد الرحمن البر ، (ص : 33) دار الكلمة ،المنصورة ، مصر ، ط1 – 1997م .
(67) مرجع سابق ذكره (55)، (ص : 106).

فكان كلا يدلي بدلوه، وطال نقاش الحاضرين واختلفوا بآرائهم، فمنهم من رأى أن يقيد الرسول ﷺ، ويحبس حتى يأتيه اجله، وآخر يشير بنفيه من مكة، وهذا الرأي وجد من يعترض عليه قائلاً: ((ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟! والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ثم يسير بهم إليكم حتى يأتكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد ..أديروا فيه رأياً غير هذا(70).

وبعد كل هذه المشاورات، جاء الرأي الذى لقي استحسان الجميع، قال أبو جهل: ((أرى أن تأخذوا من كل قبيلة شابا فتي جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه؛ فإنه ماذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فرضوا منا بالعقل(أي الدية)، فعلقناه لهم أي دفعنا لهم ديته(71).

وهكذا أجمعوا على رأي أبي جهل واتفقوا على تنفيذه، وفي هذا نزل قوله تعالى : {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }الأنفال30)، وفي هذه اللحظة قرر الرسول ﷺ الهجرة– بعد إن إذن الله له بذلك – في نفس الليلة التي بينت فيه قريش اغتياله صلى الله عليه وسلم، ولم تكن تعلم بقراره ذلك، وهنا، فبات علي رضي الله عنه – على فراش رسول الله ﷺ(72)، ثم خرج في سكون الليل – وقد أخذت القوم غشاوة فلم ينتبهوا إليه– وهو يتلو قوله تعالى: (يس{1} وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ{2} إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ{3} إلى قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ{9})(يس: 1-9) (73).

(68)الأنوار المحمدية ، يوسف بن إسماعيل النبهاني ، ضبطه عبد الوارث محمد علي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط1 – 1997م.

(69)مرجع سابق ذكره (55)، (ص : 106).

(70)تاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،(2 : 371)، دار سويدان ، بيروت – 1964م.

(71) السيرة النبوية، لابن هشام، (2 : 94 - 95) .

حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه؛ فلما رأوه علياً رد الله تعالى عليهم مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري! فاقتصوا أثره؛ فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمروا بالغا، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه .. (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }الأنفال30).فمكث فيه ثلاث ليال(74)، وقد قال أبوبكر رضي الله عنه للرسول صلى الله عليه وسلم، خلال هذا الموقف العصيب: ((لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا)فقال (ما ضنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما) (75) ، وفي ذلك قوله تعالى: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }(التوبة :40

وهناك ثلاثة أدوار ينبغي التنويه بها؛ وهي أدوار رئيسية بالغة الروعة والأهمية ،ساهمت بشكل جدي في حماية النبي ﷺ، وتوفيقه للهجرة بعد محاولة الاغتيال، وهم: عبدالله بن أبي بكر، وأسماء بنت أبي بكر، عامربن فهيرة، فكانت مهمة عبد الله أن يسمع ما يقوله المشركون عنهما أثناء النهار ثم يأتيهما بما سمع ليلاً حتى ينصرفا في ضوء ذلك، وكانت مهمة أسماء أن تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يحتاجان إليه، ويروى أنها جاءتهما في اليوم الثالث بسفرتهما – أي بطعامهما – في جراب، ولكنها لم تجد ما تعلق به هذا الجراب في رحالهما، فحلت نطاقها – وهو حزام الوسط – فشقته اثنين، فربطت الجراب وعلقته بواحد، وانتطقت بالآخر؛ فلذلك سميت " ذات النطاقين"(76).
أما عامر بن فهيرة مولي أبي بكر فكانت مهمته أن يرعى غنم مولاه بين أهل مكة نهارا ثم يتبع بالغنم أثر عبد الله بن أبي بكر وأسماء في طريقهما من والى الغار حتى يعفي على فلا يجد المشركون دليلاً على مخبأ الرسول وأبي بكر (77).

(72) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، (3 : 1500) .
(73) مرجع سبق ذكره (55) ، (ص : 108) .
(74) مرجع سابق ذكره (72) ، (3 : 1501) .
(75) أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وأرده أبن كثير ، في تفسير سورة التوبة ، (2 : 141).
(76)السيرة النبوية ، ابن هشام ، (2: 99) .

وكان الرسول ﷺ، وأبو بكر قد اتفقا مع دليلهما عبدالله بن أريقط، على أن يأتي غار ثور صبيحة اليوم الثالث من دخولهما في الغار ومعه الراحلتان اللتان أعدهما أبوبكر، وفي الساعة المتفق عليها انطلق الرسول ﷺ، وأبو بكر ومعهما الدليل وعامر بن فهيرة مولي أبي بكر، وذلك بهدف خدمتهما وتقديم العون اللازم لهما أثنا تلك الرحلة الشاقة، وقد آثر الدليل أن يسلك بهما طرقاً غير مألوف بالقرب من ساحل البحر الأحمر(78).

دروس وعبر بالغة الدلالة : -

هذه هي الهجرة بكل ما تحمل من مواقف عظيمة ورائعة، وهي بذلك ترسم التاريخ الهجري الإسلامي، وانطلق تأسيس الدولة الإسلامية عاصمتها " المدينة".

1- وأول ما يشد الانتباه في تلك القصة الخالدة هو إن دعوة الحق تؤتي ثمارها إذا لم يستجيب أصحابها لعوامل المساومة والضعف و الخذلان، لقد ضرب النبي ﷺ، مثلاً فداً في الثبات على الحق والسعي نحو بلوغ الهدف مهما كلفه ذلك من طاقة مستعيناً بالله؛ شاكر ألحكمه، صابر ألقضائه " إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي"إنها ابتهالات رسول أوَّابٌ، قدر الله حق قدره، وأسلم وجهه وقلبه وكله لمشيئته ورضاه(79).

2-أن الهدف هو أداء أمانة التبليغ عن الله عز وجل وإتاحة الدعوة أمام الجميع أن يعتنقوا دين الإسلام، دون اضطهاد من احد حتى لا تكون فتنه ويكون الدين لله، وقد حدد الرسول هذا المسار تحديداً حاسماً في بداية الدعوة عندما قال لعمه أبي طالب: (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن اترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته(80))، وها هي تباشير النصر تلوح من يثرب، وقد كانت الهجرة مفتاحاً عملياً لتحقيق الهدف، وتحمل الرسول ﷺ، كل مخاطرها وأهوالها راضياً من اجل غايته الكبرى.

(77) نفس المرجع ، (2 : 98) ، تاريخ الطبري ، (2 : 379) . (78) حياة محمد ، محمد حسين هيكل ، (ص : 226) .
(79) موسوعة هذا الرسول ، خالد محمد ، (ص ، 217) . دار الخير - دمشق ، الطبعة العاشرة – 2008م .
(80)السيرة النبوية، لابن إسحاق ، (1 : 196) ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط 1 – 2004م .

ومما يلفت النظر في قصة الهجرة ويفيض بالدروس والعبرة .

1-إن الرسول ﷺ، وأبا بكر رضي الله عنه، لم يترك الأمور للصدفة ولا إلى الحض بل أتخذ خطوات عملية جادة؛ فقدرا لكل خطوة موضعها، وكانت الخطوات التي رسمها ﷺ، غاية في الإحكام والدقة.
2-ثم إننا نقرأ في الهجرة دروس عن التضحية، و الفدائية، والإيثار، وروعة الوفاء الذي يزداد عمقاً بالإيمان الخالص؛ فتصبح الحياة هينة رخصيه أمام متطلبات ذلك الوفاء، ونروي بهذا الصدد إن أبا بكر عندما انتهاء الرسول إلى الغار قال: (مكانك يا رسول الله حتى استبرئ لك الغار) أي حتى يتأكد من براءته من الأذى؛ ذلك ضماناً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحرصاً عليه، وكان ابوبكر رضي الله عنه أمام الرسول صلى الله عليه وسلم وساعة خلفه، وهما متوجهان إلى الغار، فسأله الرسول عن سبب ذلك فقال: (اذكر الطلب فامشي خلفك ثم اذكر الرصد فامشي بين يديك (81).

3- وهكذا كان أبا بكر في وفائه وإيمانه مستعداً ان يضحي بنفسه دون رسول الله ﷺ، وقد قدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنموذجاً رائعاً في الوفاء والتضحية، وذلك حين نام مكان الرسول ﷺ، وهو يعلم أنه قد يدفع حياته ثمن لذلك، كما قدم عبدالله بن أبي بكر وأسماء بنت أبي بكر وعامر بن فهيرة أمثلة رائعة جديراً بالإعجاب العميق والإحساس بالمسئولية والارتفاع إلى مستوى الموقف، ولا غروا، إن هذه الشخصيات صاغها الدين الحنيف؛ في قالب فذ فريد يتجاوز المكان والزمان؛ ليكونوا في كل مكان وزمان نستلهم منهم الطاقات والقدرات ونتعلم منهم الوفاء، والتضحية في سبيل أعلا كلمة الله.

وهكذا استقر الرسول ﷺ، وأصحابه من مسلمي مكة في المدينة لتبدأ مرحلة أخرى من مراحل الكفاح في سبيل تبليغ كلمة الله وإقامة الدولة الإسلامية.

(81)البداية والنهاية ،لابن كثير ، (3 : 178)، دار الريان للتراث ط1 ، مصر- 1990م.

الفصل الثالث / ثقافة النبي محمد ﷺ

المبحث الأول/ شخصية النبي صلي الله عليه وسلم الثقافية :

ولقد بعث رسول الله ﷺ، في منطقة كانت شبه منعزلة حضارياً عما يجاورها من إمبراطوريات، فقد ولد ونشأ في الحجاز، البلد الذي كان منغمساً في الشرك والوثنية، والمتمسك بما يفرضه الولاء للحياة القبلية، إما بالنسبة للقراءة والكتابة بوصفها علامات ودلالات على روح الحياة الثقافية، فقد كانت منعدمة نسبياً في تلك البيئة التي غلب على أفرادها وصف الأمية، وكان شخص النبي ﷺ، يمثل الحالة الاعتيادية من هذه الناحية، فلم يكن قبل البعثة ولا بعدها يقرأ الكتب، أو يتلقى أي نوع من أنواع التعليم، بالمفهوم الذي يفهمه الناس من كلمة علم وتعليم.

وهذا ما يؤكده النص القرآني بقوله تعالى: {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ } (العنكبوت :48).

أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمرا لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الخط، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب *(1).*

وهذا دليل واضح على مستوى ثقافة الرسول ﷺ، التعليمية قبل البعثة، وحجة دامغة حتى في حق من لا يؤمن بأن القرآن من عند الله، فهو نص أعلنه النبي صلى الله عليه وسلم، على قومه وتحدث به إلى أعرف الناس بحياته، فلم يعترض أحد على ما قال؛ لأنه لم يؤثر عنه أي مساهمة قبل بعثته بما كان شائعا في قومه من شعر وخطابه، وهكذا كان الرسول ﷺ، لا يحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده، بل كان له كُتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل للأقاليم، وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ، حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له، قال تعالى: *﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو﴾* أي تقرأ*(مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ)* لتأكيد النفي*(وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ) تأكيد لعدم كتابته وخرج مخرج الغال ، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾(2).*

وقد عاش فيهم أربعين سنة قبل البعثة، دون أن يشعر الناس من حوله بأي شيء يميزه عنهم سوى ذلك السلوك النظيف، ودون أن تبرز في حياته أي بذور علمية، أو اتجاهات جادة نحو عملية التغيير الكبرى، حتى بعث النبي ﷺ، فجاءهم بأعظم كتاب عرفته البشرية؛ رباني المصدر والتعاليم.

(1)تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، (3 : 38).
(2) نفس المرجع .

وهذه هي صفته في الكتب المتقدمة، بقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ }(الصف: 6).

وعن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قلت اخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: أجل والله أنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: "يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولاسخاب(*) في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا اله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً وأذاناً صماً وقلوباً غلفاً " (3)، وقال تعالى في ذكره لامية النبي صلى الله عليه وسلم، بقوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ....} (الأعراف :157). و " الأُمِّيَّ " هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، وكانت الأمية في حقه صلى الله عليه وسلم، كمالاً بل معجزة، أما بالنسبة إلينا فنقص (4) .
لئن كان النبي ﷺ، أمي القراءة والكتابة، فقد كان قارئاً لعلوم الله تعالى؛ الذي أمده وربط به فؤاده، لقد تهيأ النبي ﷺ، نفسياً وروحياً بالإلهام الإلهي، حيث حبب إليه الاختلاء وحده في مدرسة غار حراء، حتى أصبح مستعداً لتلقي العلوم الإلهية، وهذا يثبت إن العلم الإلهي الذي أستقر في صدر النبي ﷺ، هو الركيزة الربانية الموصلة إلي الله تعالى، لاستيعاب تعاليمه عز وجل وإتباعها، مصداقاً لقوله تعالى:{ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً }(الكهف:65).

(3)مسند الإمام احمد 2/ 174 ، والبخاري في البيوع 5/ 246 ، عن الخصائص النبوية الكبرى ، للحافظ جلال الدين السيوطي ، دار البشائر الإسلامية ،بيروت ط2 ،(ص :29)، تحقيق عبدا لله التليدي .(4)نفس المرجع .

أذن فلاشك في أن هذا القرآن منزل، من عند الله، فهو ليس مفتعلا من صنع الرسول ﷺ، ولم يتعلمه من الكتب المأثورة عمن قبله، وحتى لو كان الرسول ﷺ، كاتباً وقارئاً، فلا يجوز لهؤلاء المعارضين أن يرتابوا، فإعجاز القرآن يشهد بذاته أنه ليس من نظم بشر، وان كان محمد ﷺ، ذاته، فلو كان من عنده ﷺ، لنسب إلى نفسه صفات تتناسب مع حب الإنسان للظهور، ولا داعي من المواهب ما يوهم به أصحاب العقول الصغيرة والنفس الضعيفة فيجد الحظوة لديهم، ولكنه محمد صلى الله عليه وسلم، الصادق الأمين، قيادته بيد خالق الكون، المعطي والمانع، ولا حول ولا قوة له، لا هو ولا أتباعه، إلا بالله العلي العظيم، والقرآن الكريم أعظم من طاقات البشر، ومعرفتهم، وآفاقهم، والحق الذي هو فيه، ذو طبيعة مطلقة كالحق الذي في هذا الكون، وكل وقفة أمام نصوصه توحي للقلب وراءه قوة، وفي عبارته سلطان لا يصدران عن بشر، ومع كل ما أوردناه؛ فإنه لابد لنا من وقفة، فيما فضله الله تعالى به من كمال خلقته وجمال صورته وأخلاقه الزكية التي هي جزء رئيسي وهام في تكوين شخصيته ﷺ.

1- في كمال خلقته وجمال صورته ﷺ.

أن من تمام الإيمان به ﷺ، إن الله تعالى قد أحسن خلقته وجمال صورته عليه الصلاة والسلام.

يقول البو صيري(*):

فهو الذي تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيبا بارئ النسم

منزه عن شريك في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم (*).

قال القرطبي: لم يظهر لنا تمام حسنه ﷺ، لأنه لو ظهر لنا تمام حسنه لما أطاقت أعيننا رؤيته ﷺ، (فأما وجهه الشريف) ﷺ، فقد روى الشيخان عن البراء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقاً وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه(4).

(4)كتاب ؛الأنوار المحمدية ، يوسف بن إسماعيل النبهاني ، ضبطه عبد الوارث محمد ، (ص : 126).

(*)محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري (608ه – 696 ه) اشتهر بمدائحه النبوية – أشهرها " الكواكب الذرية في مدح خير البرية " .

وعن مجاهد في قوله تعالى: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}الشعراء: 219)(5).

قال كان رسول الله عليه الصلاة والسلام، يرى من خلفه من الصفوف كما يرى من بين يديه، والأحاديث الصحيحة كثيرة في أوصافه، وطيب عطره، وفصاحة لسانه قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: ما كان ﷺ، يسرد سردكم هذا كان يحدث حديثاً لوعده العاد لأحصاه وكأن يعيد الكلمة ثلاثاً لتفهم عنه وكان يقول أنا أفصح العرب إن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد ﷺ.

2-أخلاقه الزكية ﷺ:

إن المتأمل في سيرته ﷺ، مع أهله وأصحابه، ومن الْفُقَرَاء والأرامل والأيتام، والأظياف والمساكين، ونصرة المظلوم، وكظم الغيظ والعفو، والإصلاح بين الناس، وإنعاش الحقوق ومعاونة المسلمين والسعي في حوائجهم وأزحت الأذى من الطريق ورحمة الصغير وتوقير الكبير ولين الجانب والتواضع واحترام الجار وإن لم يكن مسلماً، بل حتى مع أعداءه، من أسرى الحرب فقال ﷺ: ماذا أنا فاعل بكم قالوا أخا كريم وابن أخاً كريم، قال ﷺ: أذهبوا فأنتم الطلقاء ؛علماً يقيناً وقطعاً، أنه بلغ من رقة القلب ولينه التي لا مدى وراءها لمخلوق، فقد كان يباسط أصحابه ويمازحهم، وكيف لا وقد مدحه عزوجل بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } (القلم :4).

أنها شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله، يقول له فيها: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ }(القلم :4).ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين(6).

ذكر أن سعيد بن هشام سأل عائشة رضي الله عنها، عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال بلى، فإن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن، وروى الإمام أحمد عن الحسن قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن(7)، أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن سجية له وخلقاً، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا ما جبله عليه الله من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خلق جميل، كما ثبت في الصحيحين.

(5)رواه الترمذي .نقلا عن كتاب ؛الأنوار المحمدية ، يوسف بن إسماعيل النبهاني ، ضبطه عبد الوارث محمد ، (ص : 126).

(6)في ظلال القرآن ، سيد قطب ، (6 : 3656) .

(7)أخرجه الإمام أحمد ، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ، (3 : 530).

عن أنس، قال: خدمت رسول صلى الله عليه وسلم، عشر سنين فما قال لي : أف قط، ولا قال لي لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته؟ وكان صلى الله عليه، أحسن خلقاً ولا مست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم(8)..

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله صلى بيده خادماً قط، ولا ضرب امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم، ولا أنتقم لنفسه من شيء يؤتي إليه إلا إن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله عز وجل(9).

أن أخلاقه ﷺ، تتأكد في ثقافته التي تتجسد في حكمته، و توجيهاته وحتى في دعواته ﷺ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: رسول الله ﷺ: كرم المرء دينه ومروءته عقله وحسبه خلقه(10) .

ومن كمال خلقه ﷺ، في حديثه عن أبي هريرة قال: " قيل يا رسول الله، من أكرم الناس؟: أتقاهم " فقد ربط بين الكرم الذي هو من كمال الأخلاق بتقوى الله عز وجل(11).

وحتى في دعائه ﷺ، كان يتوجه إلى الله عز و جل وهو الذي أثنى الله عليه في كتابه تعالى، {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ }، ليعلمنا أدب الدعاء فلا يقبل الدعاء إلا من حسن خلقه؛ فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، كان يقول في دعائه: "اللهم، اهدني لأحسن الأخلاق ، فإنه لا يهدي لا حسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت(12)، " وفي حديثه ﷺ، عن ضبط النفس لكي لا تقع في ما لا يحمد عقباه، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ليس الشديد بالصرعة، قالوا: وما الشديد يا رسول الله؟ قال : الذي يملك نفسه عند الغضب(13) ".

(8)أخرجه الشيخان ،مرجع سابق ذكره (1)،(3: 530) .
(9)أخرجه الإمام أحمد ، نفس المرجع .
(10)مكارم الأخلاق ، أبي بكرعبدالله بن محمد بن عبيد "أبي الدنيا " ، تحقيق محمد أحمد عطا ،(ص : 4) دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط1 1989م.
(11) صحيح البخاري ، (9 : ح، رقم 5).نقلا عن نفس المرجع ، (ص : 5)،
(12) صحيح مسلم (201 ، 202)، وسنن الترمذي (3421).
(13) صحيح البخاري ، (كتاب الأدب باب : 76)، نقلا عن مكارم الأخلاق ، للإمام الطبراني ، (ص : 325) دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ،ط1 1989م

وقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة، وعن لسان أصحابه روايات متنوعة كثيرة وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روي عنه(14) .
بل منذ، فجر دعوته، ينشر ثقافة الرحمة، بين الناس، على الرغم من إن البيئة الأولى التي عاش فيها، كانت بيئة معادية له، ومع كل ذلك؛ أوجد النبي ﷺ، بيئة تنمو فيها الرحمة لتصبح ثقافة تنتشر بين الناس، ونجح في جعل الرحمة وسيلة للحفاظ على أصحابه، والنبي ﷺ، يسعى إلى نشر ثقافة الرحمة على أوسع نطاق، بين الناس، ولم يكتف من أصحابه بالرحمة الخاصة التي تكون لا محالة بين أبناء الأسرة الواحدة، وبين الأقارب والأصدقاء(15).
وقال ﷺ: (الراحمون يرحمهم الله، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء))(16)
بل أوسع من هذا المفهوم، فيقول لأصحابه: لن تؤمنوا حتى تراحموا، قالوا يا رسول الله كلنا رحيم، قال انه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة(17)، وهذا التوجيه يسعى به النبي ﷺ، في نشر ثقافة بين الناس، من حيث دلالته كخلق مستحب، وقيمة إنسانية عالمية وهي" رحمة العامة ".
وكان الصحابة يخافون الله تعالى، ويخشونه ويرجونه، وكان لتربية الرسول ﷺ، أثر في نفوسهم عظيم، وكان المنهج القرآني الذي سار رسول الله عليه وسلم يفعل الأفاعيل في نفوس الصحابة(18).
ولم تقتصر تربية الرسول لأصحابه ...فصحح عندهم كثيراً من المفاهيم والتصورات، والاعتقادات عن الإنسان والحياة والكون، والعلاقة بينهما ، ليسير المسلم على نور من الله، ويدرك هدف وجوده في الحياة، ويحقق ما أراد الله منه غاية التحقيق، ويتحرر من الوهم والخرافات(19).

كل ذلك كان يعكس بصورة ملموسة وواقعية، لما نشأ عليه الصحابة، من تربية عقلية وتربية جسدية وما شهدوا عليه من مكارم الأخلاق، فهو خير دليل لتربية الرسول ﷺ، وثقافته النابعة من كتاب الله عز وجل.

(14)مرجع سابق ذكره (6). (6 : 3656).
(15)مظاهر الرحمة للبشر في شخصية النبي صلي الله عليه وسلم ، سارة آدم ،أعداد وترتيب : زيد عمر العيص ،
(16)رواه الترمذي ، باب ما جاء رحمة المسلمين ، رقمه (1924).
(17)رواه الطبري ، ثواب الأعمال الصالحة (ص : 779).
(18)الوسطية في القرآن الكريم، علي محمد الصلابي ، (ص : 402)، دار النفائس ، ط1 – 1999م .
(19)أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية ، علي العلياني (ص : 59) دار طيبة ط1. 1985م.

المبحث الثاني: الثقافة القرآنية للنبي ﷺ

إن ثقافته القرآنية تتمثل في شخصيته ﷺ ، وتتخذ خط الرسالة الذي هو شأن ألهي من خلال ما يوحى به الله في كتابه وما يلهمه أو يبينه، للرسول عليه الصلاة والسلام، والذي يعبر عنه في سنته.

و إن التناسق المطلق الكامل بين آيات القرآن، هو السمة التي يدركها من يتدبر هذا القرآن، كما ان كل عقل وكل جيل يجد فيه ما يحتاج إليه، حسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه، وتتجلى ظاهرة التناسق هذه أيضاً في منهج التربية للنفس، البشرية والمجتمعات الإنسانية، وفي منهج التقويم للإدراك البشري ذاته، فقد تناول شتي قواه وطاقاته وإعمالها معا في عملية الإدراك، وفي منهج التنسيق بين الكائن الإنساني بجملته وبين هذا الكون الذي يعيش فيه، ثم بين دنياه وآخرته.

ومن يقرأ القرآن يجد فيها أخباراً، و قصصاً، وسييراً، واحكاماً، وتشريعاً، ذا مسالك شتى من المعاملات ترسم صور البيع والشراء، وتحدد صيغ العلاقات الاجتماعية من زواج وطلاق وميراث ووصايا وما هناك من حلال وحرام، وقضايا عسكرية واجتماعية وتحديد لحقوق ذوي الحقوق من النساء وأطفال و الاعداء والأصدقاء وذوي القربى وبعض شرائح المجتمع؛ كاليتامى والأسرى ...
وكذلك الكلام على قواعد العدل والحكم بين الناس، وكذلك ما يتعلق في النهي عن التصرفات السيئة والأخلاق المذمومة من كذب وغش وتطفيف المكيال والميزان واكل أموال الناس بالباطل وشهادة الزور والإيمان الفاجر، وما إلى ذلك مما تكون منه ثقافة المجتمع.
يقول الحق تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ...} (الأنعام:115) .
أي صدقاً في الإخبار وعدلاً في النواهي، وقال تعالي : {الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } (هود :1).
أي أحكمت ألفاظه وفصلت معانيه، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ... }(الفتح :28)أي العلم النافع والعمل الصالح (1).
وأن القرآن تحدث عن الماضي الذي لم يشاهده النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يعي شيئاً من علوم الأوائل، ولا أخبار الماضين، فلم يأتِ إلا بما أوحي إليه من الأخبار النافعة، التي ينبغي أن تروى للاعتبار، وما بها من أخبار الأمم مع الأنبياء عليهم السلام، وما حدث معهم، وكيف نصرهم الله والمؤمنين وأهلك الله الكافرين وخزى الطاغين، وعن الحاضر المستتر، فأخبر عن خفايا النفوس ومكنونات الضمائر، كما تحدث عن الاتي الذي لم يحدث بعد منه شيء وقت النزول

(1)شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه ،لابن كثير ، شرح وتحقيق مصطفي عبد الواحد، (ص : 145)، دار الرائد العربي ، بيروت - لبنان ، ط2 1987م.

فأخذ يتحقق بعد النزول، شيئا فشيئاً والى يومنا هذا، ولعل أهم مثال على ذلك قوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } (فصلت: 53).

كذلك في الأخبار الصادقة عن الله وملائكته وعرشه ومخلوقاتها العلوية والسفلية كالسموات و الأرضيين وما بينهما وما فيهن، أمور عظيمة كثيرة مبرهنة بالأدلة القطعية المرشدة إلى العلم بذلك من جهة العقل الصحيح .

كما قال تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً }(الإسراء :89)

{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } (العنكبوت :43)

{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } (الزمر :27)

وعلى ضوء ذلك كلّه، لا بُدَّ لنا من استيحاء ما قرره القرآن في سيرة النبيّ محمَّد صلى الله عليه وسلم، لنبدأ من ثقافته قبل النبوّة، هل درس التوراة والإنجيل في تلك المرحلة؟ وهل كان مطّلعاً على التفاصيل التاريخية للأنبياء، وهل كان يقرأ أو يكتب.

أ- دلالات ثقافته القرآنية صلى الله عليه وسلم

قال تعالى: { وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ{44} وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ{45} وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ{46} وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{47} . (القصص : 44 : 47).

يقول تعالى: منبها على برهان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم ن وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، ونشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم عليها السلام، قال تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ }. (آل عمران :44).

ولما أخبره عن نوح وإغراق قومه، قال تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } (هود :49).

وقال بعد ذكر قصة يوسف عليه السلام، قال تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ } (يوسف :102).
يعني ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى عليه السلام من الشجرة على شاطئ الوادي،(..وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ } (القصص :44)، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحي إليك ذلك، ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها، ونسوا حجج الله عليهم، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين، وقوله تعالى:(.. وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا)(القصص: 45) أي وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ،حين أخبرت عن نبيها شعيب، وما قال لقومه وما ردوا عليه، (وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)(القصص :45)أي ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلنا إلي الناس رسولاً، (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ...)(القصص :46)(2).

قيل: المراد أمة محمد، نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل ان تسألوني وأجبتكم قبل إن تدعوني (3).

(فرسول الله صلى الله عليه وسلم – يتلو عليهم تفصيلات الأحدث كما يقصها شاهد العيان؛ وما كان حاضر أحداثها، ولكن الوحي يقصها عليه من لدن عليم خبير(4).

وقال تعالى: في سورة طه: {كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً } (الآية : 99).

وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى: {وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ } (القصص :44) .
فمن هذه الرؤية يتضح لنا ان النبي لم يتلقى شيئاً مما فيه من ثقافته وتحصيل علمي ودراية بأخبار الرسل من قبله، أي أن ثقافته صلى الله عليه وسلم، تكونت مما تلقاه من ثري القرآن الكريم، ولم يكن النبي ﷺ، قد أحاط علماً من قبل بالمحتوى القرآني الذي كان يتلقاه من رب العالمين، وهكذا جاء القرآن ليؤكّد أنَّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، لـم يكن يمارس القراءة والكتابة قال تعالى: (وما كنت تتلو من قبلِهِ من كتاب ولا تخطُّهُ بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) {العنكبوت:48).

(2)تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (3 : 14).
(3) أخرجه النسائي في سننه عن أبي هريرة موقفاً، ورواه ابن جرير وابن حاتم أيضا ، نفس المرجع (2) .
(4)في ظلال القرآن ،سيد قطب،(5: 2698) دار الشروق ط 39 ، القاهرة – 2011م.

إنَّ الصورة القرآنية تؤكّد أنَّ النبيّ ﷺ، لـم يكن ملمّاً بذلك كلّه، فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:

(وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلَّمك ما لـم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) {النساء:113).

وقوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنَّك لتهدي إلى صراط مستقيم) {الشورى: 52).

وقوله تعالى : (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيَّهُم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون} (آل عمران:44).

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذا جمعوا أمرهم وهم يمكرون) {يوسف:102).

وقوله تعالى : (وما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتاب إلاَّ رحمة من ربِّك فلا تكونن ظهيراً للكافرين) {القصص:86).

وقوله تعالى: (ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون) {ص:69).

وقوله تعالى : (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عُمراً من قبله أفلا تعقلون) {يونس:16).

وقد كان ذلك كلّه حجّة على النبوّة في عمقها الغيبي لأنَّ هذه الدلالات الثقافية لا يمكن أن تكون منطلقة من جهد بشري، خاصة إذا لـم يكن صاحب تجربة ثقافية يطّلع من خلالها على مصادر المعرفة الكتابية وغيرها.

ونشير إلى القصص القرآني، كدلالات على صدق القرآن الذي أنزل على النبي ﷺ، وعمق ثقافي على صدق الوحي، وهذا يتجسد في من علموا بأخبار الأنبياء والأمم ولو بصورة غير عمقيه؛ ليتأكد لهم أن الواقع الحقيقي يتجسد من خلال ما يوحى به على النبي ﷺ، من أخبار الماضيين، وعن عبدالله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول ﷺ، فقال: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال، فتغير وجه رسول الله ﷺ ، قال عبدالله بن ثابت: فقلت له: ألا تري ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، قال: فسرى عن النبي ﷺ، وقال: " والذي نفس محمد

بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لظللتم إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين(5)"

و هذا يؤكد علي دلالة ثقافته من خلال النص القرآني بقوله تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } (يوسف :3).

وإلى ذكر الجانب التعليمي للنبي صلى الله عليه وسلم، في سورة الكهف، حيث أشار إلى أدب المتعلم مع المعلم من التسليم والصمت والصبر في قصة موسى وخضر عليهم السلام، قال تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى }(الكهف :13) (6).

ومن حيث أخباره صلى الله عليه وسلم، بقصص من سبق من الأنبياء والمرسلين كإبراهيم، ويوسف، وموسى، وعيسى، وغيرهم عليهم السلام، في دقة وإسهاب وصدق في حكاية الواقع والأخبار تظهر به هيمنة هذا التنزيل على من سبقه؛ من حيث الموافقة، ومن حيث ظهور الحقيقة الإلهية فيه على النحو لكمال المطلق الذي يليق بقدسيته تعالى، ومن حيث نفي أرجاس البشر التي شوهت صورة الصفوة من رسل الله فإذا انتفى بالقطع كونه صلى الله عليه وسلم قارئاً أو كاتباً وانعدم مصدر أخر يتلقى منه – لخلو مكة عن احد من أهل الكتاب – كان في ذلك البرهان القاطع على الاستمداد من الوحي وتثبت وصف الرسالة من الله تعالى(7).
ولكن هذا لا يعني أنَّ النبيّ ﷺ، لم يكن يملك مستوى ثقافياً عالياً من خلال تأمّلاته وتجاربه والألطاف الإلهية عليه في ملكاته الفكرية والروحية من خلال إعداد الله له للمهمة الكبرى في الرسالة الإسلامية؛ ومن خلال هذا العرض كان علينا أن نستعرض دلالات ثقافته من خلال ما أسلفنا ذكره، وسنتطرق لذلك في المباحث التالية.

(5) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، احمد بن حجر العسقلاني(ت :852ه) ، (كتاب التوحيد ، باب قوله :(بل هو قران مجيد .. محفوظ)(ص : 532) تحقيق ، محمد عبد الباقي و آخرون ، دار الريان ، ط2 - 1986 م .
(6)الدين والحياة في منهج التربية الدينية ، كمال الدين المرسي ، (ص : 19).
(7)القصص القرآني وأثره في استنباط الإحكام أسامة حمزة،(ص : 18) ، جامعة الأزهر رقم الإيداع 3854 / 97 ،ط 2 - 2008 م.

المبحث الثالث: منطلقات الثقافة النبوية

أ- اقرأ:

لقد كانت الحقيقة الأولى التي ظهرت عند نزول جبريل عليه السلام، بالوحي على رسول ﷺ، أن هذا الدين يقوم على العلم ويحارب الجهل، بل يرفض الضلالات ،والأوهام جملة وتفصيلا .

فقد نزل الوحي بخمس آيات تتحدث حول قضية واحدة ...،وهي قضية العلم ..قال تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5}.(العلق : 1- 5).

والواضح ان الله تعالى بدأ بالعلم لأن مفتاح هذا الدين هو العلم؛ وفهم هذه الدنيا إلا بنور العلم الذي يقودنا إلي الآخرة.

وقولهم: أن أدني مراتب الإنسان كونه من علق وأعلاها كونه عالماً فكأنه سبحانه وتعالى امتن على الإنسان بنقله من أخس المراتب وهي العلق إلى أعلاها وهي العلم (1).

وأن قضية العلم قضية أساسية؛ مع كون النبي ﷺ، أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ،وقد سبق ان تناولنا هذه القضية في مبحث سابق.

وبعمق تاريخي فإن العرب لم يهتموا بقضية العلم، بل كانت تحكم حياتهم، الخرافات والأباطيل، و من الوثنية التي قادتهم إلى دياجير الظلام، إلا ما قد برعوا فيه من النثر والشعر والبلاغة، ولذلك نزل القرآن الكريم يتحداهم: (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ{23} فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ..)(البقرة : 23- 24).

لقد كان الإسلام بمثابة الثورة العلمية الحقيقية، في بيئة ما ألفت روح العلم وما تعودت عليه، لدرجة أن المرحلة السابقة لنزول أول كلمات القرآن تعرف باسم"الجاهلية"، فصفة الجهل ترتبط بما هو قبل الإسلام ثم جاء الإسلام ليبدأ العلم ولتنار الدنيا بنور الهداية الربانية قال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } (المائدة : 50)(2) .

(1)عجائب المعارف ، محمد منصور الزالط ، (ص : 27)، دار ومكتبة حمودة للنشر ط2 ، زليتن – ليبيا ، 2004م .

(2)العلم وبناء الأمة ، راغب السر جاني ، (ص : 8)، مؤسسة اقرأ – القاهرة ، ط 1، 2007م .

لقد أمر النبي ﷺ، من بداية دعوته أن يعرض عن الجاهلين بقوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } (الأعراف :199).

ومن الواضح، إن الدين يرفض المنهج الظني، و يبنى شرائعه وأحكامه إلا على أساس من اليقين.

فهذا رب العالمين سبحانه يقول في إعجاز ظاهر يصف حالة الكافرين والمعرضين عن دينه عزوجل بقوله: {وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً } (النجم :28)(3).

وقد وردت كلمة العلم – 779مرة – أي بمعدل سبع مرات – تقريباً – في كل سورة، وهذا عن مادة العلم بمادتها الثلاثية، (ع ل م)، إلا هناك كلمات أخرى كثيرة تشير إلى معنى العلم ولكن لم تذكر بلفظه، وذلك مثل: اليقين والهدى والعقل والفكر والنظر والحكمة والفقه والبرهان والدليل والحجة والآية والبينة ..وغير ذلك من معان تندرج تحت معني العلم وتحث عليه(4).

وواضح مما تقدم، إن الوحي بدأ بالعلم؛ (وإلى جانب هذه الحقيقة تبرز حقيقة التعليم..تعليم الرب للإنسان " بالقلم " ..لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثرا في حياة الناس(5).
إما في الأحاديث النبوية عن كلمة " علم " في صحيح البخاري أكثر من(ثلاثمائة مرة(6)) ؛ بل في كتب السنة من الأحاديث للنبي ﷺ، في الدعوة للعلم ، وما يطول حصرها مثل: صحيح مسلم وسنن الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجه و الدارمي و البيهقي، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وموطأ الإمام مالك، وكذلك معجم الطبراني وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم .....

وعلى هذا الأساس، فإن منطلقات الثقافة النبوية للنبي ﷺ؛ أساسها القرآن الكريم، فقد ربط الله عزوجل بين الأنبياء عليهم السلام، وصفة العلم، فهي لازمة وثابتة بل من أهم الصفات، التي يتميز بها الأنبياء عامة، لأنهم دعاة الله في الأرض، ولأنهم مبلغين، ومنذرين ولأنهم بعثوا ليتوقف عقل الإنسان عن السؤال والحيرة عما لا يؤهله إلى الإجابة عنه كالعقائد وأحكامها وتبيين مقتضياتها، ومبشرين يقول الله عزوجل: (.. وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } (النور :54).

(3) مرجع سابق ذكره (2) ، (ص : 10) .
(4)مرجع سابق ذكره (1) ، (ص : 9).
(5) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، (6 : 3939) ، دار الشروق ط 39 ، القاهرة – 2011م .

(6) مرجع سابق ذكره (2) .

ومن الطبيعي أن المبلغ يكون عالماً، وملماً بطاقات ثقافية تؤهله إلى حمل الرسالة ومن هنا فقد ذكر الأنبياء في القرآن الكريم، وكانت صفة العلم مرتبطة بهم، فقال تعالى في حق آدم عليه السلام: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا .....} (البقرة :31).

و في حق لوط عليه السلام: {وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ..} (الأنبياء :74).

و في حق موسى عليه السلام :{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً}(القصص:14)

وفي يوسف عليه السلام: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً }(يوسف:22).

و في يعقوب عليه السلام: (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ } (يوسف :68).

و في حق عيسى عليه السلام قال تعالى: (....وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ...)(المائدة :110).

و في داود و سليمان عليهما السلام قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ }(النمل :15).

و في حق النبي ﷺ، قال تعالى: (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى{4} عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى{5}) النجم : 4 ،5).

وقوله تعالى: (... وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً{113}. (النساء : 113).

وقوله تعالى: {.. وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً } (الكهف:65).

وكانت مسيرة الأمة العلمية تتطور مع مراحل الدعوة وبناء المجتمع، وتأسيس الدولة (7)، ولقد أيقنت الأمة إن العلم من أهم مقومات التمكين، لأن من المستحيل إن يمكن الله تعالى لأمة جاهلة، متخلفة عن ركب العلم، وان الناضر للقرآن الكريم ليتراءى له وضوح إنه زاجر بالآيات التي ترفع من شأن العلم لمن أهمله وأنقص من قدره، وتحث على طلبه وتحصيله، فقد جعل القرآن الكريم العلم مقابلاً للكفر(8).

الذي هو الجهل والضلال قال تعالى: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ }(الزمر:9).

(7) السيرة النبوية ، علي الصلابي ، (1: 376)، دار المعرفة للنشر والتوزيع ط10 ، بيروت – لبنان – 2010م .
(8) التمكين للأمة الإسلامية ، في ضوء القرآن الكريم ، محمد السيد حمد ، (ص : 62)،دار السلام ، مصر ، ط1 – 1997م .

وقال تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }(المجادلة :11).
حيث عطف إيتاء العلم على الإيمان دلالة على الرفع من شأنه في الدنيا وأن الإيمان عمل وهو مقترن بالعلم لأن مفاد العلم التعقل ثم الإيمان الراسخ الموجب للعمل الخالص وثمرته الفوز في الدنيا والآخرة عند مليك مقتدر.
وعلى ضوء ذلك؛ نؤكد أن قضية العلم، كانت مادة أساسية لجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام، في أطار الدعوة.

أما ما يخص النبي عليه الصلاة و السلام، ليس كحالة خاصة وإنما كحالة اعتيادية تتلخص في مراحل مسار الدعوة، وقضية العلم أول لبناتها، كمنطلق لثقافته القرآنية

وإن الشيء الوحيد الذي أمر الله تعالى رسوله أن يطلب منه زيادة هو العلم، قال تعالى: { وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً }(طه :114 :)، فإنه قد توفرت فيه الاستعدادات الكافية للعلم والتبليغ به على أكفأ وجه، ترجع فيها المصداقية في ثقافته إلى التصاقه بالنبوة التصاقاً بلغ منه غاية التعبد والحضور النفسي في كل أقواله، وأفعاله، وتقريرا ته.

1- إعداد جيل المعاصرين للدعوة: -

باعتبار إن الرسالة الإسلامية، هي الخاتمة لجميع الرسالات، كان لزاماً؛ أن تستمر إلى إن يرث الله الأرض ومن عليها، الأمر الذي يتطلب وضع الأسس الرصينة من منطلقات متينة، تضمن سير الدعوة وبقائها.
فكانت ثقافة النبي صلى، الله عليه وسلم وقدرته، فائقة في اختيار العناصر الأولى للدعوة، في خلال السنوات الأولى من عمر الدعوة، وتربيتهم وإعدادهم إعداداً خاصا ليؤهلهم لتسلم القيادة، وحمل الرسالة، فالرسالات الكبرى، والأهداف الإنسانية العظمى لا يحملها إلا أفذاذ الرجال، وكبار القادة وعمالقة الدعاة(9).
وكان لزاماً على الرسول ﷺ، (ان يربي جيلاً رائداً، يبقى نموذجاً بشرياً يقتدى به ويتأسى بمقوماته وتصرفاته بنو الإنسان على مدى امتداد الزمان، لا لينهضوا بأمتهم .. بل ليجعلوا منها قادة لركب البشرية وأمم الأرض(10) .

وكانت مدرسة محمد ﷺ، أعظم مدرسة على وجه الأرض.

و التقى بالصفوة المختارة من الرعيل الأول(السابقين الأولين)، فكان ذلك اللقاء الدائم تدريباً عملياً لجنود المدرسة على مفهوم الجندية والسمع والطاعة، والقيادة وآدابها وأصولها، ويشحذ فيه القائد الأعلى جنده وأتباعه بالثقة بالله والعزيمة والإصرار، ويأخذها بالتزكية والتهذيب، والتربية والتعليم، كان هذا اللقاء المنظم يشحذ العزائم، ويقوي الهمم، ويدفع البذل والتضحية والإيثار(11) .

(9) مرجع سابق ذكره (6)،(1 : 97).
(10) النبي المربي ، أحمد الأسمر ، (ص :71) ،دار الفرقان للنشر والتوزيع ،ط1 ، عمان – الأردن - 2001..
(11)مرجع سابق ذكره (7)، (ص : 97).

وقد ذكرهم الله في الكتاب الحكيم، فالقرآن ملئ بفضلهم وخلقهم وأدبهم وشجاعتهم وصدقهم وعلو شأنهم وعظيم مكانتهم، قال تعالى في حق المهاجرين:{لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } (الحشر:8).
وكذلك الأنصار بقوله تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (الحشر:9).

لقد أتيح للرعيل الأول أكبر قدر من التربية العقدية، والروحية، والعقلية، والأخلاق علي يد مربي البشرية الأعظم محمد صلى الله عليه السلام، فكانوا هم حداة الركب ،وهداة الأمة(12).

فقد كان رسول الله ﷺ يزكيهم، وينقيهم من أوضار الجاهلية، فإذا كان السعيد الذي فاز بفضل الصحبة من رأى رسول الله ﷺ، ولو مرة واحدة في حياته وآمن به، فكيف بمن كان الرفيق اليومي له، ويتلقى منه، ويعبق من نوره، ويتغذى من كلامه، ويتربى علي عينه(13).

وقال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً } (الأحزاب :23).

فالنص القرآني لم يذكر أسماء المؤمنين، بل صور لنا ما كان عليه الصحابة من الجيل الأول، ليبين لنا القاعدة الثابتة للقيم الراسخة والسنن الباقية، ومن ثم تبقى قاعدة ومثلاً لكل جيل.

2- إعداد الأجيال اللاحقة:

لقد حرص النبي ﷺ، على استكمال القواعد الأساسية؛ لمفهوم التربية المستمرة عبر الأزمنة والعصور، يقول النبي ﷺ:" إني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنة نبيه "(14).

(12)التربية القيادية ،منير الغضبان ، (1 : 201)، دار الوفاء ط1 ، المنصورة – 1998م.
(13)نفس المرجع ، (1 / 202 ، 203).
(14)الموطأ للإمام مالك، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر، (ص : 564).

لقد توافدت الأجيال اللاحقة، على منوال الدعوة فكان منهم العلماء الأفاضل، الذين أسهموا في الرقي، بالثقافة الإسلامية، فعلومهم باقية ومتأصلة إلى اليوم، ولم يدم طويلا حتى صارت راية الإسلام تخفق في أرجاء المعمورة، ..هذا كله كان لجهد له ثمرته إلي يومنا هذا.

أن الإسلام منهج، وهو منهج ذو خصائص متميزة: من ناحية التصور الاعتقادي ،ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها، ومن ناحية القواعد الأخلاقية، التي تقوم عليها هذه الارتباطات، ولا تفارقها، سوأ كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، وهو منهج جاء لقيادة البشرية كلها، فلا بد إن تكون هناك جماعة من الناس تحمل هذا المنهج لتقود به البشرية(15) .

ب-مسار الإعداد:

إنَّ غاية الدعوة هو تمكين الإيمان في قلوب الناس، وبذلك يتحقق الهدى لبني الإنسان، - تصوراً واعتقاداً وسعياً – وبذلك تتحقق له السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة.

ويحدد القرآن الكريم الأسس التي يبني عليها الرسول لتحقيق مسار الهدى بقوله تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ } (آل عمران:164).

وبناء على الآية الكريمة فإن مسار الإعداد يتجسد في حقيقة الرسول ﷺ، وعظم المنة الإلهية، ودورها في إنشاء هذه الأمة، وتعليمها، وتربيتها، وقيادتها، والسير بها في طريق العلم والتقدم، والذي سار عليه الرسول ﷺ، له محاور أربع هي: تلاوة الآيات، التزكية، تعليم الكتاب، تعليم الحكمة؛ وهنا أرى إن الحكمة هي جزء من ثقافة النبي ﷺ، التي نريد أن نطرحها بشكل أوسع، يتوافق و مسار الدعوة.

1-تلاوة الآيات

وهذا يقودنا إلى تعريف القرآن الكريم اصطلاحاً؛ عن علماء الشريعة، (هو المراد به كلام الله المنزل على سيدنا محمد للإعجاز المتعبد بتلاوته، المنقول ألينا بالتواتر كتابة ومشافهة جيلاً بعد جيل)(16) .

(15) في ظلال القرآن ، سيد قطب، (1: 440) دار الشروق ط39 ، القاهرة – 2011م.
(16) الوسيط في أصول الفقه ، عمر مولود عبد الحميد ، (ص :41) ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي – ط2 ، 2002م).

فمن خلال التعريف؛ " المتعبد بتلاوته " الراجح أن لفظه ومعناه من عند الله (17).

حيث ان تلاوته في حد ذاتها ولولم يقصد بها التعبد تكون عبادة، زيادة على إن من العبادة ما لا يصح بدونه وذلك كالصلاة(18).

وقوله تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } (البقرة :121) .

وقال سعيد عن قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ، وقال ابن مسعود: والذي نفسي بيده إن حق تلاوته إن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه، و يتأول منه شيئاً على غير تأويله، وقال الحسن البصري: يعلمون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما أشكل عليهم إلي عالمه(19).

ومن هذا المنطلق أرى؛ أن التلاوة ليست شرط أساسي لفهم النصوص القرآنية، وإنما مسار الإعداد هو الأساس الذي يكمن في التلاوة الحقيقية التي تقود إلى التفكر، والتأمل في الأنفس، وفي الآفاق ، وهنا تتضح قوة العقيدة التي زرعت، وتمكنت في قلوب المؤمنين السابقين، وبما يتأكد بمسار عملي وتطبيقي، من خلال بيان الآيات، وهذا ما سنوضحه.

1/ 1 –بيان الآيات :

إنَّ المتتبع لسياق الآيات؛ في القرآن الكريم يجد من الأحوال والأمور ما تبين وتفصل الآيات، كلاً حسب المواقف المتعددة لتقلبات الأيام ومعطياتها.

ويعنى القرآن فيه بيان الأمور على جليتها، وفيه خير ما قبلكم وهدى لقلوبكم وموعظة أي زاجر عن المحارم والمآثم (20).

وهنا كان علينا لزاماً أن نورد نموذجاً يتضمن بيان آية من آيات القرآن الكريم، من خلال توصياته، و توجيهاته ﷺ، لنستقي من بعض ثقافته ﷺ، حتى وهو في أشد الأمور هولاً وفي ميادين القتال؛ يقول الله تعالى: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ }(البقرة:190).

(17)الحديث والمحدثون ، محمد أبو زهوا،(ص : 16).
(18)مرجع سابق ذكره (16)، (ص : 42).
(19)تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، (1 :115). (20)نفس المرجع ، (1 : 320).

وهذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: " اغزوا في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الوليد، ولا أصحاب الصوامع "، وعن ابن عباس قال " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا بعث جيوشه قال: اخرجوا باسم الله، قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، لا تعتدوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع(21).

وهنا قد يبتعد الإنسان عن مسار الهدى، والرسول معنى ببيان آيات الله لهؤلاء وتذكيرهم، والانتقال بهم إلى الربط بين عظمة الخلق وعظمة الخالق جل وعلا، وبذلك ترسخ أول بذور الإيمان، فإذا فكر الإنسان في نفسه فقط بل في أي حاسة أو أي جهاز من أجهزة جسمه وكيف يعمل لا يلبث إن يقر وجدانياً بعظمة الخالق(22).

والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعا في الحياة؛ فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تختلف، والأمور لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا درسوها، وادكروا مغازيها، تكشفت لهم حكمة من وراء الإحداث وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام التي تتبعه الأحداث والى وجود الحكمة الكامنة(23).

فكانت تربية النبي ﷺ، لأصحابه شاملة، لأنها مستمدة من القرآن الكريم، الذي خاطب الإنسان، ككل يتكون من الروح، والجسد، والعقل، فقد اهتمت التربية النبوية بتربية الصحابي على تنمية قدرته في النظر، والتأمل والتفكر والتدبر، لأن ذلك هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدعوة إلى الله، وهذا مطلب قرآني(24).

و يقول الله عزوجل: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } (آل عمران :191).

(21) رواه الإمام احمد وأبو داود، تفسير القرآن العظيم ،لابن كثير ،(1 :171).

(22)مرجع سابق ذكره (10)، (ص : 75).

(23) مرجع سابق ذكره (15)، (1: 478). (24) مرجع سابق ذكره (7)، (1 : 113).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها، قال روى هذا المعنى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية عذاب تعوذ(25).

1/ 2: إتباع الآيات :

إن إتباع الآيات واستيعابها يؤدي إلى تفعيل العقل، وإيمان القلب، واستجابة جميع الحواس، لتعمل على توظيف القدرات، ضمن الثقافة القرآنية لكل آية والتي مصدرها كتاب الله عزوجل " القرآن العظيم ".

يقول الله عزوجل: {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } (التوبة :105).

ذلك إن المنهج الإسلامي منهج عقيدة وعمل يصدق العقيدة، فمحك الصدق هو العمل الظاهر، يراه الله ورسوله والمؤمنون، فأما في الآخرة فمردهم إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم فعل الجوارح(26).

وأن الإسلام منهج حياة واقعية، لا تكفي فيه المشاعر والنوايا، ما لم تتحول إلى حركة واقعية، وللنية الطيبة مكانها؛ ولكنها هي بذاتها ليست مناط الحكم والجزاء.

إنما هي تحسب مع العمل، فتحدد قيمة العمل، وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم:" إنما الإعمال بالنيات "(27).

وأن كل آية من آيات الله في الأنفس والآفاق، تحقق قوامه حياة الإنسان على هذه الأرض المستخلف فيها، ولا تتحقق له القوامة ما لم يستوعب الآيات ويتبعها أي يطبقها ويعمل بمقتضاها(28).

2- التزكية :

ربى رسول الله ﷺ، أصحابه على تزكية أرواحهم، وأرشدهم إلى الطريق التي تساعدهم على تحقيق ذلك المطلب، من خلال القرآن الكريم(29).

(25)مرجع سابق ذكره (19)، (1 :115).
(26)مرجع سابق ذكره (15)، (3 : 1708).
(27)نفس المرجع ، (3 : 1709).
(28) مرجع سابق ذكره(10)، (ص :75).
(29)مرجع سابق ذكره (7)، (1 : 111).

يقول الله عزوجل: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا } {وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا } (الشمس9 ، 10).

وروي عن ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ : {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }(الشمس: 8) ،قال : اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها "(30).

ومن المسلمات الأساسية في الإسلام، شموله وتكامله، وهو نظام يتكامل فيه الجانب النظري مع الجانب العملي، فكان لابد للعقيدة الإسلامية بعد إن تحقق السمو للإنسان في الجانب النظري العقلي المجرد عن العمل، إن تهتم بالجانب السلوكي العملي المتفرع عن النظر، وأعني بالجانب الأخلاقي، ومن خلال الإمعان والتحليل للأحاديث النبوية يتأكد لنا؛ إن الفضيلة الخلقية مقصد من المقاصد العقدية، فجاءت العقيدة الإسلامية محققة له، مرسية لدعائمه.

أ- الأخلاق: روي عن النبي ﷺ، وأكد ربط بعثته بالأخلاق وأنه لا يقام الدين إلا بالأخلاق الفاضلة بقوله: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : " إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ. " (31).

ويؤكد لنا النبي ﷺ، في حديث أخر إن تحقيق الفضيلة الخلقية مقصد عقدي بحسب نص السؤال: أي المؤمنين أفضل إيماناً ؟ فقال: أحسنهم أخلاقاً(32)، فجعل النبي ﷺ، الأفضلية للذي يتحقق بهذا المقصد العقدي العملي فقد فاضل – بحسب نص السؤال – بين المؤمنين، وهذا يعني أنهم قد تتحققوا بالجانب النظري من الإيمان وهو التصديق، وما يلازمه شرعاً من إتيان العبادات، فكانت المفاضلة في أمر خارج عنهما داخل في مسمى الإيمان، وهو" حسن الخلق"، فقال تعالى: {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ }(البقرة :177)، فالبر هو الإيمان ، وقد عرفه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: " البر حسن الخلق "(33).

(30) أخرجه ابن حاتم ، لابن كثير، (3 : 639).
(31) مكارم الأخلاق ، أبي بكر عبدالله بن محمد بن عبيد أبن أبي الدنيا (المتوفي : 281ه) ، (1 : 18) ، تحقيق ، محمد عبد القادر عطا ،دار الكتب العلمية – لبنان – ط1، 1989م . رواه البخاري ، الأدب المفرد ، بلب حسن الخلق ، (رقم الحديث : 273).
(32) مكارم الأخلاق ، للحافظ أبي بكر ابن أبي الدنيا ،حققه محمد عبد القادر عطا ، (1 : 315) ، رقم الحديث : 9 ، باب ما جاء في حسن الخلق ،رواه عن الإمام أحمد في مسنده (2 : 250).
(33)رواه مسلم ، جامع العلوم والحكم ، ابن رجب الحنبلي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخر،(2 : 93) رقم الحديث : السابغ والعشرين ، مؤسسة الرسالة – 2001م

فكانت الفضيلة الخلقية هي مقياس للتفاضل بين المؤمنين، بل هي الإيمان بمنزلة الجزء الذي لا ينفك عن كله، لذلك تتأكد أحد المقاصد العقدية التي جاءت العقيدة الإسلامية محققة لها.

فكانت تزكية النبي ﷺ، محل لمنة الله عز وجل؛ والتزكية هي التحقق بالفضيلة الخلقية، والتطهر من دنس الخبائث، فالأخلاق إذن ليست مجرد جزء من النظام الإسلامي العام، بل هي جوهر الإسلام ولبه، وروحه السارية في جميع نواحيه.

لذلك كان على الرسول ﷺ، أن يزيح من النفوس كل ما علق بها من مورثات فكرية قبل الرسالة ومعتقداتها وتصوراتها وقيمها وأخلاقياتها وسلوكياتها، وإقامة هذه التزكية على أساس تفاعلي مع فقه الآيات، فيغدوا التزام سبيل الهدى نابعا من أعماق النفوس باقتناع وجداني، والتزام معطيات الرسالة عن إيمان عميق بما جاء فيها(34).

ب-العبادات:

العبادات المفروضة كالطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج وغيرها.

والعبادات بمعناها الواسع، ويشمل كل شيء ينوي به التقرب إلى الله سبحانه وتعالى فهو عبادة يثاب صاحبها، وتربى روحه تربية حسنة(35).

إنَّ تزكية الروح بالصلاة، وتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى، والتسبيح له سبحانه أمر مهم في الإسلام، فإن النفس البشرية إذا لم تتطهر من أدرانها لم تتصل بخالقها لتقوم بالتكاليف الملقاة عليها، والعبادة المداومة عليها تعطي الروح وقوداً وزاداً ودفعاً قوياً إلى القيام بما تؤمر به (36).

أن الصلاة تأتي في مقدمة العبادات التي لها أثر عظيم في تزكية روح المسلم، ولعل من أبرز آثارها التي برزت وتباينت في الرعيل الأول: -

(34)مرجع سابق ذكره (10)،(ص: 76).

(35)فقه الدعوة إلي الله ، علي عبد الحليم محمود ، (1: 471، 472)، دار الوفاء ، ط1 ، 1990م .

(36)مرجع سابق ذكره (7)، (1 :112).

1- الاستجابة لأمر الله تعالى، وإظهار العبودية له سبحانه: وقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الذين استجابوا لأمره، فقال عزوجل: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}(الشورى :38).
2- ويقول الله عزوجل: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي }(طه : 14).

وكان الجيل الأول يرى إن لكل عمل من أعمال الصلاة عبودية خاصة، وتأثيراً في النفس وتزكى الروح (37).

3- دعاء العبد ربه: وقد بين رسول الله ﷺ، مشهداً من مشاهد هذه الدعاء، فقد قال رسول الله ﷺ: (قسمت الصلاة بين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: {الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }، قال الله تعال: حمدني عبدي .وإذا قال: { الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ }، قال الله تعالى: اثني علي عبدي، وإذا قال: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ }، قال: مجدني عبدي، وإذا قال: (اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ)، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل(38).
4- طمأنينة النفس: كان رسول الله ﷺ، إذا حز به أمر فزع إلي الصلاة(39)، وقد جعلت قرة عينه الصلاة(40)، وهو الوثيق الصلة بربه الموصول الروح بالوحي و الإلهام(41).
وقد علم الرسول ﷺ، الصحابة كثيراً من السنن والنوافل ليزدادوا صلة بربهم وتأمن بها نفوسهم، وتصبح الصلاة سلاحاً مهما لحل همومهم ومشاكلهم(42).
5- الصلاة حصن من المعاصي: قال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ }(العنكبوت :45).
فكان الصحابة رضي الله عنهم، عندما يؤدون صلاتهم، تستريح بها نفوسهم، وتمدهم بقوة دافعة لفعل الخيرات، والابتعاد عن المنكرات، وتغرس في نفوسهم مراقبة الله عزوجل ورعاية حدوده والتغلب على نوازع الهوى ومجاهدة النفس، فكانت لهم سياجاً منيعاً حماهم من الوقوع في المعاصي(43).

(37) مرجع سابق ذكره (7)، (1 : 112).
(38) رواه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة (رقم 395).
(39)رواه أبو داود في الصلاة (رقم 1319).
(40)رواه الحاكم ، (2 : 160) .
(41)في ظلال القرآن ، سيد قطب ، (1 : 69) ،دار الشروق ط39 ، القاهرة – 2011م.
(42)مرجع سابق ذكره (7)، (1 :112).
(43) منهج الإسلام في تزكية النفس، أنس أحمد كرزون ، (1 :227)دار نور المكتبات ، دار ابن حزم – ط2 - 1997م

ويقول عز وجل: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ }(البقرة :45)، وهكذا يبقى الينبوع في متناول كل مؤمن، وخير عون يستقى منه، وهذا مصداقاً لقوله تعالى:{... وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } (المطففين :26).

- تعليم الكتاب

إنَّ مسار الإعداد يتضمن تعليم الكتاب " القرآن الكريم " وهو الشامل لكل مسارات الهدى {إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً } (الإسراء :9).

يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق، وينظم علاقات الناس بعضهم ببعض.

ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا كلها مشدودة إلى العروة الو ثقي التي لا تنفصم(44).

والكتاب هو أساس التشريع للمسلم؛ الذي آمن من خلاله بفقه الآيات وإتباعها، بحيث يلتزم المؤمن بعد علمه بالأحكام الشرعية؛ فهو المكلف قولاً وعملاً.

تعليم الحكمة:

إنَّ برنامج مسار الإعداد هي تعليم المؤمنين الحكمة، والحكمة هي: "معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم"(45).

ويقول الرسول ﷺ: " لا حسد إلا في اثنين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها "(46).

(44) في ظلال القران ، سيد قطب ، (4 : 2215)، دار الشروق ط39 ، القاهرة – 2011م.
(45) مرجع سابق ذكره (10)، (ص : 77).
(46) رواه البخاري ،تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، (1 : 243).

وقد أشرت إلى إن الحكمة هي: ثقافة النبي ﷺ القرآنية، وكل ما أتى به وأقره النبي ﷺ، في أحاديثه كما يطلق عند علماء الحديث على معنى الحديث نفسه بمعنى : (أنها أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريرا ته(47).

ومن سياق النص القرآنيَ (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) "الحكمة " فقد علم النبي صلى الله عليه وسلم، وربى رجالا قادوا المسيرة؛ فعلمهم كيف يلتزم الإنسان بهدي رب العالمين، علمهم اللين بالعمل، والأخلاق بالمثل، والسلوك بالقدوة، والفضائل بالأسوة، وطهر القلوب من الآثام والنفوس من الإجرام، وأهلهم لأن يكونوا قادة أمم ورواد حضارة وأساطين علم، وملأت سمع التاريخ وبصره أسماء لولا الإسلام لم تكن شيئاً مذكور(48).

ووضح النبي ﷺ، كيف تكون القيادة الحكيمة، ضمن مسار الإعداد في كل ميادين الحياة يقول عز وجل: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً }(الأحزاب :21).

(47)الوسيط في أصول الفقه الإسلامي ،عمر مولود عبد الحميد ، (ص : 79) ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي – ط2 ، 2002م).

(48)مرجع سابق ذكره (10)، (ص : 80).

المبحث الرابع/ ثقافة التربية والتعليم في المدرسة المحمدية

جاء الإسلام بمنهاج شامل في تربية النفوس، وتنشئة الأجيال، وبناء الحضارات، فتحولت الأمة التائهة؛ التي كانت منغمسة في الوثنية والجهالة والفوضى العارمة، إلى نور التوحيد والعلم و الاستقرار قال تعالى: (... قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{15} يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{16}) (المائدة: 15،16).

1-التربية النبوية :-

إنَّ النصوص وحدها لا تصنع رجال، وإن كتاب الله لا يعمل وحده، وإن الدعوة لا تتجسد إلا بأن تكون سلوكا ملموساً تظهر ثمرته جيلاً بعد جيل، فقد نشأ الرعيل الأول من الصحابة، على تربية الرسول ﷺ.

فعن الصحابي الجليل(عبدالله بن مسعود) رضي الله عنه في تعداد محامد الصحابة رضي الله عنهم، (من كان متأسياًا فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً، واقلها تكلفاً، وأقومها هدياًا، وأحسنها حالاً، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم(1)، ويقول السيد قطب "رحمه الله" : (انتصر النبي صلى الله عليه وسلم، يوم صنع أصحابه – عليهم رضوان الله – صورا حية من إيمانه ..يوم صاغ من كل منهم قرآنا حياً يمشي علي الأرض، يوم جعل من كل فرد نموذجاً مجسماً للإسلام، يره الناس فيرون الإسلام)(2).

كانت التربية النبوية، شاملة قائمة، على جملة قواعد ثابتة، من منظومة القرآن الكريم، والتي تخاطب الإنسان وتؤهله بنظام متكامل شامل؛ روحاً وعقلاً وجسداً.

أ-التربية المعنوية:

إنَّ تربية النبي ﷺ، تضمن إعداد الفرد إيمانياً، قبل أن يكون مادياً أو عملياً، فإن الاهتمام المادي لا يكون مؤثراً؛ إن لم يسبقه إعداد معنوي يعتبرأساس لمرحلة العمل، و يستوضح لنا من خلال دعوة النبي ﷺ وهو يدعو سراً، وتمحورت الدعوة في قول: (لا اله إلا الله)، وتمكينها في قلوب الناس ومن ثم انتقلت الدعوة إلى مرحلة تدرج الإحكام، من سياق العرض والتوجيه الإلهي في كتابه العزيز.

لذلك اهتم النبي ﷺ، بتعميق إيمان المسلمين بآية التوحيد العظمى، التي تضمنتها الرسالة.

(1)تربية الأولاد في الإسلام ،عبدالله ناصح علوان ، (ص:9) ، دار السلام للنشر ، ط1 – 1992م.

(2) نفس المرجع،(ص:7).

لتغدوا منطلقا تهم الحياتية إيمانية، و تضبط حركة حياتهم في هذه الحياة وتبوئهم مقعد صدق في الحياة الأخرى(3).

ب -التربية العقلية

وضع القرآن الكريم مساراً منهجياً متضمنا تربية العقل، سار عليه النبي ﷺ، لتربية أصحابه، ضمن فيه أطار ترسيخ الإيمان؛ من خلال تجريد العقل من سلسلة التبعية والتقليد والظن والتخمين.

فكان الرسول ﷺ، يخاطب عقول القوم الذين يدعوهم، ويستند في التعليل العقلي إلى القرآن الكريم(4).

- قال تعالى: (أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ{58} ءأنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ{59}(الواقعة :58 ، 59).

- (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ{71} قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ{72}). (القصص : 71 ، 72).

- فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{50}(الروم : 50).

والكثير من الآيات القرآنية، التي تنير العقل، وتجعله مدركاً لقوة الخالق وعظمته، كذلك دعوة العقل إلى التأمل في بداية الإنسان، وتكوينه قال تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }(المؤمنون :14).

إنَّ دعوة العقل إلى النظر إلى سنة الله في الناس عبر التاريخ البشري ، ليتعظ الناظر في تاريخ الآباء ، والأجداد والأسلاف، ويتأمل في سنن الله في الأمم والشعوب(5)، وهذا يقودنا إلى التربية النبوية من خلال القصص القرآني فهو، (غني بالمواعظ والحكم ، والأصول العقدية، والتوجيهات الأخلاقية، والأساليب التربوية، والاعتبار بالأمم والشعوب، والقصص القرآني ليس أموراً تاريخية، لا تفيد إلا المؤرخين، وإنما هو أعلى وأشرف وأفضل من ذلك، فالقصص القرآني ممتلئ بالتوحيد، والعلم، ومكارم الأخلاق، والحجج العقلية، والتبصرة والتذكرة، والمحاورات العجيبة(6).

(3)النبي المربي ، أحمد رجب الأسمر ،(ص : 106)، دار الفرقان للنشر والتوزيع ،ط1 ، عمان – الأردن - 2001.

(4)نفس المرجع ، (ص : 110).

(5)السيرة النبوية ،علي الصلابي ، (1 : 113) دار المعرفة للطباعة والنشر ط10 ، بيروت ، لبنان – 2010م.

(6)نفس المرجع ، (1 : 115).

فالقصص القرآني يحمل بين طياته معنى إصلاحي تهذيبي كبير يهدي به الله من يشاء(7)، ولقد وجه القرآن الكريم إلى هذا الهدف، فقال عزوجل بقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }(يوسف:111).

- (....فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }(الأعراف :176).

- {قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ }(يونس :101).

- {فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ }(يونس :102) .

هكذا كانت تربية النبي صلى الله عليه وسلم، علماً يتحدى به، فتربوا الصحابة وترعرعوا على يد هادي البشرية جميعاً، فنارت بصائرهم ونضجت عقولهم، فعرفوا بسبب محركهم الأساسي وهو القرآن الكريم.

وانتشر الإسلام بالعلم لا بالسيف واستعمال الحكمة التي تقود إلى التقدم والرقي، كل هذا يتأكد لنا؛ في ثقافة النبي ﷺ، ودوره في توظيف أساليب التربية العقلية بصورة راقية نموذجية.

(7)إجمال البيان في مباحث من علوم القرآن ،عبدالله أحميد ، (ص : 239)، دار النسيم – بيروت ، ط 1 .

ج- التربية الجسدية :

اتبع النبي صلى الله عليه وسلم، خطوات رئيسية، في تربية أصحابه جسدياً، واستمد أصوله من تربية القرآن الكريم، بحيث يؤدي الجسم مهامه كلاً حسب وظيفته، من دون إفراط ولا تفريط، ولا إسراف ولا تقتير يقول الحق تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ....}(البقرة :286).

ومن أوليات الدين هي المحافظة على النفس البشرية قال تعالى: { وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }(البقرة :195).

وهكذا فقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم، على تنمية قدرة الفرد جسدياً وتأهيله ضمن أطار تنظيمي بحث وهو ضبط حاجته إلى الطعام والشراب؛ ابتداء من نعومة أضافره قال تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ...}(البقرة :233)

وهذا ما يؤكدون عليه، في هذا العصر، من إتمام الرضاعة الطبيعية ،

ويرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم، في حاجة الجسد والمحافظة عليه يقول: (ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة ؛ فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه)(8) .

وعلى الإنسان أن يفي باحتياجات أهله، ضمن موارد الإنتاج الشرعية، وإن لا يتكل على أحد يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول..) (9).

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (طعام الاثنين كافي الثلاثة ، وطعام الثلاثة كافي الأربعة)(10).

فيه استحباب الاجتماع على الطعام، والإشارة إلى أن المواساة إذا حصلت حصل معها البركة فتعم الحاضرين .

ويقول عزوجل: {... وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } (الأعراف :31).

كذلك هناك ضابط يفهم ، من سياق الآية للفرد وهو حاجته إلى الملبس، وما يستر عورته.

(8) رواه الترمذي، شرح رياض الصالحين ، شرح وتحقيق الحسيني عبد المجيد هاشم ، (ص : 335).
(9)متفق عليه ، نفس المرجع ، (ص : 343).
(10)متفق عليه ، نفس المرجع ، (ص : 359).

قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ }(الأعراف:26).

و ما يقي الجسم من البرد والحر قال الله تعالى: {..وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ..}(النحل :81).

د- التربية التعليمية

إنَّ تربية أمة وإعدادها للتفوق ضمن إطار العلم، لا تكتمل مطلقاً؛ ما لم تتخذ خطوات عمليه، تعرف في العصر الحديث، (إعداد التأهيل التربوي أو المعرفي)

وكما عرضنا فيم سبق البيئة التي عايشت بزوغ فجر الرسالة، كانت صريعة الجهل المطبق، ولهذا كان أسلوب النبي ﷺ؛ في دعوته بالاحتواء المعرفي، وهو مدرك للبيئة التي يعيش فيها، ومع من يتعامل مع أصناف القوم ودعوتهم للإسلام، كما حفز النبي ﷺ، في تربيته على الجهد المعرفي وحفز عليه بقوله : (فضل العلم خير من فضل العبادة وخير دينكم الورع)(11).

(من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتي يرجع)(12).

(إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو عمل ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)(13).

وقد وجه النبي ﷺ، وأشار إلى ضوابط أساسية في البناء المعرفي والعملي :

ويؤكد النبي ﷺ، على إتقان العمل: (إنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عمل ان يتقنه)(14).
كما ينهي ويحذر من اللجؤ إلى العلم الظني والذي يبني على الشك فيقول:
في الادعاء (من تطبب ولم يعلم عنه الطب فهو ضامن) أي يضمن نتيجة معالجته(15) .
وفي البناء الحكمي: (.... من أفتي بغير علم كان إثمه علي من أفتاه....(16)) .
وفي المعلومة الظنية (.. إياكم والظن ، فان الظن أكذب الحديث .....(17)).

وفي محاربة الظواهر السلبية (الشعوذة) يقول: (من أتى عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل علي محمد)(18) .

(11)المدخل إلي السنن الكبري ، للبيهقي ،(رقم الحديث: 343) باب فضل العلم ، وهو حديث مرفوع .
(12)رواه الترمذي ، رياض الصالحين ، للأمام النووي ، باب فضل لعلم ،(رقم الحديث : 10).
(13)رواه مسلم ، (رقم الحديث : 8)، نفس المرجع .
(14)رواه البيهقي ، شعب الإيمان ، (4 :334).
(15)رواه النسائي ، (8 : 53).
(16)مسند أحمد بن حنبل ، (رقم الحديث: 8578).
(17) صحيح البخاري ، (رقم الحديث: 4774).
(18) المستدرك علي الصحيحين ، (رقم الحديث: 14) ، الحاكم النيسابوري ، وهو حديث متفق عليه .

أ- طرق التعليم التربوية : -

إن الإسلام يؤكد على نشر المعرفة، ويجعل ثوابها إلى الله عزوجل، إضافة إلى ما يلقاه العالم من تكريم الناس، والنبي ﷺ، يربى المسلمين على ايجابية المعرفة، والغاية من ذلك؛ هو نشر العلم المفيد وعدم كتمانه، فقد حذر النبي ﷺ، من كتمان العلم يقول:(إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته ، علم علمه ونشره (19)).

وقال: أفضل الصدقة، إن يتعلم المرء، المسلم علماً ثم يعلمه أخاه المسلم (20)) وللنبي ﷺ، أسلوبه العالي في تطبيق قواعد التعليم وما يعرف اليوم (بطرق التدريس العامة) فقد استمر النبي في منهجه لكي يعلم أصحابه، ويوضح له دقائق الشريعة وأحكامها، وكان توجيهه ﷺ، لأصحابه أحيانا فردياً وأحيانا جماعياً، وترك لنا النبي المصطفي عليه الصلاة والسلام، ثروة هائلة في وسائله التربوية في التعليم وإلقاء الدروس، فقد راعى ﷺ، الوسائل التربوية التي تعين على الحفظ وحسن التلقي، وتؤدي إلى استقرار الحديث في نفوس وأفئدة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم (21).

1-إلقاء الحديث وإعادة تكراره.

كان النبي ﷺ، شديد الحرص في إلقاء حديثه، حتى يفهم، وهذا يؤكد على ثقافته التربوية ﷺ، حيث كان يراعي الفرو قات الفردية بين المستمعين ودرجة استيعابهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم ..(22))

(19) رواه البيهقي،شعب الإيمان، باب الثاني والعشرين ،(رقم الحديث: 3171).
(20) سنن ابن ماجه ، كتاب ابن ماجه ، (رقم الحديث: 239)أَبْوَابُ فِي فَضَائِلِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ.
(21) مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم ، عبد الرحمن البر ،(ص : 59،60)،دار اليقين المنصورة ، ط1 – 1999م.
(22) البخاري : كتاب العلم ، باب من أعاد الحديث ثلاثا ..، ورقمه (95).

2- التأني في الحديث وعدم الإطالة واختيار الوقت المناسب:

كان ﷺ يتأنى في حديثه، ولا يستعجل بين كلمة وأخرى حتى يتسنه للسامع الفهم والحفظ، فقد بلغ عنه ﷺ أنه: (كان يسهل علي السامع أن يعد كلماته ﷺ لو شاء(23))

وكان النبي ﷺ، يختصر في مقدار ما يلقيه، ويراعي في حديثه، ما يتوافق، مع الحدث؛ والزمن حتى لا يمل الصحابة فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ، يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا(24)) .

3- الاستعانة بالأمثال والموعظة:-

للمثل أثر بالغ في إيصال المعنى إلى العقل والقلب، ذلك أنه يقدم المعنى في صورة حسية فيربطه بالواقع ويقربه إلى الذهن، فضلاً عن أن للمثل بمختلف صوره بلاغة تأخذ بمجامع القلوب، وتستهوي العقول، وبخاصة عقول البلغاء، ولذلك استكثر القرآن من ضرب الأمثال، وذكر حكمة ذلك في آيات كثيرة، فقال تعالى: {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }(الحشر :21) (25) .
إلى ذلك من الآيات، وعلى هذا المنهج الكريم سار النبي صلى الله عليه وسلم، فاستكثر من ضرب الأمثال، فقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنها: " حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل (26) .
وقد ألفت كتب متعددة في الأمثال في الحديث النبوي من أقدمها كتاب: (أمثال الحديث للقاضي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي(ت 360 ه)(27).

4- طريقة المسائلة :

أن طرح السؤال من الوسائل التربوية المهمة في ربط التواصل القوي بين السائل والمسؤول، وفتح ذهن المسؤول، وتركيز اهتمامه على الإجابة، وإحداث حالة من النشاط الذهني الكامل، ولذلك استخدم النبي ﷺ، السؤال في صورة متعددة لتعليم الصحابة، مما كان له الأثر في حسن فهمهم وتمام حفظهم، فأحياناً يوجه النبي ﷺ، السؤال لمجرد الإثارة والتشويق ولفت الانتباه، ويكون السؤال عندئذ بصيغة التنبيه (ألا)غالباً(28).

(23) مرجع سابق ذكره (21) ، (ص :62) .
(24)رواه البخاري ، كتاب العلم ، باب ما كان النبي صلي الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة ، رقم (68).
(25)مرجع سابق ذكره (5)، (1 : 113).
(26)مرجع سابق ذكره (23)، (ص : 65).
(27) نفس المرجع ، (ص : 65).
(28)مرجع سابق ذكره (5)، (1 : 377 ، 378).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه بلى، يا رسول الله، قال: " ألا أدلكم على ما يمحو به الله الخطايا، ويرفع به الدرجات " قالوا بلى يا رسول الله، قال: " إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطأ إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط "(29).

وأحياناً يسألهم النبي ﷺ، عما يعلم أنهم لا علم لهم به، وإنهم سيكلون علمه إلى الله ورسوله، وإنما يقصد إثارة انتباههم للموضوع، ولفت أنظارهم إليه(30) .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ، قال: (أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال: (إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا واكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، فان فنيت حسناته قبل ان يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طرح في النار(31).

فهذا الاستحسان والتشجيع يبعث المتعلم على الشعور بالارتياح والثقة بالنفس، ويدعوه إلى طلب وحفظ المزيد من العلم وتحصيله(32).

4-طرح المعاني الغريبة، بقصد السؤال والاستفسار:

وألطف ذلك وأجمله ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن رسول الله ﷺ، مر بالسوق، داخلا من بعض العلية، والناس كنفته (33)، فمر بجدك أسك(34)، ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: (أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟" قالوا: ما نحب انه لنا بشي وما نصنع به؟ فقال: " فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم "(35).

(29) رواه مسلم : كتاب الطهارة ، باب فضل إسباغ الوضوء ، ورقمه (41 - (251)) .
(30)مرجع سابق ذكره ،(12)، (ص :67) .
(31) رواه مسلم ، كتاب البر والصلة ،باب تحريم الظلم ، ورقمه (581) .
(32) مرجع سابق ذكره (30)، (ص: 69) .
(33) كنفته : يعني عن جانبه ، والكنف بالتحريك : الناحية والجانب .
(34)أسك : مصطلح الأذنين مقطوعهما ، البداية والنهاية ، ابن كثير ،(2 : 384).
(35) رواه مسلم : كتاب الزهد والرقائق ، ورقمه (2957).

5- استعمال الأسلوب الأمثل والعبارات اللطيفة :-

أن استعمال لطيف الخطاب ورقيق العبارات يؤلف القلوب، ويستميلها إلى الحق، ويدفع المستمعين إلى الوعي والحفظ، فقد كان ﷺ، يمهد لكلمه وتوجيهه بعبارات لطيفة رقيقة، وبخاصة إذا كان بصدد تعليمهم ما قد يستحيا من ذكره، كما فعل عند تعليمهم آداب الجلوس لقضاء الحاجة، إذ قدم لذلك انه مثل الوالد للمؤمنين، يعلمهم شفقة بهم(36).

فقد قال: (إنما إنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة، ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمنه)(37).

ب-استخدام الوسائل التعليمية (التوضيحية):

كان النبي ﷺ، يستخدم ما يسمى اليوم بالوسائل التوضيحية للتقرير وتأكيد المعنى في نفوس وعقول السامعين، وشغل كل حواسهم بالموضوع، وتركيز انتباههم فيهم مما يساعد على تمام وعيه وحسن حفظه بكل ملابساته(38)، ومن هذه الوسائل:

1- التعبير بحركة اليد: كتشبيكه ﷺ، بينا أصابعه وهو يبين طبيعة العلاقة بين المؤمن وأخيه، فعن أبي موسي الاشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)، وشبك بين أصابعه(39).

2-التعبير بالرسم: " فقد كان صلى الله عليه وسلم، يخط على الأرض خطوط توضيحية تسترعي نظر الصحابة، ثم يأخذ في شرح مفردات ذلك التخطيط وبيان المقصود منه، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا، ثم قال: " هذا سبيل الله مستقيماً "، ثم خط خطوط على يمينه، وعن شماله ثم قال: " هذا سبل – قال يزيد: متفرقة – على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه " ثم قرأ: {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } (40)(الأنعام :1

(36) مرجع سابق ذكره ، (21)،(ص : 74) .
(37) رواه أبو داود ، كتاب الطهارة ، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة (1 / 3 ، رقم 8)وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود .
(38) مرجع سابق ذكره (5)، (ص : 379).
(39) صحيح البخاري: كتاب المظالم ، باب نصر المظلوم ، (2446).

(40) مسند الإمام أحمد ، (1 : 435)، وأخرجه الحاكم (2 : 318).

3-التعبير برفع و إظهار الشيء موضع الحديث: كما فعل صلى الله عليه وسلم عند الحديث عن حكم لبس الحرير والذهب، فعن علي أبي طالب رضي الله عنه، قال: ان نبي الله صلى الله عليه وسلم، أخذ حريراً فجعله في يمينه، وأخذ ذهباً فجعله في شماله ثم قال: " إن هذين حرام على ذكور أمتي "(41)، وفي رواية عند النسائي عن أبي موسي: " أحل الذهب والحرير لإناث أمتي، وحرم على ذكورها "(42).

وزاد في رواية :"احل لإناثهم " فجمع النبي بين القول وبين رفع الذهب والحرير وإظهارهم حتي يجمع لهم السماع والمشاهدة، فيكون ذلك أوضح واعون على الحفظ.

4-التعليم العملي بفعل شيء إمام الناس: كما فعل عندما صعد النبي ﷺ، المنبر فصلى بحيث يراه الناس أجمعون، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي قال: ثم رأيت رسول الله ﷺ صلى عليها (43)، وكبر وهو عليها، ثم ركع وهو عليها، ثم نزل القه قرى(44) فسجد في أصل المنبر، ثم عاد، فلما فرغ اقبل على الناس، فقال: " يأيها الناس، إنما صنعت هذا لتأتموا بي، ولتعلموا(45) صلاتي "(46).

ب-مواصفات المعلم التربوية :

لقد راعى المعلم الأول ﷺ، جملة من المبادئ التربوية الكريمة كانت غاية في السمو الخلقي والكمال العقلي، وذلك في تعليقه على ما صدر من بعض الصحابة جعلت التوجيه يستقر في قلوبهم، وبقى ماثلاً أمام بصائرهم لما ارتبط به من معان تربوية كريمة(47)، وهذه بعض الأساليب الرفيعة التي استخدمها النبي ﷺ :

1-تحفيز المحسن والثناء عليه:

ليزداد المرء نشاطاً وحيوية ، والإقبال على العلم والعمل ، مثلما ورد في حديث النبي ﷺ، وثناءه على أبي موسى الاشعري رضي الله عنه، عندما سمع صوته وهو يقرأ القرآن الكريم، فعن أبي موسى رضي الله عنه أم النبي ﷺ، قال له: (لو رأيتني وأنا استمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داوود "(48).

(41)رواه أبو داود ، كتاب اللباس ، باب في الحرير للنساء رقم (4057).
(42)صحيح سنن النسائي ، وصححه الألباني ورقمه (5163).
(43)عليها : أي علي أعواد المنبر التي صنع منها المنبر .
(44)القهقرى : المشي إلي الخلف ، من غير أن يعيد وجهه إلي جهة مشيه .
(45)أي تتعلموا ، فحذف أحدي التائيين .
(46)رواه البخاري : كتاب الجمعة ، باب الخطبة علي المنبر ، رقم (719).
(47)مناهج وآداب الصحابة في التعلم والتعليم ،عبد الرحمن البر، (ص : 47) ،دار اليقين ، المنصورة ط1 ، مصر– 1999م.
(48)رواه مسلم : كتاب صلاة المسافرين ، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ، رقمه (236 – 793).

2-الرفق بالمخطئ وعدم توبيخه :

كان النبي ﷺ، يقدر ظروف الناس ويراعي أحوالهم، ويعذرهم بجهلهم، ويتلطف في تصحيح أخطائهم ويترفق في تعليمهم الصواب، ولا شك إن ذلك يملأ قلب المنصوح حباً للرسالة وصاحبها، وحرصاً على حفظ الواقعة والتوجيه وتبليغها، كما يجعل قلوب الحاضرين المعجبة بهذا التصرف والتوجيه الرقيق مهيأة لحفظ الواقعة بكافة ملابساتها(49)، مما رواه معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: " بينما إنا أصلي مع رسول الله ﷺ، إذ عطس رجل من القوم، فقلت يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه(50)، ما شأنكم تنظرون إلى؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني، لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني (51)، ولا ضربني ولا شتمني، قال: " ان هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن" أو كما قال رسول الله ﷺ،(52).

أنه كمال الرفق والتوجيه في التعليم، وما خلفه في نفس معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه، من الأثر الايجابي من تعليم النبي ﷺ .

2- عدم التشهير والاكتفاء بالإشارة فيما يذم :

فعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: استعمل رسول الله ﷺ، رجلاً على صدقات بني سليم يدعي ابن اللتبية، فلما جاء حاسبه ﷺ، فقال: هذا مالكم، وهذا هدية فقال: رسول الله ﷺ، " فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك ان كنت صادقاً؟" ثم خطينا، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: " أما بعد، فأني أستعمل الرجل منكم على العمل ...، فيأتي فيقول: هذا مالكم وهذا هدية أهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتينه هديته ؟ والله لا يأخذ احد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفن أحد منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء أو بقرة لها حوار، أو شاة تيعر(53)، ثم رفع يديه حتى رئي بياض إبطه يقول: (اللهم هل بلغت)،بصر عيني وسمع أدني (54).

(49)مرجع سابق ذكره (47)، (ص : 86).

(50)وا : حرف للندبة والحسرة ، والثكل فقدان المرأة ولدها ، أمياه : أي أمي ، ألحق بها ألف تلحق المندوب ، ثم هاء السكت .

(51)الكهر والقهر والنهر متقاربة : أي ، ماقهرني ولا نهرني .

(52)رواه مسلم ، كتاب المساجد ، باب تحريم الكلام في الصلاة ، رقمه (537).

(53)الرغاء : صوت الإبل عند رفع الأحمال عليها ، الخوار : صوت البقر ، تيعر : يعني تصيح ..

(54)رواه البخاري : كتاب الحيل ، باب احتيال العامل ليهدي له ، رقمه (6979).

3- التعنيف والغضب متى كان لذلك داعي :

ومن غضبه ﷺ، من إطالة الصحابة الصلاة وهم أئمة، فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان .فما رأيت النبي ﷺ، في موعظة اشد غضبا من يومئذ فقال: " أيها الناس، إنكم منفرون فمن صلى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة(55).

وغضبه عند اختصام الصحابة وتجادلهم في القدر، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ، على أصحابه، وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: " بهذا أمرتم ؟ أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض؟ بهذا هلكت الأمم قبلكم(56).

ومن ذلك غضبه ﷺ، حينما خالف بعض الصحابة أمره، ويصرون على المغالاة في الدين والتشديد على أنفسهم ، ظناً منهم إن ذلك أفضل مما أمروا به، واقرب إلى الله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال ما يطيقون قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: " أنا أتقاكم وأعلمكم بالله "(57).

لم يكن غضب النبي ﷺ، في تلك المواقف إلا عملاً توجيهياً وتعليماً، وتحريضاً للصحابة على التيقظ ، وتحذيراً لهم من الوقوع في هذه الأخطاء، فالواعظ (58) ، من شأنه أن يكون في صورة الغضبان، لأن مقامه يقتضي تكلف الانزعاج لأنه في صورة المنذر، وكذا المعلم إذا أنكر على من يتعلم منه سوء فهم ونحوه لأنه قد يكون أدعى للقبول منه، وليس ذلك لازماً في حق كل أحد، بل يختلف باختلاف أحوال المتعلمين(59).

(55)رواه البخاري ، كتاب العلم ،باب الغضب في الموعظة والتعليم ، رقم (90).
(56)رواه ابن ماجه ، كتاب المقدمة ،باب القدر ، رقم (85)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ،
(57)رواه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب قول النبي صلي الله عليه وسلم : " أنا أعلمكم بالله " رقم (20).
(58)مرجع سابق ذكره (5)، (1 : 383).
(59)فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني ، (1 : 187) ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان.

5-اغتنام بعض الوقائع لبيان وتوضيح وتعليم الصحابة:

يغتنم النبي ﷺ، الإحداث لما يرى فيها؛ معاني معينة لتعليم الصحابة، ولما يكون له الأثر في التوجيه، ويستقر في عقولهم ونفوسهم رضوان الله عليهم، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: قدم على النبي ﷺ سبي (60) فإذا امرأة في السبي تحلب ثديها(61)، تسقي (62)، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فالصقته ببطنها، وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ، : " أترون هذه طارحة ولدها في النار ؟" فقلنا لا ، وهي تقدر على ألا تطرحه(63)، فقال: " لله أرحم بعباده من هذه بولدها "(64).

فانتهز صلى الله عليه وسلم المناسبة القائمة بين يديه مع أصحابه المشهود فيها حنان الأم الفاقدة على رضيعها إذ وجدته، وضرب بها المشاكلة والمشابهة برحمة الله تعالى ليعرف الناس رحمة رب الناس بعباده "(65).

إنَّ التعاليم التربوية للنبي صلى الله عليه وسلم، لا تتسع لها هذه الوريقات، وإنما استعرضنا بعض مآثره صلى الله عليه وسلم، فقد كان ولا يزال أعجوبة الزمن، ومعجزة العالم، لما يمتلكه من ثقافة؛ في التربية ، والتزكية ، والتعليم، حتى شهد الله تعالى بقوله: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ... }(آل عمران :110).

وقد أشار وبين الله عز وجل أسباب خاصة فيما نرى، للنبي صلى الله عليه وسلم، بقوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ }(آل عمران :159).

وبذلك يتضح لنا جملة المواصفات للمعلم التربوي، وهذه الأوصاف توافرت؛ في معلم البشرية جميعاً وهي: الرحمة، والرأفة، والعزم، والتشاور، واللين، وبشاشة الوجه.

(60) السبي: الأسري.
(61) تحلب ثديها ، وفي لفظة أخري : تحلب ثدياها : أي تهيأ لأن تحلب .
(62)هذا لفظ نسخة للصحيح ونسخة لفتح الباري ، وفي نسخ أخري : تسعي : من السعي ، وهو المشي بسرعة .
(63)أي لا تطرحه طائعة أبدا .
(64)رواه البخاري ، كتاب الآداب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ، رقم (5999) ، وقد أورد الإمام ابن حجر في فتح الباري عنه حديث نفسه ، ألفاظ أخري في متن الحديث .
(65)الرسول المعلم وأساليبه في التعليم ، عبد الفتاح أبو غدة ،(ص : 160)،دار مكتب المطبوعات الإسلامية ،ط1-1997م .

المبحث الخامس- ثقافة البيئة

إن البيئة الطبيعية والاجتماعية، لها تأثيراً؛ على نمو الكائن البشري، أينما حل وحيث ما وجد.

ونرى من تعريف مالك بن نبي، أن البيئة بمكوناتها لها علاقة مباشرة بالثقافة :" هي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد من ولادته، وتصبح شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه.

وهذا يقودنا هذا التعريف إلى تعريف النبي ﷺ، عن أبي هريرة : (كل آدم يولد علي الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه .....)(1).

ومع كل ما ذكرنا إلى أن البيئة ليست طليقة، فتوجد الفطرة وما يمد الله به الإنسان من مواهب وملكات فكرية وجسدية قد يستمدها الإنسان من تركيبته أو الوراثة وتأثيراتها، يقول الله تعالى: {.... فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }(الروم :30).

لذلك أهتم النبي صلى الله عليه وسلم، بالبيئة بشقيها اهتماماً جاداً ومستحقاً، وهذا ما نستنتجه من خلال ثقافته البيئية ، حيث أشار و اتخذ جملة من الأساسيات والثوابت صلى الله عليه وسلم، توفر نمواً سليماً قويماً متفوقاً للأجيال؛ تمكنهم بالنهوض بواجباتهم في الحياة.

كما أن ثقافة النبي صلى الله عليه وسلم البيئية هي وقبل كل شيء ثقافة شاملة مترابطة، من سياق القرآن الكريم ،يقول الله تعالى: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى }(طه :55).

إذ هناك صلة أساسية ومباشرة بين عناصر الطبيعة، كما أن النقطة الأساسية، هي الإيمان بأنه إذا خالف، و أساء الإنسان استخدام عناصر الطبيعة أو استنزفها، واستخدامها استخداماً سيئاً.

(1)رواه البخاري ، " كتاب الجمعة " باب : العمل في الصلاة ،(رقم الحديث : 1303).

فإن العالم الطبيعي بأسره يتضرر تضرراً مباشراً، على أن هذا الاعتقاد لا يُنَصّ عليه في حديث واحد نصاً مباشراً، بل يمثل بالأحرى المبدأ الذي تنهض عليه جميع أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وثقافته الحياتية التي على ضوئها نستطيع أن نبصر ملامح شخصيته صلى الله عليه وسلم، في جميع مجالات الحياة، وهي مستمده من قوله تعالى: (وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }(الأعراف:85) .

وإن أهم ثلاثة مبادئ في ثقافة النبي صلى الله عليه وسلم المتعلقة بالطبيعة تقوم على تعاليم القرآن ومفاهيم الوحدانية وخلافة البشر والثقة في الإنسان. ويمثل التوحيد حجر الزاوية في دعوة الإسلام، وهذا التوحيد يراعى الحقيقة التي تقول بوجود خالق واحد للكون وأن الإنسان مسئول أمامه عن أعماله قال تعالى:

{لِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }(المائدة :120).

1-صلاح البيئة الطبيعية الخاصة:-

إن البيئة الطبيعية الخاصة هي بيئة الأسرة، التي يولد وينشأ فيها الإنسان منذ إن كان جنينا في بطن أمه، ثم رضيعاً فطفلاً فيافعاً فشاباً، قال تعالى: {.... فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً .....}(الحج :5).

ولتكون هذه البيئة سوية، يؤكد النبي صلى الله عليه وسلم، على نمو الفرد صالحاً وايجابياً في المجتمع .

أ- العفاف :

من الواضح أن الأمراض الجنسية السارية تأخذ طريقها إلى الإنسان عبر العلاقات الجنسية المشبوهة والمحرمة، وهي لا تؤثر على الأبوين فقط وإنما تمتد إلى الجنين وتهدد كيانه، لذلك يؤكد النبي صلى الله عليه سلم، على العفاف كخطوة أولى لصلاح نمو الطفل بقوله:

- (لا تزال أمتي بخير، ما لم يفش فيها ولد الزنا ...)(2).
- (لا يزني الزاني وهو مؤمن ..)(3) .
- (إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا اوتمن فلا يخن، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيدكم، و أحفظوا فروجكم..)(4).

ب-المطعم الحلال :

إن المطعم من كسب حرام سرقة أو غصب أو رِّبَا .. يبقي الأبوين في حالة توتر نفسي ينتقل إلى الأبناء، ولذلك يؤكد الله سبحانه – على أكل الرزق الحلال من ناحية ثانية بقوله: {فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }(النحل :114).

ويبين النبي صلى الله عليه وسلم، بالنسبة للمطعم أمورا أربعة هي: التزام الحلال، أكل الطيب، كفاية الغداء، النأى عن الغذاء الحرام وذلك بقوله:

- (طلب الحلال فريضة بعد فريضة)(5) .
- (من أكل طيباً، وعمل في سنة وأمن الناس بوائقة دخل الجنة ..)(6).
- (كفي بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت)(7).
- (لا يدخل الجنة جسد غذي بحرام) (8).

ج- المشرب الحلال :-

وكما المطعم فإن المشرب كذلك يؤثر على صحة الجنين والرضيع، لذلك فإن الإسلام يحرم المسكرات والمخدرات بأنواعها ويؤكد الرسول ﷺ ذلك بقوله:

- (... كل مسكر خمر وكل خمر حرام)(9) .
- (.من كان يؤمن بالله واليوم فلا يجلسن علي مائدة يدار عليها خمر.)(10).

(2)رواه أبي يعلي الموصلي في مسنده ،(رقم الحديث : 7039).
(3) رواه النسائي، السنن الكبري ، (رقم الحديث : 6871).
(4) رواه أنس بن مالك ، المستدرك علي الصحيحين ، (رقم الحديث : 8154)
(5)رواه الطبراني ، باب طلب الحلال جهاد ، (رقم الحديث : 766).
(6) رواه الترمذي ، كتاب صفة القيامة ، (رقم الحديث : 2520)، ورواه الحاكم..
(7)رواه الإمام أحمد في مسنده ، (رقم : 6649).
(8)) البزار ، و رواه الطبراني في الأوسط رجال أبي يعلي نفقات – وفي بعضهم خلاف ، باب فمن نبت لحمه من حرام ، (رقم الحديث : 1801).
(9) رواه الإمام أحمد في مسنده ، (رقم الحديث : 5578).
(10)رواه الطبراني في المعجم الأوسط ، (رقم :1279).

د- النظافة:-

من المعروف أن الكائنات الدقيقة المسببة للإمراض من الجراثيم والميكروبات والفيروسات والبكتريا ...ونقلتها من الحشرات والقوارض، إنما تجد الأجواء الملائمة في الأماكن القدرة، وبالتالي تعمل فتكاً بالأحياء لا سيما الأطفال الذين لم يكتسبوا المناعة الكافية لمقاومتها، لذلك يؤكد الرسول ﷺ، على نظافة البيئة الخاصة تلافياً لأضرار هذه الكائنات وما تسببه من أمراض فيقول:

- (إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم ...)(11).
- و عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان ﷺ، إذا أراد ان يأكل أو يشرب، يغسل يديه ثم يأكل أو يشرب)(12).
- عن جابر رضي الله عنه قال: أتانا رسول الله ﷺ، زائراً .. ورأى رجلاً عليه ثياب وسخه فقال: ((أما كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه ؟) (13) .

2-صلاح البيئة الطبيعية العامة :-

للبيئة الطبيعية العامة بكل مكوناتها تأثيرها على البشر عامة، إن كان سلباً أو إيجاباً ، لذلك تتعالى الصيحات اليوم في مختلف بقاع العالم بالمحافظة
على نظافة البيئة وعدم تلويثها، لتبقى صالحة لحياة الإنسان، وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى الاهتمام بنظافة البيئة وعدم تلويثها.
ومن المؤكد القول بأن النبي ﷺ، المؤسس والداعي الأول للحفاظ على البيئة؛ إذ لا شك أن مصطلح "الحفاظ على البيئة" وما يرتبط به من مفاهيم مثل "البيئة" و"الوعي البيئي" و"ترشيد الاستهلاك" هي مصطلحات من اختراع العصر الحديث، أي صيغت لتواجه الاهتمام المتزايد بالوضع الراهن وما يشهده العالم اليوم من إهدار للبيئة وعدم المحافظة عليها ومع ذلك فإن ثقافة النبي ﷺ، تُوضح لنا أنه كان الأسس في مجال المحافظة على البيئة والتطور الرشيد والإدارة الحكيمة للموارد الطبيعية بل في رأينا القول إنه كان النبي ﷺ، في نصرته للبيئة سابقاً لكل المصطلحات وما ينادون به اليوم في المحافظة على البيئة.

(11)رواه الترمذي ن في جامعه ، (رقم : 2799) ، وراه الطبراني في المعجم الأوسط ، (رقم : 4057)
(12)رواه أحمد و النسائي باب فضل الوضوء بكل صلاة ،(1 : 921) .
(13) رواه أحمد بن حنبل في مسنده ،(رقم : 14556).

أ-عدم تلويث المياه والمحافظة عليها:

و مع ما سنورده من أحاديث يمكننا القول بأن النبي ﷺ، كان بثقافة عميقة وبصلة وثيقة بعناصر الطبيعة الأربعة:

(التراب، والماء، والنار، والهواء).

وفي البيئة الصحراوية الخشنة التي كان يعيش فيها النبي صلى الله عليه وسلم، يُعَدّ الماء مرادفاً للحياة، فهو نعمة من الله، بل هو أصل الحياة كما يشهد بذلك القرآن بقوله تعالى: { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} (الأنبياء :30) .

وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }(الأعراف: 57).

ويذكِّر القرآن المسلم على الدوام بأنه خليفة الله في الأرض، لكن لا ينبغي له مع ذلك أن يأخذ الأشياء المخلوقة على أنها أمرٌ مسلَّمٌ به قال تعالى: أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ{68} أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ{69} لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ{70}) (الواقعة : 68، 69 ،70).ولقد رأينا كيف أدى اهتمامه بالاستخدام الرشيد للماء إلى إقامة المحميات بالقرب من ينابيعه، وحتى عندما يكون الماء متوفراً نراه ينصح بالاقتصاد في استعماله، ومن ذلك نهيه عن غسل أعضاء الوضوء أكثر من ثلاث مرات حتى لو كان المتوضئ على نهرٍ جارٍ.

وهذا يتأكد لنا بقوله صلى الله عليه وسلم، - مر عليه السلام – بسعد بن أبي وقاص – وهو يتوضاء فقال له: " لا تسرف " فقال: أو في الماء سرف يا رسول الله ؟ قال : " نعم وأن كنت علي نهر جار "(14)

ويضيف البخاري قائلاً: "وكره أهل العلم الإسراف فيه وأن يجاوزوا فعل النبي ﷺ"(15). وبالمثل نهى النبي ﷺ، عن تلويث المياه، لقد كان النبي ﷺ، من المنادين للاستخدام الرشيد للأرض والماء، واستغلالها ضمن منظومة صالحة منتجة، وكذلك المعاملة الكريمة للنباتات، و الحيوانات، والطيور، وبدرجة متساوية مع من يتعاملون معها من البشر.
ويقر النبي ﷺ، بأن علم الله وقدرته يشملان كل شيء، ومن ثم كانت الإساءة إلى أي مخلوق من مخلوقاته، سواء كان كائناً حياً أو مصدراً من مصادر الطبيعة، ذَنْبًا من الذنوب يجازَى الإنسان عليه.

وفى نظرنا أن جميع مخلوقات الله متساوية أمامه سبحانه تعالى، وأن الحيوانات، وكذلك الأرض والغابات وينابيع المياه، ينبغي أن يكون لها حقوق تُحْتَرَم.
وإن مفهوماً الخلافة البشرية في الأرض والثقة في الإنسان فينبعان من مبدأ الوحدانية.

ويوضح القرآن أن الإنسان يتمتع بوضع متميز بين مخلوقات الله على الأرض، إذ اصطفاه ليكون خليفة فيها وينهض بمسؤولية العناية بغيره من مخلوقات هذا الكوكب، وهذا واجب كل فرد فينا ووجه تميُّزه، ومحل الثقة به، ورغم هذا نرى القرآن مراراً وتكراراً ينهى الإنسان عن الكِبْر منبها إياه إلى أنه ليس أفضل من سائر المخلوقات قوله تعالى: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ } (الأنعام :38).

(14) رواه ابن ماجه في سننه ، (رقم الحديث : 425).

(15)فتح الباري بشرح صحيح البخاري ،أحمد بن علي الحجر العسقلاني، كتاب الوضوء ، باب ماجاء في الوضوء، دار الريان للتراث ، 1986م .

صحيح أن لهم الحق في استخدام موارد الطبيعة، إلا أنهم لا يمكنهم أن يتملكوها تملُّكَاً، ومن هنا ففي الوقت الذي يسمح الإسلام للإنسان بحيازة الأرض نراه يضع حدودا لذلك: فعلى سبيل المثال يمكنه أن يحوز الأرض فقط طالما كان يستعملها، لكنه ما إن يكفّ عن هذا الاستعمال حتى يصبح واجباً عليه التخلي عن هذه الحياة .

يقول عزوجل {...أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} (الأنبياء :105).
ويوضح لنا النبي صلى الله عليه وسلم ، بمسؤولية الإنسان أمام ربه، بيد أنه كان دائماً وأبداً يدعو إلى التواضع، ومن ثَمّ نراه يقول: "إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسلة فليغرسها"(16).

(16) فسيلة : صغار النخل ، رواه أحمد ، (رقم الحديث : 12512) واللفظ له ،وصحيح البخاري في الأدب المفرد ،(20 : 296).

فهو هنا يبين أنه، حتى عند انتفاء كل أمل لدى البشر، على الفرد أن يحافظ على نمو الطبيعة، لقد كان مؤمنا بأن الطبيعة حسنة في ذاتها حتى لو لم يستفد البشر منها وبالمثل نراه يحض أتباعه على التشارك في موارد الطبيعة، إذ يخاطبهم قائلاً: "المسلمون شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار، ..."(17).

كما يعد حرمان العطشان من الماء إثما يعاقَب عليه: "من منع فضل مائه أو فضل كلئه منعه الله فضله يوم القيامة"(18).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: (لا يبول أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه)(19).

والواقع أن موقف النبي ﷺ، تجاه الاستعمال الرشيد للأرض والمحافظة على الماء والطريقة التي كان يعامل بها الحيوانات هو دليل آخر على التواضع الذي يصبغ ثقافته حول البيئة.

ب-حماية الأرض و الاستخدام الرشيد لها.

يستهدف حماية الأرض في الإسلام، تحقيق الأمن للفرد من خلال النمو الاقتصادي، فالإنسان لن يبني ويعمر وينتج إلا إذا أمن على نفسه وما يملك، وبذلك يرتقى الإنسان بعطائه وجهده في مجال الإنتاج لتحقيق كفاية مجتمعه وأمته.

وبذلك قال النبي ﷺ، جُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً(20).

وفي هذا الحديث يؤكد النبي ﷺ، الطبيعة المقدسة للأرض أو التربة، لا بوصفها ذاتها طاهرة فحسب، بل بوصفها مادة مُطَهِّرة كذلك، ويَظْهَر أيضا هذا الاحترامُ للأرض في طريقة التيمم، التي تجيز للمسلم استعمال التراب، في الطهارة الواجبة عند الصلاة في حالة فقدان الماء يقول عز وجل : (...فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً }(النساء :43).

(17) رواه الطبراني في المعجم الكبير ، (رقم الحديث : 11095) .
(18) رواه احمد بن حنبل في مسنده ، (6497).
(19) سنن الدارمي، عبد الله عبد الرحمن الدارمي ،كتاب الطهارة، باب الوضوء من الماء الراكد،(ص :202، رقم : (730)، دار الكتاب العربي -1987م .
(20) صحيح البخاري ، كتاب التيمم ، (رقم الحديث : 335).

وينظر النبي ﷺ، إلى الأرض على أنها مسخَّرة للإنسان، لكن لا ينبغي له مع ذلك أن يفرط في استخدامها أو يسيء استعمالها، كما أن لها ذات الحقوق التي للأشجار والحيوانات البرية التي تعيش فوقها ولتصبح الحقوق مصانة يؤكد النبي صلى الله عليه وسلم، تحريم العدوان على الأرض في حديثه قال: (عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي الظلم أعظم قال ذراع من الأرض ينتقصه من حق أخيه فليست حصاة من الأرض أخذها إلا طوقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ولا يعلم قعرها إلا الذي خلقها)(21).

روي عن النبي ﷺ، (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين)(22)..

وفي هذا الحديث دليلٌ على أن من ملك الأرض ملك قعرها إلى الأرض السابعة، فليس لأحد أن يضع نفقاً تحت أرضك إلا بإذنك، يعني لو فرض أن لك أرضاً مسافتها ثلاثة أمتار بين أرضين لجارك، فأراد جارك أن يفتح نفقاً بين أرضيه ويمر من تحت أرضك، فليس له الحق في ذلك؛ لأنك تملك الأرض وما تحتها إلى ألأرض السابعة، كما أن الهواء لك إلى السماء، فلا أحد يستطيع أن يبني على أرضك سقفاً إلا بإذنك، ولهذا قال العلماء: الهواء تابع للقرار، والقرار ثابت إلى الأرض السابعة، فالإنسان له من فوق ومن تحت، لا أحد عليه يتجرأ(23).

ومن أجل المحافظة على الأرض والغابات والحيوانات البرية جعل النبي صلى الله عليه وسلم، عددا من المحميات، أي الأماكن التي يحرم فيها استعمال الموارد الطبيعية، وهو ما لا يزال معروفاً إلى اليوم، إذ هناك مناطق ممنوعة حول بعض الآبار وعيون الماء غايتها حماية المياه الجوفية من الاستهلاك المفرط والنفاد، ومنها المناطق الخاصة بالحيوانات البرية والغابات حيث يُمْنَع الرعي وقطع الأشجار أو يحرم التعرض لأنواع معينة من الحيوانات.

(21) مسند أحمد بن حنبل ، (رقم الحديث : 3579).
(22)صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، (رقم : 4686). رواه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم ،(رقم الحديث : 2583).
(23)رياض الصالحين ، باب الثاني ، باب تحريم الظلم والأمر برد المظالم(رقم : 26)،

وعن النبي ﷺ، يقول: (من كانت له أرض فليزرعها، أو ليزرعها رجلاً)[24]..

ويقول: (من نصب شجرة (غرسها) فصبر على حفضها والقيام عليها حتي تثمر، كان له في كل شيء يصاب منها ثمرها صدقة عند الله عزوجل)[25].

وعلى هذه الدعوة من ثقافة النبي ﷺ، البيئية، اقر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مبدأ المعونات الزراعية في رسالته المشهورة إلى موسى الاشعري والتي يقول فيها: -(ان أبا عبدالله (نافع بن كلدة)ذكر أنه زرع زرعاً بالبصرة، وافتلى أولاد الخيل(رباها حرة بالفلاة)حيث لم يفلتها أحد من أهل البصرة ،وأنه لنعم ما رأى ، فأعنه علي زراعته وعلي خيله)[26].
ولم يشجع النبي ﷺ، فقط على الاستغلال و الاستعمال الرشيد للأرض، بل لفت الأنظار إلى المكاسب التي يجنيها الإنسان من إحياء الأرض البور، إذ جعل زرع شجرة، أو غرس بذرة، أو سَقْى أرض عطشى من أعمال البر والإحسان: " ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً يأكل منها طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة)[27]، كما دعى النبي ﷺ، في حماية الغطاء النباتي فقال :

من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار)[28].

(24)صحيح البخاري ، (رقم الحديث : 2452).
(25)رواه البيهقي ، كتاب شعب الإيمان ، (رقم الحديث : 3219).
(26) دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ،(ص : 178)، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1996م ، ط1
(27)صحيح البخاري ، كتاب المزارعة ، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه طير ، (رقم الحدي : 2320).
(28)سنن أبو داود ، (رقم الحديث : 4564).

ج-تنمية المساحة العامة:

المساحات الخضراء إضافة إلى كونها ذات قيمة جمالية، و اقتصادية فإنها ذات أهمية صحية، لأنها أساس دورة الأكسجين في الجو، وتحافظ على طبقة الأوزون* ، وتمتص ثاني أكسيد الكربون، وعدم تلويث الأماكن العامة، فقال: ﷺ، (إن النار عدو لكم فإذا قمتم فأطفئوها)(29).

والنبي صلى الله عيه وسلم، يأمر ويحث ويدعو على تنمية هذه المساحات جاء في الحديث النبوي: "من قطع شجرة فليغرس مكانها ودية".(30).

وقال: (من كان له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه فان أبي فليمسك أرضه)(31).

د-إماطة الأذى من الطريق:

والأذى مسمى عام لكل ما يؤدي الناس في الطريق والساحات والتجمعات، وكل ما ينفي الذوق العام، وإغلاق الطرقات وكل ما يتذمر منه الناس، فالنبي ﷺ، يؤكد على إماطة الأذى عن الناس بقوله: وقال:(اتقوا الملاعن الثلاث ، قيل: ما الملاعن يارسول الله؟ قال: قال ان يقعد(*) أحدكم في ظل يستظل فيه أو في طريق أو في نقع ماء)(32).

وعن أبي برزة قال : قلت يا رسول الله ؛ دلني على عمل يدخلني الجنة .قال: (أمط الأذى عن طريق الناس)(33).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: (عرضت على أعمال أمتي ، حسنها وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها أن الأذى يماط عن الطريق، ووجدت في مساوي أعمالها النخاعة(*)تكون في المسجد لا تدفن)(34).

(29) صحيح البخاري ، (رقم الحديث : 5849).
(30)كتاب البلدان وفتوحها ، للبلاذري ، (ص : 20).
(31) صحيح البخاري ، (رقم الحديث : 2184).
(*)يقعد : يتبول أو يتبرز .
(32)مسند الإمام أحمد ، المحقق : شعيب الارنؤوط وآخرون ،(4 : 499) ، مؤسسة الرسالة ، ط2 1999م.
(33) الأدب المفرد ، للبخاري، (ص : 228)، باب أماطة الأذى.
(*) النخاعة: وهي البزقة التي تخرج من أصل الفم مما يلي النخاع .
(34) مرجع سابق ذكر (33)، (ص : 90 ، رقم (230)).

ه-معاملة الحيوانات :

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله تعالى يوم القيامة، قال: يا رب ان فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني لمنفعة)[35].

وهذا حديث يعكس إجلال النبي صلى الله عليه وسلم، واحترامه وحبه للحيوانات.

ذلك أنه كان يعتقد أنها، بوصفها خلقاً من خلق الله، ينبغي أن تحظى بمعاملة كريمة، ففي الأحاديث النبوية عدد ضخم من الروايات والتوجيهات الخلقية والقصص التي ترسم لنا صورة عن علاقته بالحيوانات، وبعض هذه القصص توضح لنا أنه كان يهتم اهتماماً خاصاً بالإبل والخيول: فهما في رأيه نعم الرفيق في الأسفار والحروب، كما كان يجد كثيراً من الراحة والحكمة في صحبتهما حسبما يقول لنا الحديث التالي: "الخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم"[36].

وحتى في ذبح الحيوان نجده يبدى قدراً عظيماً من الرأفة والرحمة.

ومن عظم رحمته، تبين لنا الأحاديث، بوضوح أنه كان حساساً للغاية تجاه معاناة الحيوانات، ومن خلا دراسة نشأته ومعرفتنا المباشرة أنه كان ﷺ، راعياً للغنم في شبابه، ندرك أنه كان رفيقاً بها، معتبراً لما يستفيده منها الإنسان، ولطيفاً في معاملتها، حتى لو كأنه كان يشاركها ألمها مشاركة وجدانية.

ومن هنا نجده يأمر باستعمال سكين حاد في الذبح واتباع طريقة مسؤولة من شأنها أن تزهق روح الحيوان سريعا بحيث يخف ألم الذبيحة إلى أقصى درجة ممكنة، كما نهى عن ذبح أي حيوان أمام غيره من الحيوانات أو إحداد الشفرة بحضرته، وإلا فكأنه قد ذبحه مرتين حسبما جاء في حديثه لمن كان يُحِدّ شفرته في حضور ذبيحته، إذ قال ﷺ: (إن الله الحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته)[37].

(35)رواه أحمد بن حنبل، (رقم الحديث : 19035).

(36) صحيح البخاري، (رقم الحديث : 2654).

(37)نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية ،عبدالله بن يوسف الزيلعي ،(6 : 46) دار الحديث للنشر، ط1 – 19.

لقد كان يكره ذلك كراهية شديدة، وفى هذا السياق فإن حداثة المصطلحات ورؤيته للبيئة، و المفاهيم التي أشار ونادى بها في مجال البيئة ﷺ، لما تكون نتاج العصر الحديث، بل سلسلة من ثوابت سار وأكد عليها النبي ﷺ، تشْدَ كل العقول شَدْا، حتى من غير المسلمين والى يومنا هذا.
نقول إنه من الصعب أن ستعرض عرضاً وافياً، لمدى ثقافته ﷺ، في هذا المقام وغيره، فالمحافظة على البيئية، وعلى رؤيته الشاملة للطبيعة.

3-صلاح البيئة الاجتماعية الخاصة:

البيئة الاجتماعية الخاصة هي بيئة الأسرة التي يكتسب فيها الطفل معتقداته وتصوراته وثقافته بالاحتكاك المباشر بأفرادها، لا سيما بالأبوين، ولذلك يرى النبي ﷺ، في تنمية المقومات المعنوية للطفل، وليهتم المسلمون الاهتمام الجاد لما له الأثر الإيجابي في تقويض البيئة ذات المنشأ الجديد من خلال ثقافة النبي ﷺ، في استقبال المولود.

أ-استقبال المولود : -

الولد الصالح هو خير كنز يتركه المسلم من بعده، فهو نافع لأبويه في حياتهما وبعد موتهما ولذلك يقول النبي صلى الله عليه، (إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له(38).
بل إن الذرية الصالحة يجمع شملها مع آباءها الصالحين في الجنة : {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ }(الطور :21)(39).
ولترسيخ حب الإنجاب والاهتمام بالوافد الجديد والتقبل الوجداني له ، جعل النبي صلى الله عليه وسلم، من السنة القيام بمراسم الاحتفالية بالمولود(40).

(38)الأدب المفرد ، باب بر الوالدين بعد موتهما (ص : 28 ، رقم 28). وروه مسلم في صحيحه عن: تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ،تفسير سورة النجم (3 : 401) .

(39) الطريق إلي الولد الصالح ، وحيد عبد السلام بالي ، (ص : 9)، دار الضياء للنشر والتوزيع ، الرياض -1410ه .

(40) النبي المربي ، احمد رجب الأسمر ، (ص : 101) ،دار الفرقان للنشر والتوزيع ط1، عمان – الأردن – 2001م .95م .

والتي تدخل الفرحة والسرور في الأسرة، وتشعر المجتمع بمولود جديد منها:

- التأذين في أذن المولود، لفعل النبي ﷺ، فقد قال رافع رضي الله عنه: رأيت النبي ﷺ، أذن في أذن الحسن بن على حين ولدته فاطمة رضي الله عنها **بالصلاة**(41).
- اختيار الاسم الحسن، على أن ينتقي من الأسماء أجملها وأحسنها، تنفيذ لما أوصى به ﷺ، فعن أبي الدر داء رضي الله عنه قال: " إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وبأسماء آبائكم، فأحسنوا أسماءكم))(42).
- -ذبح عقيقة، للمولود والدعوة إليها والتصدق منها، عن سلمان بن عامر أنه سمع النبي ﷺ، يقول قال: (مع الغلام عقيقة ، فأريقوا عنه دماً، وأميطوا عنه الأذى)(43).
- - ختان المولود.
- ومن الملاحظ أن النبي ﷺ، يخص بعض هذه المراسم الوالدين وبعضها المجتمع وبعضها المولود ذاته، عن الحسين بن على، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى، وأقام في أذنه اليسرى رفعت عنه أم الصبيان(44).
- ب-التربية الإيمانية:
- إن المقصود بالتربية الإيمانية ربط الولد منذ تعلقه بأصول الإيمان، وتعويده من حين تمييزه مبادئ الشريعة الغراء(45).
- وتعليمه أصول الإيمان مثل الإيمان بالله سبحانه، والإيمان بالملائكة والإيمان بالكتب، والإيمان بالرسل.
- وتعليمه مبادئ الشريعة: أقضية الإسلام وأحكامه، وقوانينه، ونظمه وينتج عن ذلك عدة أمور: -
- - حب الله تعالى: وذلك بلفت النظر للطفل بنعم الله التي لا تعد ولا تحصي.
- - حب الرسول ﷺ، وذلك بتعليمه السيرة النبوية .
- - تعليمه أحكام الحلال والحرام.

(41)سنن الترمذي ، باب الأذان في أذن المولود ، (ص : 90).
(42) رواه الترمذي وقال حسن صحيح ، وحسن الألباني بشواهد في الإرواء (ص : 159).
(43)سنن ابن ماجه ، كتاب الذبائح ،باب العقيقة ،(رقم الحديث : 3164)، شرح ابن ماجه ، تحقيق أبو الحسن الحنفي ،دار لجبل -بيروت.
(44)شعب الإيمان ، للبيهقي ،(رقم الحديث : 8106).
(45) تربية الأولاد في الإسلام ، عبدالله ناصح علوان ،(1 : 157) دار السلام للنشر والطباعة – ط21 ، 1992م – القاهرة.

- ونرى أن ثقافة النبي ﷺ، غنية ووافرة بالتربية الإيمانية من خلال أحاديثه وتوجهاته فأسلوبه فعال في ترسيخ العقيدة في نفوس الصغار، ولقد استعملها النبي ﷺ، فهو ينتهز فرصة ركوب عبدالله ابن العباس فيقول له(يا غلام إني أعلمك كلمات: أحفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فأسال الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك بشيء قد كتبه الله لك، وان اجتمعوا على ان يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام، وجفت الصحف)(46).

-التربية الخلقية

التربية الخلقية هي مجموعة المبادئ الخلقية، والفضائل السلوكية والوجدانية التي يجب أن يتلقنها الطفل ويكتسبها، ويعتاد عليها منذ تمييزه وتعلقه إلى إن يصبح مكلفاً إلى ان يتدرج شاباً، إلي يخوض خضم الحياة (47).
ونؤكد أن الفضائل الخلقية، والسلوكية، هي نتاج الإيمان الراسخ، والتربية الإيمانية الصحيحة؛ لذا فإن الإيمان لابد أن يكون قوياً راسخاً وليس متوارثاً بالإسلام فحسب، فإن الإنسان بفطرته يكون مستعداً لتلقي السلوك حركة ووجداناً؛ فإنما جبل عالي مجموعة من الملكات، فيجب أن توظف هذه الملكات توظيفاً سليماً بمقدار ما يضمن للفرد الحياة الخالية من الآثام، طالما نبتت وترعرعت في أجواء إيمانية صرفة، ووجدت لها البذور والأسوة في ثقافة خير الخلق – ﷺ، لا سيما وهي التي شملت كل ميادين الحياة وغمرت أعرافها.
وصفوة القول: أن ثقافته، ﷺ، هي الينبوع الصافي، والمعين الذي لا ينضب، الذي تقوم عليه مكتسبات الأخلاق والقيم توفيقية مع متطلبات الحياة في كل عصر.

(46) رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (6 : 301)برقم (7834).

(47) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان ،(1 : 117) ، دار السلام للنشر ، ط1 – 1992م.

الفصل الرابع / التحول التاريخي إلي دولة إسلامية.

المبحث الأول: بناء مسجد النبي صلي الله عليه وسلم بالمدينة

إن أول الخطوات التي قام بها النبي ﷺ، بناء المسجد.

وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حوربت، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين، وتنقي القلب من أدران الأرض وأدناس الحياة الدنيا(1)، وروى البخاري بسنده: ان النبي ﷺ، (دخل المدينة راكباً راحلته، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ، بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربداً(2)، للتمر لسهل وسهيل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ، حين بركت به راحلته : " هذا ن شاء الله المنزل " ثم دعا رسول الله ﷺ، الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: لا، بل نهبه لك يارسول الله، فأبى رسول الله ﷺ، أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما(3).
وهكذا وضع النبي ﷺ، الأسس المتينة في بناء الدولة الإسلامية؛ من خلال القاعدة الأساسية التي تنبعث منها الدعوة، وهي رسالة التوحيد لله عزوجل، فإحياء تلك الرسالة هو إحياء لرسالة الإسلام.

1-المسجد من أهم الأسس في بناء المجتمع

أن إقامة المسجد من أهم الركائز في بناء المجتمع الإسلامي، ذلك ان المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك، بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك من روح المسجد ووحيه(4)، وقال تعالى: {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ }(التوبة :108)

(1)فقه السيرة ،محمد الغزالي ، (ص : 191)، دار القلم ، دمشق – سورية ط4 – 1989م .
(2)مربد : الموضع الذي يجفف فيه التمر . القاموس المحيط .
(3)رواه صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ،باب هجرة النبي صلي الله عليه وسلم ،وأصحابه إلي المدينة ، ورقمه (3906).
(4)فقه السيرة ، محمد رمضان البوطي،(ص : 203) ،دار الفكر ، دمشق – سورية ، ط11 -1999م.

وفي حث النبي صلى الله عليه وسلم، على بناء المساجد يقول: عن عثمان ابن عفان رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: (من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله تعالى، بنى الله له مثله في الجنة(5).

وقال تعالى: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ{36} رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ{37} لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ{38})(النور: 36 – 38).

إن المساجد التي هي أحب البقاع إلي الله تعالى، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد، أي أمر الله تعالى بتعهدها من الدنس واللغو، والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها، كما قال ابن عباس: نهى الله عن اللغو فيها(6).

2-المسجد رمز لشمولية الإسلام:-

أ- أنشىء المسجد ليكون لعبادة لله، يقول عز وجل: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً }(الجن :18).

كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله(7).

وفي الصحيحين عنه انه قال ﷺ، في مرض موته: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد (8).

إذاً المسجد متعبداً لصلاة المؤمنين، وذكرهم لله تعالى وتسبيحهم له، وتقديسهم إياه بحمده وشكره على نعمه عليهم، يدخله كل مسلم، ويقيم فيه صلاته وعبادته، ولا يضاره أحد ما دام حافظا لقداسته، ومؤدياً حق حرمته(9).

-كان المسجد منارة الدعوة إلى الله، فقد كان منبر الرسول ﷺ، فتضمن أحاديثه وخطبه، وكان يستقبل فيه الوفود من غير المسلمين، فيرون عن كثب ما عليه المسلمون، وهذا أبلغ وسائل الدعوة، دعوة العمل والتطبيق ضمن منهج منظم وراقي ، فمنذ نشأة المسجد النبوي، كانت تعقد حلقات الدروس لشرح أصول الدين وفقهه.

(5)رواه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب من بني مسجدا (1 : 648 (برقم 450)).
(6)تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير، (2: 605).
(7)نفس المرجع، (3: 557).
(8)إصلاح المساجد من البدع والعوائد،محمد جمال الدين القاسمي،(ص: 204)،ط4 – بيروت.
(9) محمد رسول الله صلي الله عليه وسلم ،محمد الصادق عرجون ،(3: 33)،دار القلم، ط2 – 1995م .

ج- كما كان مركز اتصال بين أفراد المسلمين ورمز لوحدتهم ضمن صلاة الجماعة في أوقاتها الخمس يقول الله تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ }(التوبة :18).

وروى الحافظ أبوبكر البزار عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما عمار المساجد هم أهل الله (10).

ه- وأنشئ ليكون مركزاً للبريد الإسلام، منه تصدر الأخبار، وَيُبرد البريد، وتصدر الرسائل، وفيه تتلقى الأنباء السياسية سلما وحرباً، وفيه تُقرأ رسائل البشائر بالنصر، ورسائل طلب المدد، وفيه َيُنعى المستشهدون في معارك الجهاد، ليتأسى بهم المتأسون وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون(11).

ز- ومن أهم أهداف المسجد صنع المسلم المتكامل البناء في خلقه وسلوكه وعبادته وعمله وعلاقته بربه وبنفسه وبالعباد؛ فالمسجد هو النواة الأولى للبناء التاريخي في مرحلة تكوين دولة النبي ﷺ، وذلك لأن المسجد لم يقتصر على أداء الصلوات فقط، بل إنه مركز للقيادة ومدرسة تهذيب وعلم ومجلس قضاء ومحل تشاور بين المسلمين وملتقى تعاون وتكافل اجتماعي.

(10) تفسير القرآن العظيم ،لابن كثير (2: 127).
(11) مرجع سابق ذكره (9) ،(3 : 35).

و- كما للمسجد الدور المهم في توجيه المسلمين بطرق الكسب الحلال، وبأن الإسلام يبغض الفقر والاحتياج فيحث الناس على العمل والإنتاج .
ان أول بناء بدء به النبي ﷺ، المسجد النبوي، فحقق بذلك جملة الأهداف، في نشأة الدولة وتطورها، من الناحية التعبدية، ومن الناحية الأخوية وسنتناولها في مبحث مستقل .

ومن الناحية الإعدادية ، ومن الناحية الاجتماعية ، وفيه يتلقون المحتاجون المساعدة ، من خلال الصدقات وتوزيع الزكاة.

ووقف النبي ﷺ، مع صحابته جميعاً يبنون المسجد النبوي بالمدينة المنورة، وفي بناء هذا المسجد دروس لا تُحصى:

أولاً: البساطة في البناء، والاهتمام الكامل بالجوهر لا بالشكل.

كان المسجد مبنياً من اللبن الذي يعجن مع التراب ويسوى على شكل حجارة صالحة للبناء(12)، ومن الناحية الشمالية منه أقيمت ظلة من الجريد على قوائم من جذوع النخل(13)، أما باقي أجزاء المسجد فقط تركت مكشوفة بلا غطاء(14)، فكان في بناه بسيط، ومع ذلك أخرج عمالقة حكموا العالم.

ثانيا: كان الجميع يتمنى أن يساعد الرسولﷺ، ويفديه بنفسه، وروحه، وأن يفديه من كل تعب أو نصب، ولكن الرسول ﷺ، نزل بنفسه، مع الصحابة رضي الله عنهم ، ليبنى المسجد ويأخذ معهم التراب، وينقل معهم الحجارة، ويقيم الأعمدة، ويخطط للمسجد، وهذه من أبلغ الوسائل في التربية والذي يمثل الأسوة الحسنة يقول عز وجل: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً }(الأحزاب :21)، أي أصل كبير في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في صبره و مصا برته، ومرابطته، ومجاهدته(15) .

(12)البداية والنهاية ، لابن كثير ، (3 :33)، التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول صلي الله عليه وسلم ، علي المعطي ، (ص : 156)،مؤسسة المعارف بيروت ، ط1 -1998م .
(13) السيرة النبوية ، علي الصلابي ، (1 : 300).
(14) البداية والنهاية ، لابن كثير ، (303:3)، محمد رسول الله ﷺ ، محمد رضا ، (ص : 156) ،دار الكتب العلمية ، بيروت – 1979م .
(15)تفسير القرآن العظيم ،لابن كثير ،(3: 86).

ثالثا: المشاركة الحقيقية والمعاناة الكاملة مع المهاجرين والأنصار، والتمسنا ذلك، في سيرته ﷺ، ففي بدر(16)، تجده يقاتل بنفسه ﷺ، وفي أحد(17)، كذلك، وفي تجهيز الخندق(18) ، يحفر معهم، وفي السفر والحضر معهم و في مشاكلهم، وأفراحهم، وخلافاتهم، معهم في كل أزمة وفي كل لحظة يدا بيد ، حتى إلى المقابر، فأي من المؤمنين ينتقل إلى الرفيق الأعلى، يحرص النبي ﷺ، على تجهيزه، والصلاة عليه ودفنه.

وهكذا مع عموم المؤمنين على السواء، من المهاجرين والأنصار صلى الله عليه وسلم، فمهما كان الإنسان بسيطاً أو فقيراً أو من قبيلة أخرى أو من لون آخر أو من جنس آخر، فكل المسلمين عنده سواء، وهو ﷺ واحد منهم، فهذه أسس رئيسية لبناء الأمة الإسلامية، وما نتحدث عنه الآن، في إيجاز يحتاج إلى تفصيلات كثيرة جداً، وتأصيل لثقافة النبي ﷺ، في داخل الأمة الإسلامية، لأجل فهمنا؛ ليس من باب السرد النظري، وإنما التطبيق العملي الذي يقود إلى النتائج الايجابية في بناء صرح الأمة الإسلامية، التي نحن بحاجة ملحة إلى لم شتاتها، وجمع أواصرها، والنهوض بها من سبات اللامبالاة بالزمان، رغم توافر مقومات قيام الدولة الإسلامية القوية بالمكان، رجوعاً إلى المورد الصافي الذي لا ينضب ثقافة تترقرق بالخير والبركة ورضا الدارين.

(16)معركة بدر الكبرى : السابعة عشر، من رمضان في السنة الثانية من الهجرة ، تاريخ الطبري ، (2 : 19 : 42) ،الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المبارك فوري ، (ص : 196)،

(17) غزوة أحد : السنة الثالثة ، من الهجرة من شهر شوال ، تاريخ الطبري ، (2 : 58)، الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ، (2 : 44).

(18) غزوة الأحزاب : السنة الخامسة ، من الهجرة من شهر شوال ، البداية والنهاية ، لابن كثير ، (4 : 104)، الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ، (2 : 69).

المبحث الثاني/ البناء الاجتماعي

إن الدعوة للبناء الاجتماعي كانت من أولويات خطوات النبي ﷺ، في تكوين المجتمع وتكافله، (والاستمرار في الدعوة إلي التوحيد ، والمنهج القرآني ، وبناء المسجد ، وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهي خطوة لا تقل خطوة في بناء المسجد، ولكي يتلاحم المجتمع المسلم ويتآلف وتتضح معالم تكوينه(1)، لابد أن يكون؛ أساسه العدل بين أفراد المجتمع الإسلامي، من خلال دعوة النبي ﷺ، بقوله: (عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ,قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " : النَّاسُ مُسْتَوُونَ كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ لَيْسَ لأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ إلا بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" (2)).

وهو ما يتأكد من خلال سياق الآية الكريمة في توجيه المسلمين بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }(الحجرات: 13).

وقد وضع الله معيار(التقوى)أساساً لهذا التفاضل: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }(الحجرات: 13). وأكد عليه النبي صلى الله عليه وسلم (أن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا بلغت ؟ قالوا بلي يارسول الله ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب (3)).

1-العدل العقائدي :

إن أساس العدل العقائدي، في البناء الاجتماعي لا يقوم على تقويم الفرد إن كان غنياً مترف أو فقيراً معدم أو طويلاً أو قصيراً أو ابيض أو اسود أو ابن وزير أو ابن أجير وإنما على أساس التقوى والخوف من الله بقوله ﷺ: (إن الله لا ينظر إلي صوركم و أموالكم وإنما ينظر إلي قلوبكم أعمالكم التقوى ...(4).

ونؤكد على إن النبي ﷺ، ربط العلاقة الإنسانية بين أفراد المجتمع الإسلامي بالرابط الديني الذي يستحق الإنسان ثواب الله تعالى بالجانب الايجابي والجانب السلبي عقابه ويتأكد لنا من حديثه صلي الله عليه وسلم عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ: (من أحب ان يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه ميتته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلي الناس ما يحب أن يؤتي إليه(5)).

(1)الإدارة الإسلامية في عصر عمر بن الخطاب ، فاروق مجدلاوي ،(ص : 52، 53).
(2)رواه أنس أبن مالك ، المدونة الكبري ، لمالك بن أنس ، (2 : رقم الحديث 43)، ط 1998م).
(3)رواه أحمد، والبيهقي في كتاب شعب الإيمان ، (34 : رقم الحديث 4762) .
(4)رواه مسلم ، (8 : رقم الحديث 11).
(5)تفسير القرآن العظيم ،لابن كثير ، (1 : 304) رواه أحمد.

2-تمكين ثقافة التآخي:

ومن خلال تمكين ثقافة التآخي بين المسلمين منذ بداية الدعوة في العهد المكي وأشار البلاذري(إن النبي ﷺ، آخي بين المسلمين في مكة قبل الهجرة(6)، فقد ساهم وبشكل كبير في تقوية البناء الاجتماعي في المدينة.

قال النبي ﷺ:(لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل للمسلم ان يهاجر أخاه فوق ثلاثة أيام(7))

و قال النبي ﷺ (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه(8)ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة(9)،فرج الله عزوجل عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة(10).

ومن سياق القرآن الكريم ، تتأكد الإشارة علي الصلة القوية بين أفراد الأمة بعدما كانوا يعانون من الظلم فيما بينهم وبفضل نعمة الله أصبحوا إخوانا قال تعالي : {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }(آل عمران :**103**).

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره: إن هذه الآية نزلت في شأن (الأوس والخزرج)، وذلك إن رجلاً من اليهود، مر بملأ من الأوس والخزرج، فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة فبعث رجلاً معه وأمره إن يجلس بينهم، ويذكرهم ما كان من حروبهم .....ففعل، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم، وغضب بعضهم على

بعض ،وثاروا ونادوا بشعارهم ، وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟) وتلا عليهم الآية فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا، وألقوا السلاح رضي الله عنهم(11).

(6)السيرة النبوية الصحيحة ، أكرم ضياء الين العمري ، (1 : 240)، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة ،ط1 – 1992م.

(7) رواه الخاري ، (رقم : 6065).

(8) أي لايتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه ، بل ينصره ويدفع عنه .

(9)كربة : أي غمة

(10)رواهب البخاري ، (رقم : 2442).

(11)تفسير القرآن العظيم،لابن كثير، (1 : 305).

ويتضح لنا مما تقدم أن النبي صلى الله عليه وسلم، بدأ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، والعمل علي البعد ألعمقي، في بناء جسور المحبة على أساس المشاركة والمؤانسة والإيثار بقول الله عز وجل: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (الحشر:9).

أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح، وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من قبلكم ، حملهم على إن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم(12)).

إنها صورة مضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار، هذه المجموعة التي تفردت بصفات، وبلغت إلى الأفاق، لكي تجسد أسماء معاني الأخوة في الله.

وأوجدت الأخوة بين أفراد المجتمع؛ الإحساس بالجماعة ضمن مصالحها وخيرها، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }(الحجرات :10)
ومن سياق الآية دعوة أخلاقية كريمة، ورائدة، تبين أوجه العلاج الصحيح، إذا وقع خلاف بين أبناء الأمة الواحدة، ولتدوم هذه الإخوة، وتضمن كل ما يقويها ويبقيها ويغذيها قال النبي صلى الله عليه وسلم :

(المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك أصابعه.... (13)).

أي ان المجتمع الإسلامي ينبغي أن يكون كالبنيان المرصوص، وأن يكون المؤمنون مثل الجسد، وحدة قائمة متشابكة متآلفة، يعمل كل عضو فيه عمله في سبيل مصلحة الجسد كله(14) .

وقال ﷺ: (تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ ، إِذَا **اشْتَكَى** عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى (15))

(12) نفس المرجع،(3 : 471).
(13)صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب استقبال القبلة (رقم الحديث : 462).
(14) المجتمع الإسلامي في ضل العدالة ، صلاح الدين المنجد ،(ص:38)،دار الكتب الجديد –بيروت ، ط3 1976م.
(15)صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن ،(رقم الحديث : 5581) ، سفيان الثوري ، ط1 1403 ه .

وعلى هذا الأساس فإن بث ثقافة المؤاخاة، بين أبناء الأمة لا تؤتي ثمارها إلا من منطلق واحد وهو الإخلاص لله قولاً وعملاً ومن ثمرته :

أ-الحب في الله : -

إن المؤاخاة والحب في الله، من أقوى الدعائم في بناء الأمة المسلمة، فإذا هي وهت تآكل كل بنيانها(16)، ولذلك حرص النبي ﷺ، على تعميق معاني الحب في الله وفي المجتمع الإسلامي الجديد، فقد قال ﷺ: (أن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي(17).

وكان للحب في الله أثره في المجتمع المدني الجديد، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر النصارى بالمدينة نخلاً، وكان أحب أمواله إليه برحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيه طيب فلما نزل : {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ }(آل عمران:92)، قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله ان الله يقول: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ) وإن أحب أموالي لي بيرحاء، وإنها صدقة إلى الله أرجوا برها، وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، واني أرى إن تجعلها في الأقربين)

فقال أبو طلحة : إفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه (18)).

وهذا عبد الرحمن بن عوف يرو لنا عن يأسماء المعاني الجميلة حيث قال: لما قدمنا المدينة آخي رسول الله ﷺ، بيني وبين سعد بن الربيع ، فقال سعد بن الربيع : إني أكثر الأنصار مالا فأقسم لك نصف مال، وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت (19) تزوجتها، قال: فقال له عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع (20) قا : فغدا إليه عبد الرحمن ...(21).

(16)محمد رسول الله صلي الله عليه وسلم ، محمد الصادق عرجون ، (3 : 129).
(17)رواه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ،باب فضل الحب في الله ، (رقم : 2566).
(18)السيرة النبوية الصحيحة ، أكرم العمري ، (1 : 254)،ورواه البخاري ، (رقم : 4554).
(19) نزلت لك عنها : أي طلقتها لأجلك ، فإذا حلت : أي انقضت عدتها
(20) قينقاع : قبيلة من اليهود نسب السوق إليهم .
(21)رواه البخاري ، كتاب البيوع ، (رقم : 2048).

ب- تذويب الفوارق الإقليمية والقبلية والعنصرية:-

إن القضاء على الفوارق الإقليمية، والقبلية ليست بالأمر الهين في المجتمعات الجاهلية ، حيث العصبية هي الدين عندهم ، وعملية المؤاخاة تهدف إلي إذابة هذه الفوارق بصورة واقعية منطلقة من قلب البيئة الجاهلية(22).

ج-النصيحة وقبولها بين المتآخين في الله:

إن المؤاخاة بين المسلمين لها الأثر الايجابي، في المناصحة فيما بينهم ، فقد آخى النبي ﷺ، بين سلمان، وأبى الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبدلة، فقال لها : ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء

ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال له: كل، قال: فإنى صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تآكل، قال، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان آخر الليل، قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: (صدق سلمان(23).

(22)السيرة النبوية ، علي الصلابي ، (1 : 320).
(23)رواه البخاري ، كتاب الصوم ، باب الوصال إلي السحر ، (رقم : 1968).

د- تمكين الثقة و رفع المعنويات بين أفراد المجتمع:

إن من أسباب التمكين المعنوية ،العمل على تربية الإفراد تربية ربانية، وإعداد القيادة الربانية، ومحاربة أسباب الفرقة، والأخذ بأصول الوحدة والاتحاد(24).

وأهم أصول الوحدة والاتحاد: وحدة العقيدة، وصدق الانتماء إلى الإسلام، وطلب الحق والتحري في ذلك(25)، وبذلك تزداد الثقة بين أفراد المجتمع الإسلامي.

قالي تعالى: {وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (6)، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)}الأنفال : 62 ، 63).

عن سلمان الفارسي أن رسول الله ﷺ، قال:(ان المسلم إذا لقى أخاه المسلم فأخذه بيده تحاتت(*)، عنهما ذنوبهما كما تحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحار (26).

إن الإخوة في الله من أهم الأسباب التي تعمل على صمود في وجه اعتى المحن التي تنزل بالمسلمين، كما إن الفهم المتبادل والكامل للأخوة في الله، من أسباب تماسك صفوف المسلمين وقوتهم، ومن أسباب شموخهم والتمكين لهم(27).

ويتبين بالنظر والتأمل؛ إنَّ التآخي الذي أساسه رابطة الإسلام، والذي مكَّنه رسول الله - ﷺ- بين أصحابه، كان يقوم على العدالة في الاستفادة من أسباب الحياة والرزق؛ ولعل هذا يمهد لبناء الدولة؛ إذ إن الدولة من مقوماتها الرقعة الجغرافية، والأمة التي يكون التآخي سبباً في قيامها ووحدتها، وكذلك النظام الحاكم أيضاً من بناء المسجد مكاناً للشورى، والتعليم، والاستعداد لكل صنوف الحياة سلماً وحرباً وكذلك المؤاخاة التي تحقق وحدة الأمة المتجهة لقبلة واحدة، والعبادة لرب واحد.

وإنَّ التآخي بهذا التصوُّر يؤكد أنَّ الأخوة والمحبة أساسها الرابطة الإسلامية، التي تجعل كل شيء لله - تعالى، والمحبة في الله هي أقوى أنواع المحبة، وكذلك البغض في الله؛ وكل هذا محكوم بقاعدة شرعية.

(24)فقه التمكين في القرآن الكريم ، علي الصلابي ن (ص : 253) ، دار البيارق ، عمان ط1 -1999م .

(25)مرجع سابق ذكره (22)،(1 : 321).

(26) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، (2 : 113). (*) تحاتت : تحات الورق عن الغصن أي سقط عنه وتناثر .

(27)نظرات في رسالة التعليم ، محمد عبد العليم حامد ، (ص : 262) ، دار النشر والتوزيع الإسلامية ، القاهرة – 1995م .

أن النظام الإسلامي يتسق مع بعضه في كل جوانبه؛ وهو دعوة للاتحاد، وارتباط المسلمين مع بعضهم البعض، لا سيما وأنَّ العالم في هذا الوقت كوَّن التحالفات العسكرية، والاقتصادية، والثقافية، والأمنية، وغيرها.

وفي مقابل هذا يجب على المسلمين عرض الإسلام بفهم صحيح؛ بعيداً عن التشنُّج والتطرُّف؛ دعوة ذات منهج وسط أي عدل يقوم على المساواة، والعدل والشورى والأخوة في الله .

وقال - تعالى -: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }(التوبة :71).

لقد حذَّر الله - تعالى- المسلمين من التفرُّق، والتباعد وأخبرهم أن الذين كفروا يسيرون في اتجاه الاتحاد، والمسلمون أن لم يفعلوا ذلك سيعم الفساد والبلاء،

قال الله - تعالى-: {وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ }(الأنفال : 73).

ومن الواضح إن ثقافة المؤاخاة، حكمة فذة، وسياسة حكيمة، ووضع أساسي متين؛ ضمن تكافل اجتماعي لم يشهد له التاريخ.
وبهذه الخطوات والتدابير أرسى النبي ﷺ، قاعدة جديدة، كانت صورتها الظاهرة تظهر أجمل المعاني، وتضرب أروع الأمثلة، تمثل في أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ.

المبحث الثالث/ بناء دولة المؤسسات

إن خروج النبي ﷺ، وهجرته، إلى المدينة ليست بالسهولة التي نفهمها، بل كان يحمل على عاتقه مستقبل أمة بكاملها، بدأ بتكوينها، واتخاذ المدينة مركزا له، ومع استقراره بالمدينة واجه النبي ﷺ، جملة من القضايا والمشاكل سواء ان كانت خارجية أو داخلية، كان عليه ﷺ إن يتعامل معها بكل حكمة بالغة، حتى يخرج مكللاً بالنجاح، وقد صاغ النبي ﷺ، جملة من الخطوات في تعزيز كيان الدولة و بناء صرح هذه الأمة سنتناولها بخطوات فيما يأتي:

إصدار دستور المدينة(1): -

كان من أهم ما بدأ به الرسول ﷺ، خطواته في المدينة، أن شرع كتاباً نظم فيه العلاقة بين المسلمين وغيرهم في مجتمع المدينة، وقد أشرنا إلى المؤاخاة بين المسلمين و الذي نطرحه في مبحثنا هذا، هو ميثاق التحالف الإسلامي سواء علي مستوي الداخل، أو الخارج، ليعزز استقرار الدولة وأمنها، ولقد تعرض الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه(2): لدراسة طرق ورود الوثيقة، وقال: (ترقى بمجموعها إلى مراتب الأحاديث الصحيحة ويبين: أن أسلوب الوثيقة ينم عن أصالتها، فنصوصها مكونة ومن كلمات و تعابير كانت مألوفة في عصر الرسول ﷺ، ثم قل استعمالها فيما بعد.

و في هذه الوثيقة نصوص لا تمدح، أو تقدح فرداً، أو جماعة ، أو تخص أحداً بالإطراء، أو الذم، لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية وغير مزورة(3)، وقد كفلت هذه الصحيفة لليهود حرية الدين والعبادة، وأمنتهم على أنفسهم وأموالهم وأعطتهم حق المواطنة الكاملة في هذه الدولة، فقد أعلنت أنهم " ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين " وأن بينهم النصر على من حارب، أهل هذه الصحيفة " أي حارب أهل المدينة، وأن لهم : "النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم "، وقد حدد النبي ﷺ، أيضاً، وفي هذه الصحيفة وضع غير المسلمين من عرب المدينة فجعل عليهم ألا يجيروا مشركي قريش و لا أموالهم ولا من ناصرهم، ثم أصدر ﷺ، حكماً عاماً يشمل أهل الدستور أو الصحيفة بنص: وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة؛ إلا من ظلم أثم، وإن الله جار لمن بر واتقي، ومحمد رسول الله ﷺ.

(1)الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المبارك فوري ، (ص : 176) المكتبة التوفيقية دار الوفاء ط20 – مصر - 2009م.
(2)السيرة النبوية الصحيحة ، أكرم العمري ، (1 : 275)، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة ، ط1 – 1992م.
(3)تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة ، صالح أحمد العلي ، (ص : 4 ، 5)،مجلة المجمع العلمي العراقي ،المجلد السابع عشر بغداد – 1969م.

ومن خلال ؛ تناولنا لقضية الدستور، فهناك جملة من الدروس والعبر، نرى أن نذكرها:

أ-تحديد مفهوم الدولة الإسلامية، ليس ككيان مستقل يخص المسلمين، وإنما اتسعت حتى للغير المسلمين، من اليهود والعرب بصون أموالهم وضمان حقوقهم المعنوية والدينية، ونبذ العصبية، والقبلية، والعنصرية، والتبعية لها، وإنما يجري عليهم ما يجري على المسلمين، وقد جاء في كتابه عز وجل: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ }(المؤمنون :52).

ب- قيام الدولة الإسلامية، و تحديد معالمها، وضمان سيادتها، من خلال وضوح حدودها، وأمة واحدة بكل أطيافها من غير المسلمين، وسلطة حاكمة يرجع إليها.

ج- من ضمن ما أهتدى إليه النبي ﷺ، وما يعرف اليوم بمصطلح: ضمان الحريات وحقوق الإنسان، فإن دستور المدينة يوضح لنا عمق ثقافة النبي ﷺ، في صياغة مواده، ما يضمن لكل فرد سواء كان مسلم أو غيره، إن يتمتعوا بنفس الميزات والحقوق ضمن أطار العدالة الربانية والواجبات على السواء بما فيها حرية العقيدة، والعبادة، والتملك.

د-كان رسول الله ﷺ، حريصاً على العمل بأوامر الله، من خلال قيام دولته الجديدة؛ بما فرض من العبادات، وتنظيم المجتمع، من خلال الشرائع الاجتماعية، فيما يتعلق بالبيوت وتكوينها ونظامها وهو الذي يسمى اليوم (فقه الأحوال الشخصية)، وما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم ببعض، وما يتعلق بالحدود والقصاص.

ه-تحديد السلطة العليا، والمرجعية في نص الدستور لله ورسوله، وبذلك أصبح النبي ﷺ، يحمل الصفة التشريعية، و التطبيقية، والرقابية في تولى منصبه؛ كرئيس للدولة، حيث لم يرد في الصحيفة، (لأي شخص ما عدا رسول الله ﷺ(4).

فالواضح إن النبي ﷺ، يمثل الرئيس الأعلى للمدينة بجميع طوائفها، بجانب قيادته للمؤمنين، وقد استمد النبي ﷺ، شرعيته على ما نص عليه التشريع الدستوري، بتنظيم الحياة في مجتمع المدينة، و تنبع الأهمية الحقيقية لهذه الوثيقة اليوم، من ناحية توافقها مع الديمقراطية، من كونها قدمت سابقة دستورية و تعتبر ثابتة لبناء مجتمع معاصر، تعددى سياسياً ودينياً.

(4) نص مادة (1) : السيرة النبوية ، للصلابي ، (1 : 324) دار المعرفة ط10 ، بيروت لبنان – 2010م.

لذلك فإن هذه الوثيقة بالنسبة للمسلمين ليست تاريخاً غابراً مضى وانتهى، وليست من قصص التغني بأمجاد الآباء والأجداد، بل هي تنبض بالحياة في واقعنا الحاضر، وهي مصدر استلهام للملايين المسلمين وغير المسلمين، ولذلك يمكن الاستفادة منها لبناء مجتمع ديمقراطي إسلامي معاصر.

ومع هذا كله لم يتفرد النبي ﷺ، بالسلطة، بل كان يتتبع سياسة الشورى، بينه وبين أصحابه رضوان الله عليهم، سنوضحه لا حقاً.

1- نظام الحكم بالشورى:-

إن نظام السلطة في المدينة قائم على سماع الرأي، حيث اتبع النبي صلى الله عليه وسلم، نظام الشورى، بقوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ }(آل عمران :159).

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص؛ على مشاورات أصحابه،فعن الإمام أحمدان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لأبي بكر وعمر رضي الله عنهم: (لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما(5))

وروى ابن مردويه، عن علي بن أبي طالب قال: سئل رسول الله ﷺ، عن العزم؟ فقال: (مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم (6))

ويؤكد النبي ﷺ، من خلال ثقافته القرآنية؛ الرجوع إلى أهل الاختصاص والعلم، وقد قال ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: (المستشار مؤتمن (7)، وتروي لنا السيرة إنه في غزوة بدر: إن الحباب المنذر كخبير عسكري قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة)، قال: يا رسول الله، أن هذا ليس بمنزل (8)، وإذ بالنبي صلى الله عله وسلم أخذ برأي المنذر رضي الله عنه، وكان أحد مسببات النصر، في غزوة بدر، وكذلك في غزوة الخندق، لم يتفرد النبي ﷺ، بالرأي، وإنما أكد على رأي سلمان الفارسي رضي الله عنه، عندما أشار بحفر الخندق، ويتضح لنا مما تقدم من الأحاديث؛ أن النبي ﷺ، يرسخ ثقافة الشورى ضمن ضوابط احترازية تضمن النجاح للمشورة وهي:

أ-إن الشورى لا تكون إلا ضمن تكافل الجماعة فيما بينهم.

ب-لا تكون المشورة هادفة ما لم تحال إلى؛ قنوات استشارية من أهل العلم ،والاختصاص، والمعرفة.

(5) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير، (1 : 331).
(6) نفس المرجع.
(7)نفس المرجع.
(8)مرجع سابق ذكره (1) ، (ص : 195).

ج-لابد إن تتوافر في أهل المشورة الأمانة في القول، والعمل.

وأكد على جملة من الدروس والعبر نستخلصها من توجيه النبي ﷺ، من خلال جملة من النقاط:-

1-إن الشورى جانب تعبدي أمر الله به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان على المؤمنين أتباع الله عزوجل بقوله:{ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}(الشورى :38).

أي لا يبرمون أمرا حتي يتشاوروا فيه(9).

2-إن نظام الشورى على مستوي العام يولد الإحساس بالمسئولية لدي أفراد المجتمع ،من خلال القنوات التي شارك بها برأيه وبذلك تولد نوع من التكاتف على نطاق واسع ، يشمل كل المؤسسات للدولة .

3-إن نظام الشورى، تولد العلاقة المتميزة بين المدير والموظف، و الحاكم والمحكوم، بين الأستاذ والطالب، وتنمي الثقة إذا أقيمت على أسس دينية، وقيم إنسانية، وبالتالي تولد علاقة تجاوبيه لتقبل الأخر.

4-يعالج نظام الشورى، "الاستبداد الدكتاتوري" في نفوس بعض الطبائع البشرية يقول الله عز وجل: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى }(العلق :6).

لأن طبيعة الطغيان في النفس البشرية؛ تتمادى إذا لم يكن هناك مؤسسات شورية تضبط العملية التنفيذية، ومن خلال قنوات الشورى تولد الرقابة الخارجية والمراجعة الداخلية، وبالتالي تكبح النفس البشرية الراغبة في التفرد بالسلطة.

5- إن نظام الشورى؛ يعالج التطرف، في المجتمعات فعندما لا توجد شوري وعدم تقبل الآراء ومناقشتها، يولد التطرف سواء أفكار متطرفة قبلية سواء أفكار متطرفة عقائدية، أو أفكار متطرفة فكرية، ومن خلال الشورى يتم القضاء على التعصب، والتطرف ومسبباته.

6-إن نظام الشورى؛ يولد في المجتمعات الطاقة، ومن ثم التنادي من منطلق التكافل الاجتماعي، على استيعاب المشاكل وضمان مواجهتها، وطرح البدائل لحلها.

(9)مرجع سابق ذكره (5) ، (3 : 279).

وكما أسلفنا فإن النبي ﷺ، أكد على الأمر بالشورى وحرص على بث وتفعيل ثقافة الاستشارة بين صحابته رضي الله عنهم فقال ﷺ: (اجمعوا له العابد من آمتي واجعلوه بينكم شوري و لا تفضوا فيه برأي واحد)(10).

وهكذا فإن الشورى أوجبها الله عزوجل على رسوله ﷺ، والمؤمنين من بعده، ومن هنا تأتي ميزة الأمر الصادر بالشورى فإنه لم يكن استجابة لطلب من الناس، وإنما جاء ابتداء من رب العالمين، وهو الأمر الذي أمر به على خلاف النظم العالمية، التي لم تتم بالسهولة ولا تعتمد إلا بعد كوارث، ومآسي، ودماء، و آلام، فهي بدأت بشكل بسيط ثم تطورت إلى ما تطورت إليه الآن، ولكنها برغم من تطورها؛ فإنها لم تصل بعد إلى السمو النص القرآني وسمو التطبيق النبوي الذي أوجب الشورى وشرعها جزء من حياة الناس وجز من أحكام الإسلام.

3-البناء الاقتصادي

واجه المهاجرون من مكة إلى المدينة مشاكل متنوعة، والذي نطرحه في هذا المبحث هو المشكل الاقتصادي، لأن المهاجرين تركوا أهليهم ومعظم ثرواتهم بمكة، كما إن مهارتهم كانت في التجارة التي تمرست بها قريش، وإن الزراعة والصناعة وهما يشكلان أساسين مهمين في اقتصاديات المدينة، وبما إن التجارة تحتاج إلى رأس المال فإن المهاجرين لم يتمكنوا من شق طريقهم في المجتمع الجديد بسهولة، وكانت هذه المشكلة تواجه الدولة الناشئة.

وقد أشرنا فيما سبق إلى النبي ﷺ، قد آخى بين المهاجرين والأنصار، ورغم بذل الأنصاروكرمهم فإن الحاجة إلى إيجاد نظام يكفل للمهاجرين المعيشة الكريمة، وإن لا يشعرهم بأن يكونوا عالة على الأنصار.

(وقد ترتب على تشريع نظام المؤاخاة حقوق خاصة بين المتآخين كالمواساة بين الاثنين، والمواساة ليست محددة بأمور معينة بل مطلقة لتعنى كل أوجه العون على مواجهة أعباء الحياة سواء كان عوناً مادياً أو رعاية ونصيحة وتزاوراً ومحبة(11) .

(10)الدر المنثور ،عبد الرحمن بن الكمال جلال السيوطي ، (7 : 357)،دار الفكر،بيروت -1993م.
(11)المجتمع المدنى في المدينة،أكرم ضياء العمري،(ص:57)،دار أحياء التراث-المدينة المنورة،ط1-1983م.

ومن الجدير بالذكر إن تشريع المؤاخاة، وبناء الصفة(12)، التابعة للمسجد النبوي لاستيعاب أكبر عدد ممكن من فقراء المهاجرين، لم يقف عندها النبي صلى الله عليه وسلم بل واجه هذه القضية، بإدارة اقتصادية، بدء بدراسة أوضاع المدينة التجارية، حيث، (إن القوة الاقتصادية بيد اليهود(13)، فهم يتحكمون في السلع ويحتكرونها، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم، بناء سوق للمسلمين، وبذلك وضع آلية لإدارة الأزمة من واقع الحركة التجارية بالمدينة، كما عالج المنهج الرباني للمشكلة الاقتصادية؛ بجملة من التوجيهات والتشريعات.

كما إن المجتمع المدني الذي أقيم كان مجتمعاً عقيدياً بالإسلام، ولا يعرف الموالاة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، يقول الله عز وجل: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }(التوبة :24).

ومن هنا فرضت الشعائر التعبدية، (في السنتين الأوليين من الهجرة: الزكاة، وصدقة الفطر، والصيام، ونلاحظ سنة التدرج في بناء المجتمع المسلم، ومراعاته لواقع الناس، والانتقال بهم نحو الأفضل، دون اعتساف أو تعجيل، بل كان كل شيء في وقته(14)).

وعلى هذا، فقد وقف الفقراء والأغنياء صفاً واحداً؛ فالعقيدة الإسلامية، حاربت ومنعت الطبقية في المجتمع الإسلامي فساوت بين الفقراء والأغنياء ووحدت الصف الداخلي للقيام بواجب الجهاد يقول الله عز وجل: {لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ }(البقرة :273).

فهذه صورة حية من المجتمع المدني، في ضل حكمة النبي صلى الله عليه وسلم، في البناء الاقتصادي، فهذه خطوة من خطوات النبي صلى الله عليه وسلم، لا تقل أهمية عن باقي الخطوات في تأسيس الدولة.

(12) نفس المرجع ، (ص : 89 - 105).
(13) مرجع سابق ذكره (4) ، (1 : 388).
(14)دراسات في عهد النبوة ،عبد الرحمن الشجاع ، (ص : 166 ، 168)،دار الفكر المعاصر – صنعاء ، اليمن ، ط1 – 1999م.

4-تفعيل القضاء الإسلامي :-

لقد حرص النبي ﷺ، على تحقيق الأمن والسلامة للمجتمع الإسلامي ولا يتم ذلك إلا بتفعيل القضاء، و أسس النبي الكريم ﷺ أصول القضاء في شريعته الخاتمة للناس، وتولى صلوات الله وسلامه عليه هذا العمل الجليل بنفسه فكان هو المرجع في فصل الخصومات وقطع المنازعات، وقد جاءت نصوص الشريعة موضحة لركائز الحكم وضوابطه، وأبان المصطفى ﷺ واقعها التطبيقي في أقضية متعددة.

ولهذا أمر الله تعالى بالقضاء، قال تعالى: (وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ الله..}(المائدة :49).

ولذلك باشر النبي صلى الله عليه وسلم، القضاء بنفسه(15)، وكان مبنياً على قواعد و أسس وتوجيهات ربانية وهي:-

أولا: إن الأصل في الحكم والمرجعية هي العدالة بمدلول قوله عز وجل: (وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (المائدة :42).

ثانياً: الحكم بين الناس مبني على إقامة العدل والقسط من غير ميلٍ أو زيغ أو هوى فقال عزوجل: { وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً } (النساء :58).

ثالثاً: إن الحكم بين الناس يلزم علينا الانقياد إلى شرع الله وحكمه دون سواه ،من حكم الطواغيت وأتباعهم ، يقول تعالى : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً }(النساء :60).

رابعاً: التسليم لحكم الله والانقياد له، يقول تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } (النساء :65).

خامساً: المتولي لعمل القضاء ينظر إلى سلامته من توابع حكمه وقضائه برقابة ذاتية لكونه قد أنيط به، إقامة الحق والعدل بحكم الشريعة، ولذا لزم عليه الاجتهاد والتحري فيما وكل إليه، ليحصل له أجر اجتهاده وإصابته.

(15)نظام القضاء في الشريعة الإسلامية ، عبد الكريم زيدان، (ص:7)مؤسسة الرسالة –بيروت-ط2،1989م.

وليسلم من تبعة المؤاخذة في التقصير في الآخرة، عَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، أَنّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، رَجُلٌ قَضَى بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَعَلِمَ ذَاكَ، فَذَاكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ لَا يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حُقُوقَ النَّاسِ، فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ فَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ" (16).

سادسًا: القاضي في اختصام الناس وشقاقهم يلي أمراً مهماً عظيماً يوجب عليه عناية خاصة فيما يعالج فيتعين خلوه من الشواغل والمؤثرات بحيث يضمن سلامة الحكم وصحته في أعيان الوقائع وفي مثل هذا يقول: سَمِعْتُ ، قَالَ : كَتَبَ أَبُو بَكْرَةَ إِلَى ابْنِهِ ، وَكَانَ بِسِجِسْتَانَ، بِأَنْ لَا تَقْضِيَ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَأَنْتَ غَضْبَانُ، فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ " :لَا يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ(17).

وعندما فتح الله على المسلمين بعض الأمصار، واعتنق قاطنيها الإسلام، أرسل النبي ﷺ، الدعاة والولاة والقضاة وبعثهم لينوبوا عنه ﷺ، في الحكم بين الناس بما أراهم من الثوابت والحكمة والحكم بالعدل والإنصاف لإقامة الحدود وإيصال الحقوق لأصحابها وتعليمهم شرائع الدين.

ومن هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم، من كان في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لتمرينهم على القضاء والاجتهاد واستنباط الأحكام، ومنهم من كان بعيداً عنه، فيقوم بتبليغ حكمه إلى الرسول ﷺ فكان يصوبه أو يخطئه، فمن الولاة والقضاة الذين كانوا يقوموا بأعمال القضاء خارج المدينة، بعيداً عن الرسول ﷺ منهم:

1-علي بن أبي طالب، قلده الرسول صلى الله ﷺ، قضاء ناحية اليمن، ويروى عن علي بن أبي طالب أنه قال: بعثني رسول الله ﷺ برسالة، فقلت: يا رسول الله تبعثني وأنا غلام حديث السن، فأسأل عن القضاء، ولا أدري ما أجيب؟ قال: ما بد من ذلك، أن أذهب بها أنا، أو أنت، فقلت: إن كان ولا بد، فأنا أذهب، قال: انطلق، فإن الله تعالى يثبت لسانك، ويهدي قلبك، إن الناس يتقاضون إليك، فإذا أتاك الخصمان فلا تقض لواحد حتى تسمع كلام الآخر، فإنه أجدر أن تعلم لمن الحق(18).

(16)كتاب جامع الترمذي، **(رقم الحديث: 1241)**.
(17)صحيح البخاري،**(رقم الحديث: 6654)**.
(18)مسند أحمد بن حنبل، مسند العشرة المبشرين بالجنة،(رقم الحديث: 1169).

ووجه الدلالة في هذا الحديث أن الرسول ﷺ، أرسى قاعدة هامة في القضاء وهي إلزام القاضي بعدم إصدار حكمه في المسألة قبل أن يكتمل سماعه لأقوال الخصمين دون تمييز بينهما، وبذلك تتكشف الحقائق وتتم العدالة في إصدار الأحكام.

2-معاذ بن جبل، وقلده الرسول ﷺ قضاء بعض اليمن(16)، عَنْ رِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِ مُعَاذٍ ,أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ " : كَيْفَ تَقْضِي ؟ "، قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: " فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ؟ "، قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

؟ " ، قَالَ أَجْتَهِدُ رَأْيِي ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما يرضي الله ورسوله(19).

ووجه الدلالة في هذا الحديث أن مصادر القضاء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، هي الكتاب، ثم السنة وأخيراً الاجتهاد وأن النبي صلى الله ﷺ، قر هذه المصادر لا بل حمد الله الذي وفق معاذ لاستدراكها.

3-أبو موسى الأشعري، وجهه النبي ﷺ، إلى اليمن فقيل أميراً وقيل قاضياً، وقيل أن الرسول ﷺ، بعثه قاضياً على نصف اليمن ومعاذ بن جبل على النصف الآخر.

4-عتاب بن أُسيد، أسلم يوم الفتح فستخلفه الرسول ﷺ، على مكة(20)، بعد الفتح والياً وقاضياً.

وخلاصة القول: إن الله سبحانه وتعالى، كما أرسل رسوله محمد ﷺ مبشراً ونذيراً، فهو الذي ولاه القضاء بين الأمة وجعله القاضي الأول بين المسلمين، فقال الله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً }(النساء :105).

(19)مسند أحمد بن حنبل، **رقم الحديث: 21493** .

(20) الطبقات الكبري لابن سعد، محمد بن سعد الزهري ،(2 : 100، 101،107)، دار بيروت للطباعة والنشر – 1957م. .

وقال تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } (النساء :6).

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً }(النساء :59).

ومن هذه الآيات الكريمة، يتبين بأن النبي ﷺ، كان مأموراً بالدعوة إلى الله عز وجل، و كان مأموراً بالحكم والقضاء بين الناس فيما بينهم من خصومات ومنازعات، وأنه ﷺ كان القاضي الأول والأعلى بين المسلمين، وذلك بتكليف من الله تعالى، عز وجل لرسوله الكريم ﷺ، كما أصبح حكمه ملزماً للناس كافة، سواء أكان بوحي من الله، أو باجتهاده، ﷺ، فأصبح فيما بعد سنة ملزمة.

5-بناء الجيش الإسلامي:-

تتجلى عمق ثقافة النبي ﷺ، في خطواته في بناء الدولة، والمؤسسات، على نطاق واسع وشامل، حيث أوجد النبي ﷺ، مؤسسة هامة في تعزيز أركان الدولة وحمايتها، ومن ثم الدعوة إلى الله في نشر الدين الإسلامي وهي: بناء الجيش وتفعيله.

أ-الدواعي والأسباب :-

إن الخطر قائم على النبي ﷺ، والمسلمين كافة ، وتنبئ الأخبار(عن قريش أنهم لا يفيقون عن غيهم ولا يمتنعون عن تمردهم بحال، أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين ولم يفرضه عليهم(21).

قال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}(الحج :39)

قال أبوبكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال، وزاد أحمد: وهي أول آية نزلت في القتال(22)).

وأنزل معه آيات توضح أن الإذن بالقتال هو لإزاحة الباطل وإقامة شعائر الله تعالى

قال تعالى: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ }(الحج :41).

قال: عثمان بن عفان رضي الله عنه فينا نزلت(23))

ولما كان الإذن بالقتال ،فان تحركات النبي ﷺ، المدروسة، بتحرك سياسي يضمن العلاقات الخارجية للدولة، فقد قام بعدة خطوات؛ تبين لنا مدى قدرة النبي ﷺ، واستيعابه للبيئة المحيطة بالدولة.

(21)مرجع سابق ذكره (1)، (ص : 183).

(22)مرجع سابق ذكره (5)، (2 : 545).

(23) أخرجه ابن حاتم عن عثمان رضي الله عنه ،مرجع سابق ذكره (9)، (546 : 2).

الناشئة، ضمن أطار التحرك الخارجي واتخاذ عدة خطوات أهمها: -

1-إرسال الكتب إلى القبائل المجاورة، يبين فيه ﷺ، (أنهم آمنون على أموالهم و أنفسهم ، إن لهم النصر على من رماهم إلا أن يحاربوا دين الله ، ...وأن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه(24)) .

فعقد معهم المعاهدات(25)، والأحلاف، مع القبائل التي على خطوط طرق التجارة مع مكة.

2-إرسال السرايا والبعثات، واحدة تلو الأخرى لهذه الطرقات والممرات ما بين المدينة ومكة، أشبه بالدوريات والاستطلاع، وكان للنبي ﷺ، يضع ويرسم الخطط، يضمن من خلالهم صحة اتخاذ القرارات بالتحركات العسكرية.

3-إشعار مشركي يثرب ويهودها، وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء، وإنهم تخلصوا من ضعفهم القديم(26)).

هذا مجمل لبعض الإجراءات الأولية التي بدأ بها النبي ﷺ، و الذي يهمنا إن نلقي الضوء على تكوين الجيش الإسلامي، في ضوء ثقافة الرسول ﷺ العسكرية، ابتداء من مركز القيادة وأسلوب إعداد الجيش وتأمينه:-

-إن مقر القيادة العسكرية أساسه من المسجد النبوي، وكان حوله مجموعة من خيار المهاجرين وقادتهم، وكان النبي ﷺ، إذا عزم أو أستجد أمر جمع المسلمين واستشارهم، وكان أهم الأمور التي يستشير فيها، القرار العسكري، لأنه مصير تتأثر به الدولة، فلقيادة العسكرية توجه من المسجد النبوي، حيث يصدر الأوامر العسكرية والتعليمات الخاصة بالجيش، وكان المسجد بمثابة مركزاً للثقافة العسكرية والتربوية فيرشد النبي ﷺ، الجيش إلى آداب القتال في الإسلام والى عوامل النصر.
-تواضع القائد وعدم التميز، لم يكن النبي ﷺ، يتميز عن جنوده بل كان معهم في جبهات القتال يد بيد في السراء والضراء روي الإمام أحمد في مسنده بإسناده إلى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير ، ...فال: فقالا: نحن نمشي عنك ! فقال: ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر عنكما(27)).

(24)مرجع سابق ذكره (1) ، (ص : 186).
(25)نفس المرجع ، (ص : 184).
(26)نفس المرجع .

-كان ﷺ، شجاعاً يتقدم الصفوف في القتال، ويتصدى لأشق المهمات، وكان في أشد ساعات القتال وأشده يحتمي به الإبطال من الصحابة رضوان الله عليهم، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد قال: (كان إذا حمي البأس ، واحمرت الحدقة اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه (28)).

لقد كان رسول الله ﷺ، حريصاً على حل المشاكل التي تحدث في دولته سواء كانت؛ اجتماعية ، أو اقتصادية، أو سياسية، أو قضايا عسكرية، وإن الخطوات الجادة والمدروسة، تدل دلالة واضحة على عمق ثقافة النبي ﷺ، في مواجهة كل التحديات.

6-دبلوماسية النبي صلي الله عليه وسلم:-

إذا كانت الدبلوماسية هي استعمال الذكاء والكياسة في إدارة العلاقات بين حكومات الدول الرسمية، فقد كان النبي ﷺ، الرائد في ذلك، بل لا تتوافر المقارنة من باب الإيجاز بينه وبين غيره إلا علي سبيل ضرب المثل؛ وذلك لأنه أوتي من خصال ما لم يؤت أحد من العالمين فهو أفصح الناس وأوتي جوامع الكلم، وأدبه ربه فأحسن تأديبه، ووصف خلقه بالعظيم، وعلمه الله الكتاب والحكمة.

أ-الوضع العام قبل صلح الحديبية :-

ومن خلال ما تقدم ؛ فإن في العام الخامس للهجرة أي قبل صلح الحديبية بعام دوهمت المدينة من قبل أعداء الإسلام من قريش وأحزابها، ومن اليهود وحلفائهم، وفي غزوة الأحزاب(29)، قرر النبي ﷺ، إن قريشاً لن تغزو المدينة بعد هذا أبدا، فأصبحت الدولة الإسلامية بعد ذلك دولة مرهوبة الجانب عند جميع العرب، (فقد شهد العام السادس من العام الهجري تصعيداً عنيفاً في عمليات المواجهة مع العدو (30)).

ولكن النبي ﷺ، اتخذ خطوة أخرى، يخطوها في سبيل الدعوة، وفي سبيل تقوية الدولة الإسلامية، وإضعاف أعدائه، وقد علمت استخبارات المدينة بالتحالف العسكري الذي عقد بين أهل خيبر وقريش، على أنها الوجود الإسلامي(31)، كما بلغ لرسول ﷺ، أن اليسير بن رزم أمير اليهود بخيبر بعد سلام بن أبي الحقيق، أخذ في جمع يهود الشمال وتحريضهم على رسول الله ﷺ، وتحريض غطفان وجمعها لقتال رسول الله ﷺ(32).

(27) الطبقات الكبري لابن سعد، محمد بن سعد الزهري ،(2 : 21)،دار بيروت للطباعة والنشر –1957م.
(28)مرجع سابق ذكره (1)، (ص : 545).
(29)الأحزاب : سميت غزوة الخندق ، لحفر الخندق حول المدينة ؛ ذو القعدة في السنة الخامسة هجري (عام : 627 م).
(30) السيرة النبوية ، علي الصلابي ، (2 : 656) دار المعرفة ط10، - 2010م .
(31)قراءة سياسية للسيرة النبوية ، محمد قلعجي ،(ص : 213 ، 214)، دار النفائس ط1 ، بيروت – 1996م.
(32)اليهود في السنة المطهرة ،عبد الله الشقاري ، (1 : 388 ، 389) ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ط2 – 1988م .

وبتحرك دبلوماسي سريع، رأى النبي ﷺ، إن الوصول إلى اتفاقية مع أهل مكة، تتيح له ان يخلي بينه وبين العرب لتسهيل الدعوة في شبه الجزيرة العربية، وأن يعزل بها يهود خيبر عن قريش؛ فكيف كان تحرك النبي ﷺ، في ضل الوضع الراهن؟

إن الزمن والمكان له أهميه جادة، في تحرك النبي ﷺ، ورأى عدم محاربة العرب، في الأشهر الحرم، تسهل له هذا التحرك، ويعلم بعد غزوة الأحزاب لقريش قد تفككت وحدتها وصار يساورها الخوف من المسلمين.

ب-كسب الرأي العام

لما خشى النبي ﷺ من قريش أن يصدوه أو يتعرضوا له بالحرب، أذن بالعمرة في شهر ذي القعدة الحرام، وأرسل إلى القبائل العربية من غير المسلمين، يدعوهم إلى الخروج معه إلى بيت الله الحرام أمينين غير مقاتلين، وكان يقصد من ذلك إن يعلم العرب إنه خرج معتمراً ولم يخرج غازياً، وأنه أشرك العرب غير المسلمين وهم ليسوا على دينه لأنه لا يريد قتالاً، وبذلك يكسب الرأي العام، فيما منعته قريش من العمرة، ولتفادي الاشتباك مع قريش، سلك النبي ﷺ، طريق وعرة عبر ثنية المرار، وهي مهبط الحديبية، ويؤخذ من اتخاذ الأدلة والتحول إلى الطرق الآمنة أن القيادة الواعية البصيرة، تسلك في سيرها بالجيش طرقاًبعيدة عن المخاطر والمهالك، وتتجنب الدروب التي تجعل الجيش خاضعاً تحت تصرفات العدو وهجماته(33).

د-صلح الحديبية (ذو القعدة "628م"(34) :-

كان عدد من المعتمرين من المسلمين آنذاك كبيراً بمقاييس ذلك الزمن، أكثرهم ممن قاتلوا في بدر نفسها، ولذا فإن الصلح لم يكن عن ضعف وقلة فيهم، بقدر ما كان نتاج لدرايته السياسية ﷺ، والتي لم يتبينها حتى الأقربون من صحابة رسول الله ﷺ، فقريش كانت تخشى على سمعتها بين العرب، فيما لو دخل عليها المسلمون عنوة ما يدل على قدرة المسلمين وقوتهم في اقتحام مكة، ولكن رغم قوة المسلمين وسعى قريش؛ إلا إن النبي ﷺ، رأى ان يعقد كتاب الصلح بينه وبينهم.

(33)السيرة النبوية ، محمد أبو فارس ،(ص : 374) ،دار الفرقان ، عمان ط1 – 1997م .
(34)الرسول ﷺ، حيلته وتطور الدعوة الإسلامية في عصره ،عبد الرحمن أحمد سالم ، (ص : 157)،دار الفكر العربي ، القاهرة ، 2006 م .

فكتب بالاتفاق بين: ((محمد بن عبدالله ، وسهيل بن عمرو (35)) مبعوث قريش وممثلها كان فيه من التنازلات، ما أثار غضب وعدم رضا بعض الصحابة ،لأن نصوص الصلح لم ترضي الصحابة ولكن وافق عليها النبي ﷺ، وهذه بعض نصوصها(36).

-الرسول ﷺ، يرجع من عامه، فلا يدخل مكة وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثا، معهم سلاح الراكب، السيوف في القرب، ولا يتعرض لهم بأي نوع من أنواع التعرض.

-وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيه الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

-من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جُزْءاً من ذلك الفريق.

-من أتي محمداً من قريش من غير إذن وليه – أي هارباً منهم – رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد – أي هارباً منه – لم يرد عليه.

وصفوة القول: أن هذا الصلح اعتراف من قريش؛ بالرسول ﷺ، ندا لها، مما شجع بعض القبائل العربية، في الدخول في حلف النبي ﷺ، حيث دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ(37))، وكذلك تمكين النبي ﷺ، إن يكتب إلى الملوك ورؤساء القبائل يبلغهم بالإسلام ويدعوهم وهو مطمئن على سفرائه.

(35)مرجع سابق ذكره (1)، (ص : 298).
(36)نفس المرجع ، (ص : 298 ، 299).
(37)مرجع سابق ذكره (1) ،(ص : 299).

كذلك أسلام كثير من صناديد قريش، ومنهم : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص، وعثمان بن أبي طلحة، فأصبحوا رضي الله عنهم، قادة يقودون الجيوش الإسلامية فجاءت على أيدهم الفتوحات في مشارق الأرض ومغاربها، لا يسع المجال لذكرها...
كذلك قضية خيبر كانت الشغل الشاغل للنبي ﷺ، لكنه لم يكن يستطيع التوجه إليهم بسبب الخلافات المستمرة بينه وبين قريش، وبعد صلح الحديبية تفرغ لهم ومن ثم أنطلق إلي خيبر.

ومن الثمرات التي عادت علي المسلمين ؛عودت المهاجرين إلي المدينة، وبهذا أضيفت إلي قوة المسلمين في المدينة قوة المسلمين الذين كانوا في الحبشة .

لقد أثبت النبي ﷺ، إن نتائج مفاوضاته مع قريش تدل على حكمة سياسية عالية المستوي، وفي ما يسمي اليوم، (إدارة العلاقات الدولية)ويتضح ذلك من الثمرات التي جناها المسلمون..

وصفوة القول: أن صلح الحديبية كان نقطة تحول فاصلة، في مسار الدعوة الإسلامية، ومن هذه النقطة أصبحت دولة المدينة تأخذ طابعاً جديداً للفتح المبين.

ه-فتح مكة : -

إن النبي صلى الله عليه وسلم، كان على يقين إن شرع الله **لا يأتي** إلا بالخير في الدنيا والآخرة، وهذا من سياق قوله تعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً{1} لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{2} وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً{3})(الفتح : 1 ، 2 ، 3).

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم، من صلح الحديبية، في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، وحالوا بينه وبين العمرة، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على كره من جماعة من الصحابة، ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله عز وجل هذه السورة، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمر إليه ، كما روي ابن مسعود قال: إنكم تعدون الفتح (فتح مكة)، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية فقوله تعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً)أي بينا ظاهراً، والمراد به، (صلح الحديبية)، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان وقوله تعالى: (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)، هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم، لا يشاركه فيها غيره(38).

ومع رجوع النبي ﷺ، والتزامه بالصلح واعتراض بعض الصحابة كما أسلفنا إلا إن الله عزوجل لم يخلف وعده لنبيه بالفتح المبين.

(38) مرجع سابق ذكره (5) ، (3 : 336).

وأنزل عليه قوله تعالى: (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً{27} هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً{28})(الفتح : 27، 28).

كان رسول الله قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع ورجعوا عامهم ذلك على إن يعودوا من قابل، وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال: أفلم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضا، ولهذا قال تبارك وتعالى: (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ)،هذا لتحقيق الخبر وتوكيده وليس هذا من الاستثناء في شيء، وقوله عزوجل: (آمِنِينَ)أي في حال دخولكم، وقوله تعالى : (مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ)، حال مقدرة، لان في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين، وإنما كان في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره(39).

وهكذا فقد حدث أثناء هدنة الحديبية أن قريش نقضت العهد بأن أمدت حلفاءها من بني بكر بالسلاح والرجال وخرج الجميع علي خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وقاتلوها فكانت لهم الكرة عليها.

وهنا خرج أحد رجال خزاعة – واسمه عمرو بن سالم – حتى قدم على رسول الله ﷺ، المدينة فشرح له ما حدث من نقض قريش لعهدها معه بمناصرتها لحلفائها من بني بكر على حلفائه من بني خزاعة، فوعده الرسول ﷺ، بالنصر(40).

خرج النبي، ﷺ في العاشر من رمضان سنة الثامن هجري، متوجهاً نحو مكة على رأس جيش بلغ عشرة آلاف رجل(41) .

(39)مرجع سابق ذكره (5)، (3 : 350).
(40)المغازي،محمد عمر الواقدي ، (2 : 781 ، 789) ،بيروت ط3 – 1984م .
(41) تاريخ الطبري ،أبو جعفر محمد بن جرير ، تحقيق ،محمد أبو الفضل إبراهيم ،(3 : 50)، دار سويدان –بيروت - 1964م.

وهنا لنا أن نقارب بين العدد وبين العدد الذي خرج معه في صلح الحديبية لنتعرف على الطفرة الهائلة وما حققه النبي ﷺ، خلال فترة قصيرة، وكانت الدلائل كلها تشير إلى أن مكة ستستسلم للمسلمين دون قتال؛ فأصبح المسلمون يمثلون قوة عظيمة، كما إن قريش فقدت كثير من قادتها في حربها على المسلمين.

ثم إن بعض أبطالها المعروفين، قد أسلموا وأصبحوا حرباً على الوثنية كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهم، وعلاوة عن ذلك؛ إن اليهود – تجرعوا كأس الهزيمة المرة على يد المسلمين بعد أن أمعنوا في التآمر عليهم، ففقدت قريشاً بذلك حليفاًمهماً في حربها ضد الإسلام، كل العوامل جعلت استسلام مكة للجيش الإسلامي أمراً مسلماً به(42).

فدخلها النبي ﷺ، وبين يديه أصحابه يلبون، وهو راكب، (ناقته القصواء)التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ، وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله إني شهيد أنه رسوله

خلوا فكل الخير في رسوله كما قتلناكم علي تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله (43).

كان فتح مكة في العشرين من رمضان سنة (630م)، وأقام بها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الفتح خمسة عشر يوماً(44).

إن التعامل الذي عامل به النبي ﷺ، أهل مكة بعد فتحها يلخص ثقافة النبي ﷺ، في التسامح مع من أذوه وحاولوا قتله، وأرسى النبي ﷺ، القواعد الأساسية للحرب في الإسلام، إنها شرعت إلا لرد المظالم، وما كان الهدف منها الانتقام وسفك الدم بل التسامح، والعفو عند المقدرة.

(42)التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، أحمد شلبي ، (1 : 206 ، 207).
(43) مرجع سابق ذكره (5) ، (3 : 350، 351).
(44) السيرة النبوية ، لابن هشام ، (4 : 64 ، 65)، دار الفجر ط2 ، القاهرة – 2004م.

ومن الرويات الدالة في هذا السياق؛ أن سعد بن عبادة نادى أبا سفيان يوم فتح مكة قائلا: (يا أبا سفيان !اليوم الملحمة ! اليوم تستحل الحرمة ! اليوم أذل الله قريش)!وقد بلغ أبو سفيان الرسول، ﷺ مقالة سعد وقال: (إني أنشدك الله في قومك، فأنت ابر الناس، وأرحم الناس ،وأوصل الناس)، !وقال عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان: (يارسول الله، ما نأمن سعدا ان يكون منه في قريش صولة)! فقال الرسول ﷺ: (اليوم يوم المرحمة ! اليوم أعز الله فيه قريشا)! وعزل سعداً عن قيادة كتيبته وأعطى لواءها لابنه قيس بن سعد)(45).

وبهذا؛ وضع النبي ﷺ، وأرسى قواعد المصالحة، ضمن ثقافة التسامح حتى مع من أخرجوه، وعذبوا أصحابه، ولم يذخروا سعة في محاولة اغتياله، ليطفؤوا نور الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

و-حجة الوداع :-

في ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة تجهز الرسول ﷺ، للحج وأمر الناس بالجهاز له، ثم خرج مع أصحابه إلى مكة لخمس ليال بقين من ذى القعدة(46).

وقد عرفت هذه الحجة، (حجة الوداع)، وسميت بذلك بعد وفاته النبي صلى الله عليه وسلم(47)، لأنه ودع فيها الناس ولم يحج بعدها، ويطلق على هذه الحجة أحياناً اسم، (حجة الإسلام)، لأنه النبي ﷺ، لم يحج من المدينة غيرها كما تسمى أحياناً حجة البلاغ لأن النبي ﷺ.

بلغ شرع الله في الحج قولاً وفعلاً كما يقول ابن كثير(48)، وبين للناس خلالها ما بينه من مبادئ الإسلام في خطبته المعروفة التي تكرر فيها الحديث عن تبليغ الدعوة(49).
فقد خطب ﷺ، عندئذ خطبة عميقة التأثير، (وكان الذي يبلغ عنه بعرفة ربيعة ابن أمية بن خلف لكثرة الناس)(50) .

والذي يهمنا إن نستعرض ما جاء في هذه الخطبة مما تحمله من دلالة على عمق ما نصت عليه هذه الخطبة، من تكامل للحقوق والوجبات لهذه الأمة وتعاملاتها.

(45)مرجع سابق ذكره (36) ،(2 : 821 ، 822).
(46)السيرة النبوية ، لابن هشام ، (4 : 272)
(47) أنساب الأشراف، أحمد بن يحي بن جابر البلاذري ، (1 : 368)، تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف – القاهرة – 1987م.
(48)البداية والنهاية ،لابن كثير، (4: 99) ، بعناية وتوثيق ، عبد الرحمن اللاذقي ، محمد غازي بيضون، دار المعرفة – لبنان ،ط4 – 1998م.
(49)تاريخ اليعقوبي ، احمد بن يعقوب بن جعفر ،(2 : 109 – 112) دار صادر – بيروت ، 1992م .
(50)الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ،((2 : 302) ، دار صادر، بيروت .

(يأيها الناس أسمعوا قولي! فاني لا ادري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا، يأيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى إن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كان عنده أمانة فليؤديها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل رباً موضوع، ولكم رؤوس أموالكم لا تظلمون وتظلمون.

وقضى الله انه لا رباً ..أيها الناس إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم ...واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان(51)، لا يملكن لأنفسهم شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي، فأني قد بلغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس، اسمعوا قولي فإني قد بلغت، و اعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخو المسلم وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لا مرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم، اللهم هل بلغت(52)).

ويمكن القول أن دعوة الإسلام وصلت إلى غايتها عند ذلك الوقت وتكاملت رسالته وأدي النبيﷺ، مناسكه بالمسلمين، فقد ساق الهدي والناس معه فحج بالناس وأراهم مناسكهم وعملهم سنن حجهم، وما تضمنته خطبته ﷺ،أبان كثيرة من الحلال والحرام وأوصى المؤمنين بكثير من الوصايا، التي تكفل لهم السعادة في الدارين، فهي بمثابة ما يسمى اليوم بوثيقة، (حقوق الإنسان)، فما أحوجنا اليوم للعمل بها، فكل ما جاء في خطبته ﷺ، تضمن حقوق الفرد المسلم سواء ما يخص الحياة العامة أو الخاصة.

و نزل بعرفة قوله تعالى: {.. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ..}(المائدة: 3).

وهو الإسلام أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً وقال السدي: نزلت هذه الآية يوم عرفه، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام، وقال ابن جرير: مات رسول الله صلى الله عليه سلم بعد يوم عرفه بأحد وثمانين يوماً(52).

وقد انتقل الرسول ﷺ، إلى الرفيق الأعلى في منتصف نهار الاثنين 12 من ربيع الأول سنة 11 ه (8 يونيو 632 م)، وكان في بيت السيدة عائشة، وعندما ثقل في حجرها نظرت في وجهه فإذا نظره قد شخص وهو يقول: (بل الرفيق الأعلى من الجنة)! فقالت عائشة: (خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق)، وفاضت روحه الطاهرة(53).

وله ثلاث وستون سنة، وكان أشد الأيام سواداً ووحشة ومصاباً على المسلمين، ومحنة كبرى للبشرية، كما كان يوم ولادته أسعد يوم طلعت فيه الشمس(54).

(51)عوان جمع عانية ، وهي الأسيرة .

(52)تاريخ الطبري ،أبو جعفر محمد بن جرير ، تحقيق ،محمد أبو الفضل إبراهيم ،(3 : 150-151)، دار سويدان –بيروت - 1964م.

(52) مرجع سابق ذكره (5) ،(1 : 484).

(53)مرجع سابق ذكره (37) ، (3 : 199 ، 200).

(54)السيرة النبوية ، أبو الحسن علي الحسيني الندوي ، (ص : 404)،دار الشروق ،جدة ط8 – 1989م.

الخاتمة

أَكتبها راجياً من الله تعالى أن يحسن خاتمة حياتي، وحياتَ جميع المسلمين، ويجعل آخر كلامنا – لا اله إلا الله محمد رسول الله – ﷺ.

هذا ما فتح الله به عليَّ من بحث وتحقيق، في هذا العلم الجليل العلم الذي جمع بين الحجة والإعجاز والدلائل والإنجاز، من سنته وسيرته ومحاسن الشريعة القويمة التي سار عليها، صلى الله عليه وسلم، فقد اجتهدت ولم اخلّ من الجهد فيما فيه قصد الاستيفاء من المسائل – المتعلقة بموضوع الدراسة – ما فيه كفاية للمبتدئ، وبداية لمن يريد المزيد في هذا المضمار، ولعل من يتناوله فيما بعد، ممن أيدهم الله بفكر أوسع – وهم كثيرون والحمد الله – يستطيعون البسط في مسائله باجتهاد ومثابرة أوسع مما قدمت، وسعة لفظ ودلالة مما بسطت وانتقيت.

فقد ظهر من خلال دراستي، دراسة قرآنية، لثقافته ﷺ، أنه لما وجد الدستور المنظم للعلاقات الإنسانية، فقد تطلب ذلك بلوغ أعلى المراتب في صدق الاعتقاد في إصلاح أحوال الناس في الدنيا، وتحقيق الخير لهم في الظاهر والباطن، وبما يؤتي ثماره في كل حين من حيث تطبيق الإحكام الشرعية القويمة الصالحة لكل زمان ومكان، وبما يوصل المؤمن الحق، والمؤمن الصادق إلى جنات النعيم، ثواباً من الله – العلي القدير.

وإن الفارق الكبير قد استبان بين الجاهلية التي طغت عبر العصور خالية وبين عصر الإسلام، الذي أنار العقول، وهداها إلى نور الحق المبين، فيما أوجد من الأهمية بمكان، ضرورة لفت الأنظار إلى الجوانب العميقة التي كانت وراء تلك المفارقات والاستبانات.

فقد خلصت من هذه الدراسة إلى أهمها و أعمقها تأثيراً، فيما يتعلق بمستوى التفكير البشرى، في ملكات النبوة، ووسائل نجاحها في تبليغ الدعوة الإسلامية أمثل بلاغ ما فيه من درر مكنونة وحقوق وشرائع مسنونة، وحجج بالغة، أسبغت على الأفكار استلهاماً يتصف بالعمق من جادة الصواب، والتجدد في الإنتاج العقلي المثمر، في أبدع مجالات الحضارة الإنسانية.

فقد تبين، من خلال معرفة أن الأمم التي سبقت الإسلام، والتي مازالت تسير على غير نهج الإسلام حتى في عصرنا هذا قد اعتمدت في بنائها وتنظيم علاقاتها أنظمة من وضع البشر، مما يجعلنا نقيم القرار، أنها وفق ذلك لم تضع أهدافاً ذات مصالح إنسانية بحتة، ترتقي إلى المنهجية البنائية في تنظيم المجتمعات، كما هو الحال على البناء على الثقافة الإنسانية المتصفة بخصيصة الصلاحية لكل زمان ومكان، إذن فقد

كانت القضية الكبرى عامة، خارج النظام التشريعي الإلهي الذي تضمنه الإسلام، إنها هي قضية وأد الإنسانية كلها.

وهذا على كل حال لم يكن صدفة، إنما مغزى القصيد، أن الحكمة الإلهية، اقتضت الإعجاز شاملة كل الاعتبارات التي يتساءل حولها الإنسان، أو يتجرأ على اقامة الشكوك حولها، فتغير المجتمع الجاهلي، وطمست ثقافات الجور والفجور التي أدت إلى الجدال الفاسد في الدين، بل وتعدت حتى التفكير الإنساني، ولم يكن ذلك أيضا وضعا من البشر، إنما حكمة الله – سبحانه تعالى- في حفظ هذا الكون، والحفاظ عليه، وفق سنن تشريعية تعجز الإنس والجن عن الحياد دون الطعن في أصوله.

ومما خلصت إليه من هذه الدراسة :-

إن حكمة الله -عز وجل- في تهيئة، النبي الأمي ﷺ، كانت بالعصمة لتبليغ الوحي، منذ صغره، فقد أركز هنا على جانب الظروف المادية التي أحاطت به، في كونه عاش فقيراً، وهو ما كان أقرب الأسباب في إيمان الناس به وتصديقهم برسالته، وهذا هو عمق معنى التطهر المعنوي، الذي أتخذ الشكل الحسي المادي ليكون ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس و أبصارهم، فقد فوض أمره إلى الله – سبحانه وتعالى، فاتسعت حياته ﷺ، وعظمت أخلاقه، وتجسدت شخصيته، وتمثلت بلاغته وثقافته؛ فكانت هذه الجوانب وغيرها جزءاً من إعجاز الله –سبحانه وتعالى.

مما أفضى إلى نزاهة الشريعة، والجدارة في قدراته ﷺ، على دعوة و التبليغ.

_إن ثقافته ﷺ، قد خاطبت وتخاطب فطرة الكائن البشري في أية مرحلة من مراحل الحياة، عقليا وثقافيا واجتماعيا، لتأخذ بيده من الموضع الذي هو فيه إلى حيث استثمار إمكانات هذه الفطرة بما فيه صالحها وصالح الآخرين في الدنيا والآخرة.

_إن سلسلة حياته ﷺ، وما اعتراها من مواقف جليلة منذ ولادته، كانت قد تلاحمت وتآزرت لتقوي مفهوم الثقافة الأمية التي وجدت بوجوده، وتعمقت بأقواله وأفعاله وتقريرا ته، ويظل يصاحبها التصديق في جنبات الأرض إلى حين قيام الساعة.

_إن العلم بثقافته ﷺ، أساس جاء ليكون منهج تربية ومنهج حياة، لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد المعرفة؛ فإن رسالته هي الرسالة الخالدة، وهي الدستور الذي يقوم عليه الدين والدنيا، فقد توفرت مقوماتها في إنسان ليس كالبشر، اتصلت مميزاته مباشرة بالله عز وجل، تحمل ظلال الألوهية، وتنسجم مع متطلبات وأسس الحياة.

_إنه لما كان أمر بعث الرسل عليهم السلام، أمراً حتمياً، لاتصال العباد بربهم، وإمكانية الإجابة على كل التساؤلات البشرية، في مسائل الدنيا والآخرة والغيبيات،

فقد جاء هذا الرسول الأمي ﷺ، بالإجابات الشافية والكامنة، فيما تضمنه القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، في الرسالة العامة التي شملت أخبار الأمم السابقة، وعبرت لتخبر عما في الجنة ونعيمها، وما في النار وجحيمها، بل وتعدت كل خيالات الإنسان فلم تغادر صغيرة ولا كبيرة، فقد شرع الله تبارك وتعالى، وعلى أن يكون مبلغ الرسالة على أرفع قدر من الثقافة المعجزة، تتجمع عنده اللغة والبيان، والتفسير والإيضاح، فلا تعرف فيها للمعارف حدوداً، ولا إلى الإعجاز ظناً.

_إن ثقافة النبي ﷺ، تعّدت مصاعب كل الظروف، واكتست بطابع حفظ الاتزان، رغم تغير عوامل التكذيب والمعارضة حولها، فقد نقلب الأطراف في هذا الصدد، لنجد أنها تكون أرفع في موقف عن غيره من مواقف حياته ودعوته صلى الله عليه وسلم، سراً أو جهراً، قرباً أو بعداً، فقد سارت في خط متوازٍ مع عظمة الدعوة، وعظمة مصادرها القويمة القوية.

_إن ثقافته ﷺ، لعبت أصعب الأدوار في تاريخ الدعوة، بل ومازالت تركب أصعب الأدوار عبر التاريخ البشرية، وهو من سمات الإسلام الأساسية، فهو الرسول الذي نجده لينا عند منازل اللين؛ ومتواضعاً متسامحاً في مهام اليسر، ونجده صارماً حاسماً الأمور بحكمة عند مواقف الشدة، ومع هذا وذاك لا ينفك عنه المسلمون، في حياته، أو من خلال استقصاء سيرته الشريفة، بل ويغوصون في الازتيات من مورده العذب، والتزود بفضائله، والاقتداء بثقافته وعلمه وسنته المطهرة، عليه الصلاة والسلام.

_إنه ﷺ، أصَّل مفهوم الثقافة، في نفوس صحابته رضي الله عنه، وأهل بيته، والسلف الصالح، ومن أتى بعدهم من أمته، طالباً معرفة الحقة وأصولها الرفيعة، فلا غرابة في أن نجد جيلاً قد تعلم وتثقف على يديه ﷺ، السلف الصالح فيما أثر عنهم، رضوان الله عليهم، في خير ما يقتدى بهم، وتتجلى ثقافة الخلف الصالح في تتبع الشرع، وتمكينهم؛ إن تلك النجاحات التي بلغها الإسلام في عصر صدر الإسلام، وعهد الصحابة لإعادة هذه القوة المرجوة بثقافة عصرية باهرة تستند إلى معرفة جوانب الثقافة النبوية الشريفة.

_إن القضية الأساسية التي دارت وتدور عليها فكرة البحث في ثقافة النبي صلى الله عليه وسلم، إنما هو اعتبارها جزء رئيس في قضية فهم النص القرآني، إذن فهي تنبثق من الثقافة القرآنية ضمن مادة الوحي.

_إن دراسة ثقافته ﷺ، هو جزء من دراسة سنته وسيرته، ولذاَ فهو أصل من أصول الدين، التي تفهم منها ثقافة تكوين الفرد المسلم، ليكون فاعلاً في البيت المسلم، والمجتمع المسلم، وهذه كلها قواعد و أسس لمنهج التكوين الإسلامي.

هذا، وقد ظهر لي من خلال دراستي بعض المقترحات والتوصيات أهمها:-

_أن على المسلمين مسؤولية تقديم قدراتهم على إثراء كل الجوانب العميقة في سنته وسيرته ﷺ، نقية خالية من أي تعصب وروايات مذهبية واهية، فهي تزيد من ارتباط المسلم بقرآنه وشرعه، والعمل بكل ما أمر به الله عز وجل، والبعد عما نهي عنه.

_إن استخدام المسلم في بحثه ودراسته الأساليب التي تواكب العص ، متمحصاً كل ما يمكن أن يظهر من سبل العصر التكنولوجية وشبكة المعلومات، فيما يتعلق بالكتابة والإصدارات، والتي تركز على البعد الإنساني في ثقافته و سنته صلى الله عليه وسلم، وسماحة الشريعة الإسلامية من جهة أخرى، أو حتى مجرد التعليقات ونقل المعلومات، عن أي جانب من حياته ﷺ، وإثراء المكتبة الإسلامية بما يكفل عبور الدين في كل عصر برسالته الخالدة.

-إن يكون لدى المعلم، والمربي، والداعية الإسلامية نموذجاً حياً عن طرائق التربية والتعليم، بوضع المناهج لجميع المراحل التعليمية، و إلقاء المحاضرات، وعقد المؤتمرات والندوات، فلقد كان محمد ﷺ معلماً ناصحاً ومربياً فاضلاً لم يأل جهداً في تلمس أجدى الطرق الصالحة، إلى كل من التربية والتعليم خلال مختلف مراحل دعوته.

_أن ينفتح الباحث في دراساته الفكرية الدينية على المصطلحات الجديدة، متخلصاً من التقليد والتبعية في الدراسة، وتقديم الدراسات الأكثر جدوى التي تساهم في تطوير بناء الصرح الثقافي الإسلامي فالأساس والمرجعية هو الثقافة القرآنية، والوسيلة إلى بلوغها هي المسلم المعاصر المثقف.

- استحداث مركز ثقافي استراتيجي متخصص في ثقافة النبي ﷺ، ومن اختصاصاته :_

-الرد وعلى وجه السرعة على كل شبة أو إساءة للنبي ﷺ.

- أحياء سهم المؤلفة قلوبهم، بتوظيفهم بالكتابة عن النبي ﷺ، وتوفر لهم الإمكانيات بما في ذلك حمايتهم.

-استحداث القنوات الفضائية المتخصصة ببث حي ومباشر، وأعداد الكوادر المؤهلة لتقوم بالرد على ما يورد من شبهات وأساءت للنبي ﷺ، وبجميع اللغات المعاصرة لتعريف به وبسيرته، وما يتحلى به النبي ﷺ، من النزعة الإنسانية- أخلاقه - رفقه بالإنسان – رعايته بالنبات–رفقه بالحيوان - ...الخ.

- إصدار كتيبات تتعلق بالأنبياء والرسل عليهم السلام " مقارنة الأديان " وبلغات متعددة تُعْرَف ما يقوله الإسلام في حق الأنبياء عليهم السلام وما يقولونه هم في حق الأنبياء عاماً.

وصفوة القول: أن دراسة مراحل الدعوة الإسلامية، و سيرته ﷺ، ليست إلا إبرازاً لهذه الجوانب الإنسانية كلها مجسدة في أرفع نموذج وأتم صورة، وهي ثقافة النبي ﷺ، من خلال ما يتضمنه كتاب الله عز وجل وبما وبلغَ بِهِ عليه الصلاة والسلام.

وفي الختام أسأل الله تعالى، أن يوفقني وجميع المسلمين لما فيه رضاه، وأن يعز الإسلام وأهله، وأن ينصر الداعين إلى الحق ويسدد خطاهم، إنه نعم المولي ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا النبي الأمي الأمين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً والحمد الله رب العالمين .

الباحث